



17.9.2015

سيمونتا أنيلو هورنوبي

رواية

قاطفة اللوز

ترجمة: نجلاء والي

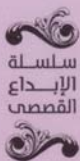


المركز القومي للترجمة

2685



قطاع الثقافة بأخبار اليوم



سلسلة
الإبداع
القصصي



تأليف: سيمونتا أنيللو هورنوبي
ترجمة: نجلاء والي

رواية
قائمة المحتويات

قاطفة اللوز

رواية
رواية
رواية

2006
رواية
تأليف: سيمونتا أنيللو هورنوبي

ترجمة: نجلاء والي

رواية

الطبعة الأولى: 2006
الطبعة الثانية: 2007
الطبعة الثالثة: 2008

Twitter: @ketab_n



تأسس في أكتوبر 2006 تحت إشراف : جابر عصفور
مدير المركز : أنور مغيث

- سلسلة الإيداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- قاطفة اللوز
- سيمونتا أنيللو هورنوبى
- نجلاء والى

- العدد: 2685
- الطبعة الأولى : 2015
- اللغة : الإيطالية
- رقم الإيداع : 25892 / 2014
- الترقيم الدولى: 3 1649 08 977 978
- الإشراف الفنى: حسن كامل
- لوحة الغلاف للفنان الإيطالى: Felice Casorati

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

قاطفة اللوز



رئيس مجلس الإدارة

ياسر رزق

المدير العام

عزت القمحاوي

قاطفة اللوز

سيمونتا أنيلو هورنوبي

ترجمة: نجلاء والي

أنيلو سيمونتا

قاطفة اللوز/سيمونتا أنيلو ،

ترجمة نجلاء والي - ط ١ - القاهرة :

دار أخبار اليوم قطاع الثقافة ، ٢٠١٤ .

ص ، ٢٠ سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧-٨١٦٤٩٣

القصص الإيطالية

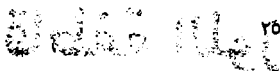
أ- والي نجلاء (مترجم)

ب- العنوان

٨٥٢

إدارة التسويق

تليفاكس : ٢٥٧٩٥٨٩٦



email : thakafa.ad@gmail.com

FaceBook: thakafabookstores

الوكلاء بالخارج

الموزع الوحيد بالمملكة العربية السعودية

المكتبة العصرية : جدة - الرياض - أبها

٢٣١٧٩٧٥ - ٤٧٣٠٠٣٤ - ٦٧٣٠٦٥٨

قاطفة اللوز

هذه ترجمة كتاب

La Mennulara

Di : *Simonetta Agnello Hornby*

Copyright © *Giangiaco Feltrinelli Editore Milano*

Prima edizione ne "I Narratori" settembre 2002

Prima edizione nell "Universale Economica" marzo 2004

Undicesima sedizione gennaio 2008

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: 27354524 فاكس: 27354554

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الاثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٦٣

١. دكتور ميندكو يحضر وفاة إحدى مريضاته

شعر الدكتور ميندكو فجأة بالإرهاق، أم بساقيه وتتميل بذراعيه؛ فقد ظل جالساً أكثر من ساعة في الوضع نفسه، ممسكاً بيدي منولارا، يمسد أناملها بحركة دائرية رقيقة مستمرة.

رفع يدها اليمنى، تاركاً الكف اليسرى مفتوحة فوق الفراش الذي سكنت فوقه بدا الراحلة اللتان لاتزالان دافنتين.

كانت لحظة جليظة، يعرفها جيداً وطالما شعر فيها بالتأثر الشديد، الدور الأخير للطبيب عندما يهزمه الموت، أغلق جفניה برقة. أعاد وضع اليدين، شبك أصابعهما ووضعهما بعناية فوق صدرها، سوى غطاء السرير وشده إلى أن غطى به كتفها وأخيراً قام ليخبر عائلة الفالبيى بوفاة منولارا.

بقى معهم الوقت اللازم، أعطى لجاني الفالبيى المظروف المغلق الذي يحوى آخر وصايا الميتة ونزل بسرعة درجات سلم البيت ملتقياً بالجارات اللواتي حضرن للتعزية.

أحس بالاختناق في ذلك المنزل وما إن خرج من البوابة الخارجية، حتى خطا خطوات بطيئة قصيرة وتنفس بملاء رثيته هواء الصباح النقي. كان الطريق لا يزيد عن عشرات الأمتار إلا أنه بدا أطول، نظراً لضيقه وازدحامه بالانعطافات التي صنعتها الأبنية المكونة من طابقين أو ثلاثة، والتي تضاعفت على مر السنين بشكل عشوائي، وتكدست الواحدة فوق الأخرى والتحمت بالمباني الأصلية، فشكلت معها ما يشبه سورين ضخمين متجاورين وغير منتظمين، يقطعهما قوسان يخترقهما نفق يمر من خلاله، ويتلوى سلم يؤدي إلى السهل، وهو أحد هذه السلام المكونة للشبكة الرئيسية للطرق في روكاكولومبو إحدى المدن الداخلية الملاصقة لسفح الجبل.

تذكر الدكتور ميندكو أنه لم يلف مسبحة حول أصابع المتوفاة كما جرت العادة. استرجع في ذاكرته حجرة منولارا ليدرك سبب تقاعسه. كانت حجرة فارغة بشكل خاص. لا يوجد بها إلا الضروري: سرير، ومقعد، ودولاب، وأباجور ورايو فوق الكومودينو، ومنضدة ضيقة تستخدم كمكتب، عليها صينية صغيرة معدنية تراصت فوقها بنظام شديد، أقلام حبر، وأقلام رصاص، وممحاة كبيرة لمحو الكتابة وفوق الرف صورتان إحداهما لأولاد إخوتها والأخرى باهتة لوالديها، بعض الدفاتر، وعدد قليل من الكتب. كانت الجدران عارية إلا من نسخة لأيقونة العذراء والمسيح طفلاً لفيرقي عند رأس السرير.

كانت الغرفة تفتقر إلى اللبسة النسائية والحس الديني؛ ذلك المزج بين صور دينية، ومثاليل للعذراء وقديسي البلدة، وقنينات مليئة بمياه مقدسة من بلاد بعيدة؛ كل تلك الأشياء التي يزدحم بها كومودينو السيدات، خلّت حتى من السبحة. ورغم ذلك كانت غرفة نوم منولارا مفعمة بإحساس عميق بالتدين، يكاد يصل إلى درجة الرهينة. كان الجزء المرئي من السماء من بين الأسطح المدببة غير المنتظمة ساطع الضياء باهت الزرقة.

توقف الدكتور ميندكو لحظة، تنفس بعمق، رفع عينيه وحملق بشدة في السماء، قال بصوت منخفض: «من يدرى أين ذهبت روحها، الآن فليرحمها الله».

وهبط السلم الذي يؤدي إلى بيته كان جرس الدير يدق الحادية عشرة. حسب ميندكو أنه، قبل موعد الغداء، سيكون لديه الوقت الكافي لاجراء بعض التليفونات وتناول القهوة والتمشية كان يحتاج إلى البقاء وحيداً «حتى طيب عجز مثلي لا يجتاد على فكرة الموت» همس لنفسه وهو يدق جرس بيته.

عاد جاني إلى ردهة البيت بعد اصطحاب الدكتور ميندكو إلى الباب. كانت الأم والأختان ينتظرن في صمت.

لم تجرؤ سانتا على الدخول احتراماً لعائلة الفاليبي وتطبيقاً لأوامر منولارا. لم تستطع على أية حال كتم الفضول، وبقيت في الردهة مستندة إلى باب المطبخ، كان وجهها لم يزل متقلصاً مبللاً بالدموع وذراعاها مهدلة إلى جانبيها، تسترق السمع لفهم ما تناثر من حديث السادة أصحاب المنزل.

ارتمت السيدة الفاليبي فوق «الفوتيه» وألقت برأسها فوق مسنده، امتلات عيناها بالدموع وشردت نظراتها، وليللا مستندة إلى ذراع المقعد تمسح جبهتها، بينما كارميلا تقف بالتراس منتظرة عودة الزوج. سألت ليللا جاني: «ماذا أعطاك الطبيب؟». أظهر جاني المظروف وقد كتب اسمه فوقه بأحرف كبيرة وخط غير منتظم: كان خط منولارا. التفتت كارميلا عند سماع كلمات أختها. كانت تتأملهما وعند رؤية المظروف، لحقت بهما بسرعة صارخة: «لعله الوصية لا تفتحه، ينبغى انتظار ماسيمو» ورددت بصوت تتصاعد حدته: «ينبغي انتظار ماسيمو». أجهشت السيدة الفاليبي بالبكاء مرة أخرى، ورددت بصوت خافت كما لو كانت تبتهل: «كنت أعلم أن منو كانت ستفكر في فقدت كانت تحبني». جاني وليللا أرادا فتح المظروف فوراً، إلا أنهما لم يجرؤا ولم يتسع الوقت لمجادلة أختها لأن سانتا والجارات اقتحمن الحجره بأصواتهن وإشاراتهن في وقت واحد لتقديم العزاء وعند رؤيتهن انخرطت السيدة الفاليبي في نحيب مستعر، هرعن اليها النساء على الفور لمواساتها. «ماذا سيحدث لي، كانت منو تعتني بي، الآن ماذا سأفعل وأنا مريضة...»

احتضنت كل منهن الأخرى في عناق طويل وقد اختلطت روائح عرق آباطهن بروائح الطعام الذي كن يطهونه، خليط من الثوم والزيت والطماطم والبقدونس ولبابة الخبز. رائحة قديمة طالما صاحبت احتقار عائلة الفاليبي للطبقات الدنيا في المجتمع.

اقشعرت ليللا من فكرة أن أمها عاشت منذ وفاة أبيها بمنزل يشاطرها فيه بائع السمك، وكهربائي عائلة الفاليبي، وموظف صغير. شكرت الأقدار التي جعلتها تعيش في روما بعيداً عن تلك البلدة القذرة وأخفت استياءها بعد آخر حضن كرهه الرائحة. أوضحت ليللا للنساء أن الأم مجهدة، وكانت على وشك الإغماء، ولحسن الحظ

أسعفها الطبيب ميندكو بالدواء، وأمرها بالراحة في الفراش. أما هي وكارميلا فلن يتركها وحدها تعاني من الانهيار، بل ستبقيان معها، والجارات الفضليات يمكنهن البقاء بالبيت أو الذهاب إلى الحجرة التي ترقد بها منولارا، ويمكنهن إن أردن، مساعدة سانتا في تجهيز الجثمان أما الأختان فستتوليان العناية بالأُم المحتاجة إلى مساعدتهما في هذه اللحظة الصعبة.

السيدة الفاليبي تأكيدياً لما ذكرته الابنة والتي كانت تتحدث بثقة يسمح بها وضعها كزوجة لطبيب، غاصت في المقعد الوثير ومدت ساعديها فوق ذراعي المقعد وتركت يديها تتدليان، وألقت برأسها على مسند المقعد. بدأت تهمهم: «لا أشعر بأننى على ما يرام، ربما سأفقد الوعي» وعند نطق هذه الكلمات، هرع إليها أبناؤها الثلاثة وسانتا بيد أنهم. لم ينجحوا في تجنب التدخل الحتمى الملح للنساء اللاتي لم يكن قد غادرن الحجرة بعد، وكل منهن تبارى في النصح والمبالغة في المساعدة.

حملن معاً السيدة الفاليبي إلى حجرتها وأرقدنها في فراشها، فكانت هناك من تقدم لها كوباً من الماء أو من تضع فوطه مبللة بالمياه فوق جبهتها أو تضبط وضع الوسادة خلف ظهرها، أو تمسك بمعصمها. والسيدة الفاليبي مسرورة، راضية برعايتهن لها لدرجة تخشى معها أن تفقد تلك الرعاية إن شعرت بالتحسن، زادت من الشكوى والنحيب. وعندئذ وصل الصهر.

لم يجرؤ ماسيمو ليوني على اصطحاب كارميلا في ذلك الصباح، عندما اتصلت سانتا لتوقظهم وتخبرهم بأن منولارا تحتضر. فضل البقاء ببيت الفاليبي، الذي يبعد مسافة دقائق في انتظار الأخبار. فقط عندما اتصلت به كارميلا لتخبره أن المرأة دخلت في غيبوبة، شعر بأنه يمكنه اللحاق بها وكان في اللاوعي لم يزل يحترم أمر منولارا: «أقسم برأس أمى أنه لن يضع قدمه في بيتى الذى أعيش فيه.» كان حرماناً وطرداً حقيقياً. كان ماسيمو قد تزوج من كارميلا منذ سبع سنوات، وطوال تلك السنوات لم يكن مسموحاً له بالدخول من البوابة أو الاتصال تليفونيا بزوجته أثناء إقامتها في ذلك البيت. كرهها دائماً ولم يزل يكرهها الملعبونة منولارا. الآن ماتت أخيراً.

كان يرتقى السلم وقد تملكه شعور بالإثارة ممتزجاً بالضغينة. سينظر إليها جسداً ميتهاً، لكنه أدرك أنه ليس بإمكانه البصق على جثتها؛ فالأصوات التي كانت تتصاعد من الداخل تشي بأن زيارات التعزية قد بدأت لتوها.

كانت الجارات تعاملنه كأحد أفراد عائلة الراحلة، يحطن به بعطف في محاولة للتغاضي عما يسببه الموقف من حرج؛ فقد كن يعلمن جيداً بإقضاء منولارا له. كان لكلمات التعزية مغزى محدد: «كانت تحب زوجة سيادتك كابنتها، كانت تفعل كل ما تستطيع من أجلكم. كانت طيبة صدقنا»

و بمجرد أن تمكن ماسيمو من التملص منهم، هرع إلى حجرة نوم الحماة، حيث كان صهره ينتظره بقلق.

حيا كل منهما الآخر بسرعة دون القبلات، والعناق المعتاد.

حرصت ليلا على إغلاق الباب جيداً بعد أن طلبت من سانتا تركهم وحدهم، وألا تسمح بدخول أحد. ثم نظرت إلى أخيها نظرة بليغة.

فتح جاني فوراً المظروف وأخرج ورقة وبدأ في قراءتها بوجه عابس. الأختان وصهره لم ينبسوا ببنت شفة، وتسمروا حوله. استمر جاني في قراءة الخطاب في صمت. لم تستطع ليلا السيطرة على نفسها: «اقرأه للجميع، ما رأيك؟»

أعطاهم الأخ الخطاب: «لا أفهم شيئاً، انظري أنت.» بدا أن الأم عادت إلى وعيها فجأة وكانت تتابع حديثهم. وعند سماع كلمات جاني، سقطت مرة أخرى فوق الوسائد تنن وتتألم.

في هذه المرة لم يعرهما أحد اهتماماً حيث إن جاني بدأ في القراءة بصوت عال:

«ليست هذه بمثابة وصية حقيقية، إنني قد أعطيتكم كل ما يحق لكم، وليس لديكم أية حقوق أخرى عندي، ولكنني أطلب منكم أن تنفذوا ما أقول للمرة الأخيرة»

وسأجلب لكم نفعا كثيرا. أريد جنازة بروكا كولمبا بدون مسيرة فتيات يتامى وراهبات، يحضرها كل عائلة الفاليبي لأننى أستحق ذلك، وسيتم دفنى فى المقبرة التى اشتريتها أمام مقابر عائلتكم، كما يقضى العرف بالنسبة «لخادمة» بيت الفاليبي. يجب وضع صورتي مع الكلمات الآتية:

«هنا ترقد ماريا روزاليا أينتسريلو المعروفه باسم منولارا والتى التحقت بخدمة عائلة الفاليبي عندما كانت فى سن الثالثة عشرة، وخدمت العائلة بكل إخلاص وأمانة إلى أن وافتها المنية».

ليس لدى شيء لأتركه لكم، البيت الذى قضيت به نحى كتبته باسم السيدة أدريانا إن رغبت فى الحياة فيه، وعليكم أن تبحثوا لها عن خادمة ماهرة وتدفعوا لها أجرا جيدا كي تجد من يخدمها حتى وفاتها. اعطوا الأشياء التى تركتها بغرفتي للأب أرينا كي يعطيها للفقراء والكنيسة. كل ما تبقى من الأثاث أتركه للسيدة أدريانا. أريد أن تقوموا بنشر النعى فى جريدة «جورنال دى سيشيليا» كما أمله عليكم كلمة تلو الأخرى:

اليوم توفيت

ماريا روزاليا أينتسريلو

المعروفة باسم

منولارا

عن عمر ٥٥ عاما

مديرة أملاك وخادمة لدى عائلة الفاليبي

تعلن عائلة الفاليبي هذا الخبر المؤلم

وتعبر عن حزنها العميق لمصابها الفادح

يعلن النبأ الحزين السيدة أدريانا مانجرشينا، أرملة المحامى أوراتسيو الفاليبي، الابن جاني وزوجته أنا كيوفاروا، الابنة ليلا وزوجها ماسيمو ليونى. عاشت بيت الفاليبي منذ كانت فى الثالثة عشرة وخدمت بإخلاص العائلة التى ترثها بالدمع

الوفير. وستقام الجنازة في تمام الساعة الثالثة بكنيسة العذراء الأم يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣ وسوف تشيع الجنازة إلى مقبرة روكا كولومبا للدفن بمقابر العائلة.

لا تبلغوا أبناء أختي بخبر وفاتي، فأنا لا أريد حضورهم الجنازة، الروح تعود إلى الرب والإرث لمن يستحقه.»

بادرت الأم بالحديث: «ألم أقل لكم بأن منولارا فكرت في كل شيء، تترك لي بيتها.. ومن منكم سيعتنى بي، بعد أن أصبحت وحيدة؟» رفعت رأسها من فوق الوسائد ونظرت حولها، ثم تكومت في سريرها بصمت. تجاهلها تماما الأبناء وزوج الابنة الذين أصابهم الوجوم.

وفي تلك الأثناء، انتزع ماسيمو الورقة من يد جاني وحقق بها طويلا وجعل صوته يعلو تدريجياً:

«أية ورقة هذه أين الأموال؟ ولمن تتركها لقد تحملت إهانات تلك العاهرة لأنك، لأنك..... كان يصرخ مشيراً بإصبعه نحو الزوجة، كنت تقولين إنها كانت ستحترمنا عند موتها! غبية! لست إلا غبية!»

أجهشت كارميلا بالبكاء، واتجهت إلى سرير الأم تحتوى به، بينما كان جاني يحاول تهدئة صهره مذكراً إياه بأنهما ليسا ببيتهما، وأن في الحجرة المجاورة مجموعة من الأشخاص في زيارة تعزية، كلهم آذان صاغية لإشاعة ما يسمعونه منهم في البلدة كلها.

جلست ليلاً في أحد أركان الغرفة وحيدة، مستغرقة في قراءة الخطاب مرة أخرى. ثم تحدثت بصوت منخفض محاولة السيطرة على الغضب الذي كان يجيش بصدرها وكانت تشعر به يصعد إلى حنجرتها ويمتزج بكلماتها: «لقد نظمت كل شيء، حددت أيضاً ساعة الجنازة وطلبت من الطبيب ميندكو كتابة الخطاب لها. يبدو بوضوح أنه خط شخص آخر. خطاب خبيث، لا ترغب في حضور أي فرد من عائلتها للجنازة، ربما قد قطعوا علاقتهم بها ولن يدهش أي منا لذلك، بينما على

العكس تريد بل تأمر مرة أخرى أن نتحمل نحن نفقات الجنازة ونشر هذا النعى العبثى المخجل ركيك اللغة المليء بالأخطاء النحوية وغير المعتاد بالنسبة للخادمة بل «شغالة مطبخ» كما كانت تسمى نفسها، وأين ننشره على صفحات «جورنال دى سيشيليا»، وهى التى لم تخرج من هذه البلدة ولا يعرفها أحد خارج حدودها. لم تفكر فى نشره فقط فى «سيشيليا» جريدة المقاطعة، تريد إعلان خبر موتها على صفحات الجريدة التى تقرأ فى كل الجزيرة.

مصابة بجنون العظمة، نص إعلان الوفاة ليس إلا تمجيداً لها، كلمات مديح عنها لم أكن أتخيلها مهووسة بنفسها وعدمية الإحساس بالمسئولية لهذه الدرجة. الإذلال الأخير الذى يجب أن نتحمله. بل تسخر منا؛ فعلى الرغم من إقرارها بأنه ليس هناك ما تركه لنا، تخبرنا أن الاستمرار فى إطاعة أوامرنا، سيعود علينا بالنفع، يا لها من مهانة».

كان غضب ليلا قد بلغ مداه لدرجة أنها لم تستطع أن تنهى حديثها، وكان الباقون ينظرون إليها فى ذهول.

وأثناء ذلك وصل أشخاص آخرون لتقديم التعزية. كانت أصداء عبارات الرثاء المبالغة تتردد فى أرجاء الحجرة. وفى تلك اللحظة ارتفع صوت حاد لامرأة كانت تبدو وكأنها تنادى على بضاعة فى السوق:

« ياها من قديسة! قضت حياتها فى العمل والتضحية! خسارة فى الموت! » وغشى صوتها، كورال من عبارات غامضة، كانوا جميعاً يتحدثون عن مآثر المتوفاة. عادت ليلا للحديث بكراهية: « تستحق أن نفتح الباب لنخبر الناس بكل صراحة ألا يكونوا تلك الخادمة التى تسخر منا دون رحمة».

كان ماسيمو واقفا ويدها تطبقان على مسند المقعد وكأنه يسحقه بيده، وقال بصوت عال كما لو كان يريد أن يُسمع كل من بالبيت: «كانت تحاول فقط ودائماً إخراجنا، هذه الورقة مليئة بالبغض»

ثم أضاف جاني بحنق ملتفتاً إلى ليللا: «أنت تعيشين في روما أما أنا فأدرس بالجامعة وأحمل لقب عائلة الفاليبي. نشر هذا النعي بالجريدة سيسبب لي ولنا حرجاً بالغاً سيعتبرنا الناس حمقى وغير قادرين على تصريف أمورنا بل سيسخر منا الجميع.»

أخذت كارميلا تصرخ: «على الأقل أنت رحلت من هنا أما أنا فمن سيعتنى بي ؟ أنا أعيش هنا في روكاولومبا، ما سيقوله الناس عني؟»

كانوا يتحدثون جميعاً في صوت واحد وهم يسرون في الحجرة غاضبين متوترين مثل حيوانات مفترسة حبست في أقفاص.

كانت السيدة الفاليبي تتابعهم واهنة، وخائرة القوى كأنها طفلة، تتقلب بين الوسائد فوق السرير الكبير، وقد امتلأت عيناها بالدموع، دهشة وخائفاً. كان يجب أن تتدخل لمنع حدوث فضائح وأدهشت نفسها والآخريين بالنبرة الحاسمة التي تحدثت بها، فلم يكن يهمها ترتيبات الجنازة ولم تكن لتهتم بها. كل ما كان يعينها هو الأبناء ونصيبيهم وهم أنفسهم كان يجب أن يهتموا أكثر منها؛ فهي قد كبرت في السن واقترب وقت رحيلها عن الحياة، كانت تشعر بذلك في عظامها: «شخصية صعبة ومارقة، نعم، ولكنها أيضاً أمينة وقد خدمتنا جميعاً. تستحق أن نقيم لها جنازة. صدقوني ستمنحك كل ما يخصكم، ربما كان ذلك الخطاب يتعلق فقط بترتيبات الجنازة. بالتأكيد ستكون هناك وصية. ربما رتبتم الأمر بحيث تتجنب دفع ضرائب التركات فلم تكن منو تحب دفع الضرائب. أرجوكم اهدأوا فهناك أشخاص بالخارج.»

وانهمرت دموعها ووهنت تماماً من الحوار الطويل.

أيضا كارميلا كانت قلقة بشأن الميراث وكانت تتعلق بأهداب الأمل: «ولكن يجب أن نتذكر أن منو كانت تحافظ دائماً على وعدها وقد أخبرتنى بذلك حتى الليلة الماضية، يجب أن نفعل ما نقول وسنحصل على الميراث، من الجائز أن هناك وصية لدى موثق العقود أو لدى شخص آخر أو أنها قامت بإجراءات هبة أو فتحت

بأسماننا حسابات في البنك دون علمنا.. يجب البحث في أدراجها لم تكن لتثق بالطبيب مينديكو الشارد. ما رأيك يا ماسيمو؟؟» كانت تبحث عن مؤازرة الزوج الذي أدار ظهره للجميع ووقف أمام الشرفة. لم يحرك ماسيمو ساكنا. شحب وجه كارميلا وارتمت من جديد تنتحب فوق سرير الأم. سانتا كانت في ذلك الوقت تدق الباب بفضول وقلق. وكانت النسوة الأخريات قد سمعن الجلبة وكن يتحرقن شوقاً لمعرفة ما حدث. سألت سانتا بحذر إذا كان من الممكن السماح بدخول بعض الأشخاص لتقديم واجب العزاء للسيدة أدريانا. امتلأت الحجرة من جديد بالأشخاص وانحل الاجتماع الأسري. كان ماسيمو قد انسل دون أن يراه أحد ولم يظهر حتى بعد الظهيرة. لم يمتلئ بيت منولارا المتواضع من قبل بكل هذا الجمع الغفير، وقد استمرت الزيارات حتى ساعة الغداء فضلاً عن أفراد طبقتها حضر أيضاً أقارب وأصدقاء مقربون للسيدة أدريانا وأيضاً عمال قدامى بمنزل الفالبي.

٢. ظهيرة يوم الوفاة عائلة الفاليبي تتخذ بعض القرارات الحاسمة، والإخوة الفاليبي يقضون الليلة، كل في شأنه بدلاً من السهر في بيت المتوفاة

في أول وقت ما بعد الظهر، خلال فترة توقف قصيرة لزيارات التعزية غير المحتملة. اقترحت ليلاً خطة عمل: «أولا ينبغي الإعداد للجنائز فالجثة لن تبقى للأبد هنا. لنفعل ما قالته اعتقد أنه مناسب ثم ندخل غرفتها ونبحث عن وصية أو أية وصايا أخرى مكتوبة. وستصل في أسرع وقت بموثق العقود فأتسانو، لنعثر على المحاسب أو المحاسب القانوني الذي كان يقوم بإقرار الذمة المالية يجب أن نفهم من لديه الوصية، أما بالنسبة لنشر النعي فأنا غير موافقة على نشره بأية جريدة في نهاية الأمر لم تكن إلا خادمة»

اعترضت السيدة الفاليبي، مستقوية بذكر المعزين لمحاسن الراحلة، علا حديث ليلاً بشكل أدهش الأبناء. كانت تريد أن ينشر النعي على الأقل في البلدة مكتوباً كما طلبت منو. تحدثت طويلاً بصوت قوى: «بعد موت والدكم، كانت حياتي محتملة فقط بفضل مولارلا، لكل منكم عائلته ويعيش في بيته، لم يعرض أي منكم استضافتي أو الإقامة معي بمنزل الفاليبي. توقفت برهة ونظرت إلى جاني الابن الذكر ابنها المفضل ثم استطردت: «ومع ذلك وافقتم جميعاً على أن أعيش بمفردي. في الليل تصك الرياح النوافذ ويرتجف زجاجها وأسمع آلاف الأصوات الأخرى. أحس بالخوف. وفي النهار، تصيبني الحجرات الخاوية والرددهات المهجورة لذلك المنزل بالكآبة، فضلا عن برد الشتاء ونفقات الصيانة. لم تفكروا في، فكرتم فقط فيما سيقوله الناس، بينما أحتاج إلى صحبة. اقترح منو أن أبيت وأتناول الطعام لديها كان الاقتراح الأفضل. كنت بالنهار حرة في الذهاب إلى بيتي وقتما أشاء، أستقبل الناس بالبيت بالغرف التي حافظت منو دائماً على نظافتها وترتيبها، لم تتركني أبداً سواء هنا أو بمنزل الفاليبي. كانت تعلم أنني كنت ساموت رعباً. لقد اعتنت بي منو كثيراً لذا تستحق بالفعل الجنائز والنعي».

اضطر الأبناء إلى الإذعان لطلب الأم، وقد فوجئوا بالنبرة الحاسمة في حديثها وباللوم الخفي تجاههم.

في النهاية، توصلوا إلى حل يرضى الجميع: أن يتم نشر النعى ولكن فقط في شوارع البلدة وأن تُعاد كتابة النص. وقد أصيبوا بالدهشة أن ماسيمو الذي أخبرته كارميلا بذلك بالتليفون، عرض أن يتولى ذلك الأمر فشكره الجميع.

مرت بقية اليوم بسرعة. وجدت السيدة الفاليبى التسرية والسلوان في الزيارات والمكالمات الهاتفية الودود للصديقات. كانت لا تمل من تكرار سرد تفاصيل مرض منو، الأم الاحتضار، والجزع الذى سببه رحيلها المفاجئ بل كانت تشعر بالراحة من الأسى لنفسها والذى كان له ما يبرره هذه المرة.

أرادت أن يبقى جاني بجانبها وبذا يترك للبتين الوقت لإنجاز العديد من الأشياء ومن بينها الإعداد لعودة الأم إلى بيت الفاليبى والذى كان من الأمور التى لا مناص منها على الأقل لفترة مؤقتة.

انشغل جاني وكارميلا اللذان يعرفان الناس أفضل في تلك البلدة بالمكالمات، وزيارات العزاء العديدة والمتلاحقة في منزل منو الصغير. كانت ليلا قد تركت روكا كولومبا عند زوجها واحتفظت بعلاقات محدودة بالبلدة، لذا تولت الإشراف على سانتا وتوجيهها فيما يتعلق بتنظيف وإعداد بيت الفاليبى، والبحث عن الوصية. وكان موثى العقود فاتسانو الذى اتصلت به بالفعل لتسأله، قد أقر ببعض الحرج لعدم علمه بأية وصية واقترح عليها أن تبحث جيدا في أدراج منو.

كانت ليلا قد بحثت في الأدراج وفي الدولاب عندما كانت وحدها، عند انفضاض الزائرين من حولها إلا أنها لم تجد أشياء ذات أهمية. بعض صور أولاد أختها، فواتير وإيصالات، دفتر صغير مملوء بالأرقام وعمليات الجمع، قائمة مشتريات، ملاحظات، حتى مسودات نعي. قررت ليلا أن تقوم ببحث منظم أكثر ببيت الفاليبى.

وفي بعد الظهر، رجعت ليلا إلى قصر العائلة وقد شعرت بالتأثر وهى تفتح البوابة الكبيرة بالمفتاح الحديدي الغليظ. وتدخل وحيدة في البيت الذى عاشت فيه وهى لاتزال فتاة مع والديها وجدتها، تتحرك نحو غرف الخدم عابرة أماكن لم ترها منذ أعوام طويلة: الحجرة التى كانت الخادماات يقمن فيها بكى الملابس، الغرفة الملحقة بالمطبخ، المطبخ الكبير الذى لم يتم تحديثه أبداً. ثم ارتقت السلم الخشبي الضيق المؤدى إلى حجرات

الخدم، في الطابق الأوسط الذى طالما سكنه العديد من الخدم والذى كانت منو تنام فيه لسنوات عديدة. على الرغم من وجود الغبار والأتربة في كل مكان، فقد كان من الواضح أن الغرف كانت تنظف وترتب بشكل منتظم؛ فبدأ أن البيت كان مغلقاً فقط لفترة الاجازة الصيفية. كانت فوق الأسرة أغطية رقيقة قديمة ولكن نظيفة، كانت أغراض الغرفة وبقية المفروشات محفوظة داخل الدواليب كي لا تتسخ بالغبار. أما الحمامات والأحواض فكانت نظيفة لم تستخدم. لم تجد شيئاً مما كانت تبحث عنه، فقط قوائم لمحتويات الدواليب، كتبت بأحرف كبيرة بخط منو المرتعش.

عندما حل المساء، تنبهت ليلاً للأصوات بالبيت، صرير واصطكاك الأبواب، حفيف الأشجار التى تصفحها الرياح بالحديقة الداخلية. رفرقة أجنحة الطيور التى بنت أعشاشها تحت إفريز المبنى، وللمرة الأولى شاركت الأم مخاوفها، بل وشعرت بالارتياح لفكرة قضاء الليل في بيت الخادمة.

كان جاني الفاليسى رجلاً هادئ الطباع وقد هزته أحداث الأيام السابقة. كان يعيش حياة هادئة ومنتظمة في كاتنيا مع زوجته الشابة التى يحبها جداً والتى تُدرس أيضاً بالجامعة، وقد أخبرته منو بحقيقة مرضها في بداية الشهر وأعطت انطباعاً أنها لن تموت بهذه السرعة. وبمحض الصدفة حضرت ليلاً إلى كاتنيا يوم السبت الماضى لإنجاز بعض الاعمال والإي كانت ستأتى للزيارة المعتادة للأم في نهاية الشهر مستقلة طائرة الصباح الباكر من روما لتعود بأخر رحلة عودة في اليوم نفسه. وكانت كارميلا قد أخبرتهما في الليلة الماضية عن تدهور صحة منو وطلبت منهما الحضور فوراً.

وكانت الأختان قد قررتا بناء على اقتراح كارميلا ألا يقوموا بالسهر بجانب المتوفاة كما جرت العادة، وأن يقتصر الأمر على قضاء ليلاً وحدها ليلة أخيرة في ذلك المنزل مع الأم التى رفضت أن تترك الجثمان وحيداً. أما جاني فكان سيعود في اليوم التالى مع زوجته في موعد الجنائز ويعيدون فتح بيت الفاليسى لتعيش فيه الأم بكل ارتياح من جانبهم وقلق كبير من جانب صاحبة الشأن، وهكذا ينتهى بالنسبة لهم ذلك الوضع الشائن لإقامة الأم مع الخادمة.

عندما رحل جاني عن روكاكولومبا وتركها خلف ظهره، استطاع إعادة تقييم الوضع. كانت منو جزءاً من حياته حتى فترة المراهقة. خادمة ومربية مخلصمة وحنون ثم مديرة منزل وأملاك العائلة. مع الوقت قست مشاعرها إلا أنها ظلت شخصاً لا غنى عنه لعائلة

الفالبيي، كانت تشجعه على الدراسة وتحذره بكلام غير مفهوم من مغريات العالم الحديث وتذكره بأهمية وضعهم الاجتماعي مشددة على أنه يجب أن يعلى من اسم عائلته. وفي النهاية كان سعيداً بالتخلص من هذا الضغط العائلي والذهاب إلى المدرسة الداخلية الثانوية بكاتنيا. ومنذ تلك اللحظة انفصل جاني عاطفياً عن العائلة كلها بما فيها والداه: كان يحتقر رثاء أمه الدائم لحالها وثقافتها المحدودة وقد قهرته دائماً بالتصاقها الأثافي القلق به، أما والده فقد رسخ بينهما سوء الفهم المتبادل.

وبعد موت الأب لم يتردد جاني في سحب إدارة أملاكه التي ورثها عن أبيه من منو. وقد حذت الأختان حذوه، وبذا قضا على أساس سلطتها داخل العائلة. ولم تنجح منو في استعادتها حتى بعد القرار المهين للأم بالاقامة في بيت الخادمة، ثم نجحت في استعادتها جزئياً فلكى تجبر الأبناء على زيارة الأم قررت تخصيص مبلغ شهري لهم، يدفع في نهاية الشهر، شريطة أن يحضروا بأنفسهم إلى روكاكولومبا لاستلامه.

وفي المرات التي لم يمتثلوا فيها لذلك الشرط، تحتم عليهم التنازل عن المبلغ، وتنادرا ما حدث ذلك فلم يكن مبلغاً بسيطاً وكان الحصول عليه مريحاً للجميع.

طوى جاني يموت منو صفحة من حياته، الآن يمكنه التركيز على مستقبله الأكاديمي والأسرة التي كان ينشد تكوينها مع زوجته. بقى لغز ثراء منو الواسع وصعوبة الحصول على تلك الأموال فضلا عن مشكلة رعاية والدتهم، إلا أنه كان يأمل في إيجاد حلول لكل هذا مع الوقت.

وكان لجاني قدرة هائلة، مثل أبيه، على التخلص من كل ما يضايقه: وبمجرد أن عبرت السيارة مفرق طرق روكاكولومبا وبدأت في الهبوط إلى الوادي في انحدار بطيء مستمر، عابرة غابات البلوط الكثيفة من إقطاعات أمراء برولي الذي أدار أجداده أملاكهم لأجيال متتابعة، بدأ يستشعر متعة رؤية زوجته، وقد نسي البلدة وسكانها، إلا أنه في تلك الليلة أصابه حرقان بالمعدة، ولم ينم جيداً.

٣. ماسيمو ليوني يحتفل بموت مولاراً بتهور على طريقته

بدون شك، وعلى العكس من الجميع، كان ماسيمو ليوني أكثر من حظى بيوم سعيد. وقد انشغل في الظهيرة بالأعداد للجنائز. وأعد النعي كما اتفق مع العائلة، ود كتابته بعبارات أكثر إيجازاً، بيد أنه فكر في إرضاء الحماية الممثلة الكوميديّة الكبيرة، في رأيه، القادرة على افتعال نوبة هستيرية أو التظاهر بالمرض لتحصل على ما تريد. جهزت الجنائز بشكل بسيط يتناسب مع الوضع الاجتماعي للراحلة، وقد شعر ماسيمو بالامتنان والرضا من كلمات الشناء والعرفان من جانب أشقاء زوجته، وخاصة أن مزيجاً من الشعور بالتحرج والخجل، كان لم يزل يجثو فوق صدره بعد إساءة منو معاملته أمام الجميع.

وفي المساء تناول العشاء مع زوجته وحدهما، وكانت كارميلا تحكى له عن الزيارات التي استقبلوها في ذلك اليوم، عندما قطعت حديثها فجأة متسائلة:

«يا ترى ماذا سيحدث يوم ٢٥؟»

- لقد فكرت في الأمر هذا الصباح. هل تعلمين من أين كانت تحصل على النقود؟»

أجابت كارميلا بتلعثم: «كانت تصل بالبريد، أظن ذلك.»

حثها ماسيمو بغلظة على الحديث: «وكيف عرفت؟»

كانت تقول دائماً إن عليها الذهاب إلى مكتب البريد يوم ٢٥ لأن سان باجينيرو سيرسل إليها بالنقود.*

أنهى ماسيمو الحديث:

«إذاً ستصل النقود كالمعتاد»

سألته كارميلا: «ومن سيذهب لأخذها» بينما تكدرت عيناه الزرقاوان، أمام فكرة أن هذا الدور الجديد ربما يقع على عاتقها.

«اسمعي اليوم كان مشحوناً، سنفكر في ذلك الأمر غداً.»

* سان باجينيرو: قديس العمال

وانتهيا من تناول العشاء.

بعد العشاء ذهب ماسيمو للحاق بأصدقائه في البار بالميدان. تنفست كارميلا الصعداء، وعندما بقيت وحيدة، بدأت في إجراء مكالمات تليفونية طويلة مع صديقاتها اللاتي كانت تتحدث اليهن يوميًا كي تعلن خبر موت مونلارا للقليلات اللاتي لم يسمعن به. وأوصت الجميع بعدم حضور الجنازة، التي ستقتصر على عدد محدود جدًا من المقربين، وستتم في موعد خارج المألوف بالنسبة للجنازات؛ لذا فالحضور يعنى التنازل عن راحة قيلولته، وفي النهاية الأمر يتعلق بجنازة خادمة، وحتى في هذه المناسبة لم تنجح في إخفاء تدمرها من منو: «في الحقيقة لا يجب الحديث بسوء عن الأموات إلا أنها كانت صعبة الطباع وكان يلزم صبر الملائكة لتحملها... ماسيمو، قديس عانى منها الأمرين، ومع ذلك ساعدنا كثيرًا اليوم».

أخفت كارميلا أن العائلة ستعلق النعى بشوارع المدينة لأنها كانت تشعر بالخجل من ذلك.

انتابت ماسيمو أفكار القلق والخوف المعتادة، أثناء سيره نحو الميدان. في حين كان يتطلع وقت الظهيرة لرؤية أصدقائه والحديث معهم، الآن على النقيض من هذا، يشعر بالخوف من المستقبل، فقد ضاع الدخل المستقر، الذي على الرغم من خفضه إلى النصف، إلا أنه كان يجنبه أذى الدائنين بعد إفلاس نشاطه التجاري.

أعاد التفكير في حديث كارميلا وهي ليست بلهاء على أية حال. كان قد قبل أن تقنعه زوجته وأشقاؤها بأن الوصية ستؤول إلى ورثة الفاليبى. الآن ومضت في ذهنه خاطرة إن لم تترك الخادمة أية وصية فستؤول الثروة إلى أبناء شقيقتها. رأى الآن الأمر بوضوح. لهذا لم ترغب في حضور أبناء شقيقتها الجنازة، كانت آخر سخريتها من عائلة الفاليبى. «كونت ثروة من أموالكم، الآن سأجعلكم تتحملون تكاليف الجنازة ثم أترك كل ميراثي لورثتي الشرعيين.» ربما فكرت تلك بكل هذا الخبث، و فقط أمام فكرة أن تسير الأمور على هذا النحو، شعر ماسيمو بقواه تخور وببرودة ورجفة في ساقيه.

كان على وشك العودة إلى المنزل لو لم يخطط أحدهم على كتفه قائلاً:

«أنت رجل قوى يا ماسيمو، بعد يوم شاق ببيت الفاليبي، لم تتنازل عن الخروج مع أصدقائك!» وأمام ذلك تشجع ماسيمو وواصل السير مع صديقه نحو البار حيث أسرف في الشرب وجمع حوله أصدقاءه حيث تحدث معهم كل الوقت تقريبا عن منولارا: منذ سنوات عديدة كان يتمنى موتها، أهانته كثيرا، كانت لصة اشترت بيتا ومن يدرى أية أملاك أخرى بالنقود التي سرقتها من زوجته وأشقائها. كان ماسيمو يردد ذلك على سمع كل من ينضم إلى الجلسة، بل كان يكرر الحديث بقلق، بحثاً عن مؤيد لكلامه. « تلك المرأة ارتكبت الكثير من الأفعال الشائنة التي تستحق معها الموت مقتولة ربما كنت سأقتلها أنا بيدي، وفي النهاية لم يعد هناك داع فسمها تصاعد من حشاها وخنقها».

زالت عن ماسيمو الهواجس التي هاجمته أثناء الطريق إلى البار بعد أن شعر بالارتياح من أثر الشراب، فسرى في نفسه من جديد الأمل في الميراث وشجعه مرح الأصدقاء الخبيث، وشعر بمذاق الثراء الذي سيعود أخيراً إلى عائلة الفاليبي ولم يخش إظهار سعادته. وفي لقاء يسوده المرح، اختتم حديثه بأنه كان قد أقسم ألا يبلغ الأربعين وتلك البائسة تكدر صفو حياته، وفي العام القادم تتحقق النبوءة وسيحتفل بعيد ميلاده في تاورمينا، وكل الأصدقاء مدعوون لحضور الحفل، حفل للرجال فقط طبعاً.

وفي الهزيع الأخير من الليل، راود ماسيمو إحساس في طريق عودته إلى المنزل مترنحا مثلاً، أنه تحدث أكثر مما ينبغي. وعادت الهواجس تهاجمه. في نهاية الأمر منولارا على الرغم من قسوتها إلا أنها كانت عادلة إلى حد ما وعلى الرغم من بغضها له، إلا أنها لم تعامل كارميلا بشكل مختلف عن إخوتها كما كان يخشى. في الحقيقة من أول يناير في تلك السنة، بدأت منولارا الدفع لكارميلا عن طريق تسديد الديون مباشرة إلى أصحاب المحلات ثم إعطائها ما تبقى بعد ذلك.

وكانت أخته تريد أن تعرف إن كانت شكوك منولارا صحيحة وهل فعلا ضرب كارميلا؟

أنكر ماسيمو التهمة بغلظة مؤكدا أنه في كل الأحوال من واجب الزوج تأديب زوجته وفرض احترامها له، وإن لجأ عند الضرورة إلى استخدام يديه، إلا أن ذلك ليس شأنه مع كارميلا، لأنه يعرف جيداً كيف يتعامل معها، أما منولارا فليست سوى شخصية كريهة وكاذبة تريد أن تدمر سعادته الزوجية.

بعد هذا الحديث، أصبح ماسيمو يتجنب البقاء وحده مع شقيقته الكبرى، والتي كان يحبها منذ صغره، لأنها كانت تساعد دائماً وتحميه من عقاب عصا أبيه.

ولكنه كان يعلم بشكوك منولارا، أثناء مشاجرة مع كارميلا، ليلة عيد الميلاد، ربما كان قد أسرف في الشراب، وجّه لكمة إلى صدر كارميلا انتهت فوق رقبتها وتركت بقعة زرقاء كبيرة، حاولت كارميلا أن تخفيها بوشاح، وقد أهداها وشاحاً جميلاً من الحرير لتسامحه، إلا أن تلك الشمطاء منولارا ترى كل شيء ففطنت إلى أثر اللكمة.

ومنذ ذلك الحين تعلم ماسيمو أن يضرب زوجته ضرباً غير مبرح، وفي مناطق من جسدها خافية عن الأعين.

عندما كان يعود إلى البيت ثملاً، تتملكه رغبة عارمة في الانتقام من كارميلا، ينهش الغضب جسده ويعذبه الاحساس بالدونية، فكان بدلاً من ضربها، يضاجعها بعنف يخترقها إلى الحشا.

وبعد تفرغ كل الضغينة والحقن الذي يموج بداخله تجاه العالم بأسره، كان يحس بالراحة فيستلقى خائراً القوي راضياً بجانب زوجته المنهكة.

وكانت تلك الطريقة قد غدت في حقيقة الأمر ممتعة لكليهما. كانت كارميلا تفسرها بتجدد العشق والشغف، وتعتبرها دليلاً على الحب برغم الأم الجسدي الشديد، وهكذا فعلاً في تلك الليلة.

٤. في بيت الطبيب منديكو

تبادل أطراف الحديث بين الأخ وشقيقته يوم موت مولارا

كان الطبيب منديكو يعيش منذ ثلاثة أعوام مع شقيقته كونشيتا أرملة دي برهما في بيت العائلة. وقد بقيا أرملين وحيدين منذ عادت كونشيتا إلى روكاكولومبا.

أولادهما يعيشون في مدن أخرى بل خارج صقلية.

كانت شقيقته تردد دائماً: «هذا جزء الأمهات اللاتي يعلمن أبناءهن ويربيهن جيداً كي ينجحوا في حياتهم ويرحلوا ونبقى نحن شيخين وحيدين تعيسين». في الحقيقة كان الأخوان يعيشان في سعادة.

كانا قد استعدا عادة قديمة في الطفولة، فكانا يعزفان على البيانو معاً كل ليلة. كانا يزوران الأبناء والأحفاد ثلاث مرات في العام، ويوظبان على الاشتراك في الأحداث الاجتماعية للبلدة، على الرغم من تخطي كليهما السبعين. كانت السيدة دي برهما قد استعدت صداقات قديمة والدكتور مينديكو لم يعد يعمل بشكل كامل، فكان يقوم بالزيارات المنزلية في وقت الظهيرة ويستقبل المرضى

في أيام غير متعاقبة و فقط لنصف يوم في العيادة الكائنة بالبيت الذي يعيشان فيه كما فعل من قبل أبوه وجده.

وكان كلاهما يشعر بالرضا أو السعادة من العلاقة الانسانية، ليس فقط بين الطبيب والمريض وإنما بين الطبيب والعائلة كلها، علاقة في بلدة صغيرة مثل روكاكولومبا سرعان ما تتحول إلى صداقة حميمة. لذا استمر الطبيب منديكو في علاج مجموعة من المرضى الأوفياء له مما أثار حسد الجيل الجديد من أطباء روكاكولومبا. وفي حالة انشغال الطبيب كانت شقيقته تقوم بتقديم النصيحة وفي بعض الأحيان العلاج للمرضى فضلا عن الأمهات الشابات اللاتي كن يفضلن استشارتها عند مرض الصغار بالانفلونزا أو نزلات البرد.

كان الطبيب ميندكو يحكى لأخته ما حدث في منزل منولارا، أثناء جلستهما في البلكون في دفء الخريف لتناول فاتح الشهية. «خلال خمسين عاما من ممارسة المهنة لم يحدث أن بقيت وحيداً مع مريضة تحتضر كما حدث في تلك المرة. لم يشعر أحد من عائلة الفاليبي حتى السيدة أدريانا بواجب البقاء بجوار تلك المسكينة للتخفيف عنها وهي تتعذب، ولو من باب مراعاة الأصول.

اسمعى هذه، وبعد إعلانى لوفاتها لم يذرف أى منهم دمعة ما عدا السيدة وسانتا أما الأبناء فلم يسألوا كيف ماتت هل تعذبت هل يمكن رؤيتها؟ أتفهمين؟ لم يسألوا عن أى شيء من هذا. كما لو كان كلباً قد قضى نحبه. وكان جاني أول من حدثنى، أو تدرين ماذا سألتى؟ سألت إن كانت منولارا قد تركت معى شيء، خطاب أو وصية؟

تلون وجه الطبيب، واكتست وجنتاه باللون البنفسجى، عندما يفيض الكيل يفيض، سألت كل هؤلاء المحترمين إن كانوا يرغبون في رؤية منولارا أو لا؟

توقف عن الكلام. شرب جرعة من الكأس ونظر حوله وتسمرت عيناه فوق أصص الفخار المملوءة بزهور جرانيوم تعتنى بها أخته بكل الحب، وكانت زهوراً في غاية الجمال ذات الألوان الأحمر والبنفسجى، زهور تزدهر يانعة بين الأوراق الممتلئة والمستديرة مثل المراوح اليدوية. ثم استطرد قائلاً: «فقط سانتا التى كان يبدو أنها كانت تنتظر قولى، دخلت فوراً إلى الحجرة التى ترقد بها منولارا، تبعها بقية أفراد العائلة واجمين. لم يبد عليهم أى تأثر، ظلوا واقفين أمام الجثمان مثل الحمقى كان يبدو عليهم التحرج أو الضيق» قطع الطبيب حديثه وقد خجل من حكمه القاسى وربما المتسرع وبالتأكيد الذى يخلو من أية شفقة نحوهم: يمكن التعبير عن الألم بطرق عديدة ربما كانوا متحفظين أو خجلي من وجوده.

كان طبيباً لعائلة الفاليبي لما يزيد عن أربعين عاماً ولكنه الآن فقد العلاقة الحميمة مع الأبناء: ليلا وجاني يعيشان بعيداً منذ فترة طويلة وكارميلا بعد زواجها اختارت طبيباً آخر.

أردف بصوت عال: «ربما أنا قاس عليهم ولكنى كنت أحب منولارا». وانتهى من شرب كأس السينار*»

وفي ظهيرة يوم الاثنين، لم يستقبل الطبيب ميندكو أى مرضى. كان يشعر بالإرهاق فقد كان يذهب إلى منولارا في الصباح والظهيرة. استيقظ، مستعيدا نشاطه بعد راحة القيلولة، وكان يستمع إلى الموسيقى من الاذاعة.

أمسك في فتور بكتاب كان قد بدأ في قراءته بشغف من فترة ولكنه لم يستطع التركيز، شعر أنه لم يعد يهمه. أغلق جفنيه، وفي دفء الفراش المبلل بالعرق وثب إلى ذاكرته اللقاء الأول مع منولارا، اللقاء الذى نسيه ودفنه في ذاكرته منذ نصف قرن.

كان لم يزل طبيياً شاباً، حديث التخرج وقد توفي والده مبكراً، وتحمل مسئولية الاستمرار في المهنة التى تتوارثها العائلة والانفاق على أمه وأخته. كانت مهنة الطب تعجبه وكان مفعماً بطاقة الشباب. أحبه ورحب به عليه القوم بالبلدة ومرضى أبيه الكثيرين. أدرك أن العائلات الثرية، على أية حال، كانت تطلبه لعلاج أمراض طفيفة أو لعلاج الخدم، شعر أنهم يدرّبونه بعلاج أولئك المساكين. لم يستاء لذلك الأمر، كان بالنسبة له نوعاً من التحدى. محاولة علاج الأمراض الناشئة عن سوء التغذية أو القذارة، والعناية بحساب جرعات العلاج التى يمكن أن يهديها إلى المرضى أو يستطيعون شراءها، وهكذا تعلم سريعاً وجيداً مهنة الطب وأيضاً الجراحة في حالة الطوارئ.

كانت عائلة ميناكابيللى، وهى إحدى العائلات الثرية والمحترمة في المقاطعة، قد أولته اهتمامها وعنايتها. وذات يوم طلبت منه السيدة كارملا ميناكابيللى أن يقوم بالكشف على الخادمة المفضلة لابنتها ليلاً. وقد تركت المسكينة الخدمة لتتزوج، ومن وقتها أصيبت بكل أنواع الأمراض.

اصطحبته البوابة مستاءة، إلى عائلة اينسرييلو وبعد أن أرشدته إلى الباب اختفت.

*السينار: مشروب كحولى من أوراق الغرشوف. (المترجم)

كان لويجي أينسريللو جالساً خارج الباب يسعل، ظن الطبيب أنه المريض، إلا أنهم أخبروه أن المريضة هي زوجته بل إن حالتها أسوأ منه وكانوا محقين. الابنة ادولاريتينا اصطبلته داخل المنزل. كانت عائلة أينسريللو تعيش في اصطبل لعائلة ميناكابيللي، يبعد قليلاً عن منزلهم المتاخم للاصطبل الذي يستخدمونه.

كان مكاناً معتماً، سيء الاضاءة والتهوية، رطباً تنتشر فيه رائحة الاصطبلات الكريهة حيث تربي الماعز والخيول لم يكن قدراً وأيضاً لم يكن نظيفاً.

شخص الطبيب ميندكو المرض سريعاً نوريتسيا مصابة بالالتهاب الرئوي، يجب أن تجري لها عملية فصد نظراً لعدم وجود علاج آخر للحمى، وبسرعة قبل حلول الظلام رجع إلى المنزل وعاد بالجهاز اللازم وأمام نظرة الزوج القلقة والابنة الفزع في الضوء المرتعش للشمعة، وضع الديدان المأصاة للدماء فوق كتفيها. ويبد مدربة كان ينزع الديدان الشبعة ويضعها في الأنابيب الزجاجية ليستبدلها بالأخرى الجائعة. عملية مقرزة ولكنها مفيدة، وفعالة.

انتابه بعض الشعور بالضيق، الإحساس بأنه مراقب، نظر بطرف عينه إلى المسكينين الواقفين بجانبه ولم تكن النظرات الخائفة القلقة سبب ذلك الاحساس الغريب المضطرب. أعاد وضع الديدان المأصاة في الأنابيب، أغلق الحقيبة وبعد أن طمأن المريضة. سمع صوتاً طفيفاً صادراً من الحائط في نهاية المنزل وفي ظل المشعشع، لمح عينيْن كبيرتين سوداوين تحدقان فيه. رفع لويجي أينسريللو الشمعة ورأى الطبيب وجه طفلة محاطاً بخصلات شعر كثيفة سوداء يبرز من حوض العلف في نهاية الاصطبل. تنظر كل منهما إلى الآخر وقالت له الطفلة بصوت واضح، رناناً وبنبرة وثيقة دون خجل: «حسناً فعلت»

ثم بوثة سريعة غاص الرأس الصغير في تجويف الحائط واختفت الطفلة. قال لويجي أينسريللو: «ماما الآن أفضل، فلتنامي». ثم التفت إلى الطبيب موضحاً: «إنها ابنتي الأخرى روزاليا، أرجو أن تسامحها لم تكن تقصد إساءة الأدب معك». كان هذا أول لقاء له مع منولارا وأول مرة تثير فيها دهشته.

ومنذ ذلك الحين كان الطبيب ميندكو يزور عائلة أينسريللو كثيراً وابنتهم الكبرى فضلا عن أمراض لويجي ونوريتسا، كان الثلاثة يعانون من مرض السل، وقد ظلت الصغيرة سليمة بأعجوبة وبفضل تدريبه، أصبحت ممرضة مدربة يقظة، تعلمت تحضير الأدوية العشبية التي كان يصفها بديلا عن الأدوية باهظة الثمن، علمها كيفية تحضيرها وطريقة تناولها.

خبط الطبيب الوسادة بيده وعاد إلى النوم مرة أخرى.

في تلك الظهيرة تلقت السيدة دي بريما العديد من المكالمات؛ فقد علمت صديقاتها بموت منولارا المفاجيء، وكان الفضول الشديد يدفعهن لمعرفة التفاصيل. وحيث إنها لم تستطع الاجابة على كل أسئلتهن، استغلت فرصة تناول العشاء مع أخيها لمعاودة الحديث عن هذا الموضوع.

-«هل كانت الوصية معك، هل أعطيتها لجاني؟»

-«كان معي خطاب له، أعطيته لجاني كما أردت.»

-«وهل قرأته؟»

-«كان يجب أن أقرأه»

-«لماذا؟»

-«كان ينقصه شيء.»

-«وماهو ذلك الشيء؟»

-«الأمر لا يعنيك يا فضولية.»

كان الطبيب وشقيقته يتسليان بمشاهدة كل منهما للآخر كما كانا يفعلان في طفولتهما.

-«هل كانت وصية؟»

-«لا يبدو لي ذلك.»

-ولكن أية ثروة قد تمتلكها مثل هذه الخادمة؟»

-«وماذا يعنيك من هذا الأمر؟، لقد أصبحت أسوأ من النساء النمامات في البلدة!»

-«إن كانت لديها ثروة فهي بالتأكيد من أموال عائلة الفالبيى، موهوبة أو جائز مسروقه. أجزم أن مرتبها لم يكن يسمح لها بشراء الشقة التي كانت تعيش فيها!..»

قال الطبيب بنبرة الأخ الأكبر «من الصعب الشرح، يجب أن تعرفي وتذكرى أن كل ثروة الفالبيى قد حصلوا عليها لأنها وهبت اليهم، أما كل ما كسبته منولارا فهو من كدها وقد كسبته بالعرق والدم.»

«وكيف عرفت بذلك؟

رد الطبيب أملاً في إنهاء الحديث:

تذكرى أن منولارا كانت مريضة عنيدة، إلا أنها كانت إنسانة أمينة. غدا سنذهب سويا لحضور جنازتها إن أردت.»

وهكذا نجح في إنهاء الحديث هذه المرة.

٥. ليلة وفاة منولارا يتحدثون عنها

في فناء بوابة قصر تشيفاليا

عمل دون باولينو انونسيستا لفترة بسيطة كسائق عربة خيول ثم سائق بخدمة عائلة الفالبيى لمدة ثلاثة أجيال، وكان بوسعه أن يبقى للجيل الرابع لو لم يتم الاستغناء عنه بعد تدهور الأحوال المالية للأسرة، بعد وفاة السيدة ليلا.

وقد رضى بالخروج من الخدمة بعد الحصول على مكافأة بسيطة واتفق أن يتركه يسكن في سكن السائق في حجرات البدروم بمنزل الفالبيى بجوار الجراج حيث ربي مع زوجته دونا ميما أولاده ذوى الأخلاق الحسنة الذين شقوا طريقهم في الحياة بنجاح. فكان على أية حال يعيش شيخوخة سعيدة لا يعكرها سوى ألم الروماتيزم في ساقيه وقلّة المال، فالحديث عن المعاش كان غير وارد، حيث إن أفراد عائلة الفالبيى المقترين على عمالهم، الأسخياء مع أنفسهم، لم يشاءوا كتقليد عائلي أن «يسجلوه بالتأمينات» على الرغم من أن القانون كان يعطيه هذا الحق.

كان في كل ظهيرة يصعد السلام التي تقوده إلى الميدان بصعوبة شديدة، ليصل إلى قصر تشيفاليا حيث كانت شقيقة زوجته دونا انزا وزوجها دون فيتو ميليتيللو يعملان بالبوابة. كان يقضى معهما ساعات طويلة في الثرثرة وملاحظة المارة وكان يساعدهما بالقيام على البوابة عند انشغالهما في أعمال أخرى.

وفي أغلب الأحيان في الظهيرة بعد الانتهاء من أعمال المنزل، كانت زوجته تلحق به حاملة معها الطعام الذي قامت بطهوه، هكذا يأكلون جميعا بالبيت الواسع المخصص للبواب، وفي الصيف كانوا يتناولون الطعام بالفناء المخصص للمخازن والذي لم تعد تستخدمه العائلة أصحاب المنزل وأصبح جزءاً من البوابة كالحديقة، وحظيرة الدجاج.

كانت بوابة قصر تشيفاليا تعج في كل وقت، بالعديد من الأشخاص أقارب وأصدقاء

كلهم تقريباً يعملون في خدمة العائلات الثرية في روكا كولومبا، وقد اعتادوا المرور بهم للتحية والراحة قبل استكمال الطريق والثرثرة معهم.

ومنذ سقوط حكم آل بريون، بقيت الطبقة الثرية الحاكمة متماسكة وقد تمتعت بالاستقرار والرخاء.

وبالتبعية كانت عائلات من يعملون في خدمتهم مثل الخدم، والحوذيين والطهاة والمربيات تنبأه بوضع مالي مستقر، فلم يكونوا ابداً من المعوزين، على الرغم من حياتهم في فقر.

وارتباطهم بأسيادهم القدامى لأجيال عديدة في مزيج من الاحترام والبغض والعاطفة المتبادلة، جعلهم يقتدون بهم في القيم الأخلاقية، والتصرفات، وأسلوب الحياة.

كانت عائلات الخدم تنظر نظرة تعالٍ إلى فقراء البلدة العاديين، الذين كانوا يعانون شظف العيش ولا يجدون ما يؤمن قوت يومهم، فضلاً عن أحساسهم، طبقاً لوضع سادتهم، بحماية أو تهديد المجتمع البرجوازي الزراعي: المافيا التي كانت في ذلك الوقت تنمو بسرعة وتتهياً للتغلغل في المقاطعات الشرقية.

كان والد دون فيتو ميليتلو يعمل بواباً لدى البارون تشفالينا، وكان أحد النبلاء الجدد في المجتمع الطبقي للبلدة.

وقد وضعه في أكثر البوابات في الميدان، في رواق من الخشب المنحوت وقد ألنسه حلة زرقاء غامقة أنيقه كعادة نبلاء المدينة.

وقد أصبحت البوابة ملتقى الزيارات والنميمة لخدم بيوت الأثرياء، وأيضاً مصدر هام للمعلومات التي تصل إلى أصحاب البيت عن طريق زوجة البواب التي كانت تنقل المعلومات بشكل أسرع وأدق من القنوات المعتادة التقليدية من أحاديث الصالونات والنوادي. لذا كان مرور هؤلاء الناس وجلسهم يحظى برضا صامت من البارون الذي لم يكن يضايقه أن تضاء البوابة بالأضواء العاكسة.

وفي ظهيرة يوم ٢٢ سبتمبر كان دون فيتو جالساً في الرواق الذي يراقب من خلاله المدخل، الميدان وعمل زوجته داخل البوابة.

وبينما كان يتحدث بود مع صهره، علق دون فيتو عند سماع خبر موت مونلارا قائلاً: «ماتت فريسة طمعها وجشعها، كانت امرأة فظة، غليظة الطباع. تبرات من طبقتها -على الرغم من أنها ليست من طبقتنا- فهي ولدت ابنة لعامل أجير- تشبعت بصفات الفاليبي وكانت تشعر بأنها واحدة منهم ولم تكن أبداً، وما كان ليتسنى لها ذلك.

لم يكن أبناء المحامي يطيقونها وماتت وحيدة مثل كلبه، بل لم يحضر حتى أبناء شقيقتها.»

كانت دونا انزا في الداخل، تستمع إلى الزوج أثناء تجهيزها الخضراوات لإعداد العشاء، فدافعت عن مونلارا: «ليس الأمر كذلك. ثم انه لا يجوز التحدث بسوء عن الأموات وخاصة أولئك الذين لم يدفنوا بعد. عملت لديهم بكل اخلاص. ثم إن السيدة الفاليبي كانت تحبها، لدرجة أنها ذهبت للعيش معها بعد موت المحامي، فما الذي كان يجبرها على ذلك لم تجعلها مونلارا تقوم بأى عمل وخدمتها حتى آخر رمق في حياتها.»

رد دون فيتو دون أن ينظر اليها وهو يهز رأسه وعيناه معلقتان دائماً بالبوابة: «ما دخل ذلك بما أقوله، يجوز انها كانت خادمة أمينة، ولكن لماذا كل هذه الغطرسة، والكبر معنا؟ لم تكن تتوقف أبداً عند الباب، كانت ترد التحية بامتعاض وكأنها إهانة وإذا قام المرء بتأدية خدمة لها وكان القليلون يفعلون ذلك، لم أسمعها أبداً ترد بكلمة شكر وكان لسانها كان ليسقط من فمها لو شكرت إنساناً.»

اتفق دون باولينو أونونسيستا مع شقيقة زوجته في حديثها. «كانت تعاملني دائماً باحترام، وأعرف أنها تدخلت لإعطائي مكافأة الخدمة إلا إنها لم تنطق بكلمة واحدة لمساعدتي في الحصول على معاش، فليرحمها الله، كان من الصعب بالنسبة لها ولنا كعاملين في خدمة بيت الفاليبي التأقلم مع وضع تلقى الأوامر منها في البيت وفي الأرض، كان وضعاً جديداً ومختلفاً.»

تدخلت في الحديث دوناً ميمياً التي كان لها رأى مختلف عن أختها قائلة: «وضع مختلف حقاً، أفعال مجانين!» «أنا أحترم التقاليد، يجب أن نترك الأشياء التي اعتدنا عليها كما هي، هذه البدع تسبب الخراب، فمن الفال السوء أن تذهب أنثى وحدها وتتجول بين الحقول وتأمّر وتتحمك فيمن مثلها، يعملون مثلها وكأنها صاحبة الأملاك وتقضى الليل وحدها، أفعال مجانين، لقد ضيعت منولارا سمعتها وفضحت نفسها، حية وميتة، كانت امرأة وقحة، لم تكن منولارا سوى امرأة وقحة.»

سألت دوناً أنزا: «ما لم أفهمه أبداً هو كيف انتهى بها الأمر لأدارة أملاك السادة؟»

رد دون فيتو: اخبرها أنت يا بأولينو فقد عملت لدى عائلة الفاليبي، وفي هذه المرة استدار ونظر إلى داخل البوابة مصوباً عينيه نحوه ليحثه على الحديث.

لم ينتظر دون بأولينو تكرار الطلب فبدأ يحكى بشغف وكأس النبيذ في يده وعيناه يقظتان: «بعد موت السيدة ليلا، والتي كانت أرملة تدير أملاكها بقبضة حديدية أفضل كثيراً من زوجها رحمة الله عليه، لم يحسن ولداها المحامى أورتسيو وأخوه فينشينسو ضابط الجيش الذى كان يعيش بالخارج التصرف وأخذاً بيدان الأموال يمينا ويسارا. كانت الظروف صعبة بعد الحرب، وذاتك كانا ينفقان ببذخ، يشتريان السيارات الجميلة وكل ما يحلو لهما. كان عليهما الادخار والتريث في الانفاق إلا أن الإسراف وتراكم الديون كانا يلهمانهما أحياء، فاضطرا لبيع أملاك كثيرة والاستغناء عن بعض خدم المنزل. وبعد أعوام قليلة، أقسم أننى لا أدري كيف آلت إدارة الأملاك والأطيان إلى منولارا. أتذكر كما لو كان قد حدث اليوم، أول مرة طلبت منى اصطحابها إلى أراضى العائلة وحدها. قالت: «دون بأولينو جهز العربة لنذهب إلى بولييري.» نزلت إلى الجراج، وفعلت اللازم. عندما وصلت وحدها، سألتها إن كان يجب أن أنتظر السادة طويلاً، فردت أنه لن يأتى أحد آخر معنا، وثبتت عيناه نحوى، تلك العينين السوداوين مثل قطعتي الجمر، كان لها عين امرأة ثم دلفت إلى السيارة بالمقعد جوار السائق، وطلبت منى الإسراع في القيادة ومن وقتها أدركنا جميعاً، كل خدم المنزل أن الأمور

تغيرت. وبالنسبة لها كان فرض احترامها على الفلاحين أمراً في غاية الصعوبة. كانت ظروف الزراعة مواتية في العام الأول، فقد سقطت الأمطار طوال الشتاء، ورغم ذلك كان المحصول قليلاً، لأن المزارعين كان يسرقون أكثر من اللازم»، وعند ذلك توقف في حديثه ونظر لزوجته بنظرة عتاب، ولكن في العام التالي استدعت منولارا وكيل الزراعة «تري روسيه» ودخلت معه مكتب الإدارة وأغلقت الباب. وقد سمعتها تتحدث معه بصوت عال لدرجة أنني شعرت بالخوف من كثرة صراخها. كانت أيام ثورة الفلاحين والمطالبة بالاصلاحات، وكان الأجراء يطالبون بحقوقهم وسقط ضحايا جراء ذلك، كان تمثيلها لأصحاب الأرض يشكل خطراً كبيراً على حياتها فكان من الممكن أن تقتل على الرغم من أنها أنثى..»

توقف دون باولينو قليلاً عن الكلام ليلتقط أنفاسه ثم استطرد: ولم تتوقف عند ذلك. في ذلك العام، ظلت طوال وقت الحصاد في الارض، لم تتخلف عن حصاد أو بذر بينما عائلة الفاليبي كانت تقضى الوقت في المصيف والزيارات. كانت تلك المرأة تقضى الليل نائمة فوق المحصول، سواء كان قمحاً أو لوزاً، تتدثر بغطاء فوقها وتنام هناك، بكامل ملابسها دون وسادة لرأسها. ومنذ ذلك الحين أصبحت تجنى المحصول كاملاً دون سرقة وهكذا بدأت الاطيان تدر دخلاً، وبدأت تتسلم الايراد المستحق لعائلة الفاليبي وتدفع الاجراء والفلاحين كما أتفقت معهم ودون تأخير..»

تدخلت دونا ميما في الحديث: «من حسن حظها أنها لم تقتل، طريقة تصرفاتها مع الجميع.. مع الوقت أصبح لها أعداء كثيرون ويقال إنها كانت تقرض أيضاً الأموال..»

علق دون فيتو على حديثهم دون أن يبعد عينيه عن الطريق قائلاً: «كانت امرأة شجاعة بالتأكيد... امرأة غير متزوجة وتقضى ليلتها خارج المنزل وحيدة فوق أرض رطبة في الخلاء...» الخالة كارملينا لى ييرا، الخالة العانس لدونا انزا ودونا ميما عجوز خرف تعيش في منزل ميلتللو. لم يفهم بنتا الأخت وزوجيهما إن كانت تتابع الحديث أم لا، بيد أنها تدخلت في الحديث متعجبة: «ومن كان ليتزوج بفتاة تقضى الليل بالخارج..»

رد دون فيتو:

«ياخالة كارميلي لم يكن ليتزوج بها أحد على أية حال غريبة الأطوار كما كانت، لم يكن ليقترّب منها أي رجل.»

علقت دونا ميمما «لم تكن مونلارا تصلح للزواج.»

أضافت دونا انيزا بابتسامة عليم: «لم يكن يعجبها الرجال» كانت مقتنعة بأنها تعرف تفاصيل عن حياة مونلارا أكثر من الآخرين بفضل الأحاديث الخبيثة للبارونة تشيشليا وبناتها التي كانت تلتقطها عندما كانت تصعد إلى الطابق الذي يقطنه السادة لتساعد سيدات البيت وتنقل لهن الأخبار التي كانت تصل إلى البوابة.

تركهم دون باولينو يتحدثون بينما كان يرتشف ما تبقى من نبيذ الغداء، ثم علق ضاحكاً: «لا أدري إن كان حقيقياً أم لا أن الذكور لا تعجبها ولكن عندما كانت تعمل بالحقول كانت خبيرة والناس لا تتغير.»

أثناء ذلك وصلت ابنة العمّة الشابة لدونا ميمما، ليا كريسكولو والتي تعمل خادمة بيت بيكوريللا، ودون لويجي سبشال والذي كان يعمل سائقاً بمنزل عائلة فاتا والآن يعمل سائقاً لعربات الأجرة. لم يكن من المناسب الحديث هكذا عن راحلة لم تُوار بعد الثرى أمام الغرباء، لذا انتقل حديثهم من الحديث عن الميتة إلى الحديث عن الموت: في روكا كولومبا، كم من الشباب قتلهم ذلك المرض الجديد. أدرك دون لويجي أن عقد الحديث المسلى قد انفرط. فحاول أن يحث دون باولينو، الذي كان في ذلك اليوم منطلق اللسان وكأس النبيذ لا يزال في يده على الإفصاح عن بعض الأسرار: احكِ لنا يا بولينو، ومع المحامي الفاليبي كيف كانت القصة؟

لم يعجب دون باولينو ذلك السؤال المباشر الفج فقبل كل شيء كان يعمل في خدمة عائلة الفاليبي فأجاب بحرص: «بالتأكيد كانت فتاة جميلة عندما بدأت العمل لديهم، وكان المحامي أوراتسيو في شبابه مولعاً بالنساء. هذا ما أعرفه وما يمكن أن أقوله. ولكن لم أر بعيني أي شيء في منزل العائلة لذا لا يمكن أن أروى أكثر من هذا.

يقال إنها قبل أن تعمل في خدمة العائلة، كان هناك شاب يعجبها بالقرية إلا أن الموضوع لم ينتهه على خير، وبالتالي تركت منولارا العمل في الارض وأخذتها السيدة ليلا في خدمتها.

كانت جميلة، قوام ممشوق، ووجه جميل ولكن مع مرور الأعوام فقدت هذا الجمال.

غمغم دون فيتو: «المراة والحقد بداخلها وما كانت تسببه للناس من أذى قبّحها. هذا ما حدث.»

أرادت دونا ميمما تغيير الموضوع الذي كان يتصاعد باستمرار مدركة وجود ليلا التي كانت لا تزال آنسة لذا ينبغي ألا تستمع إلى بعض الأحاديث «تدخلت في الحديث قائلة:

«هل عرفتم أن أبناء أختها لن يحضروا الجنازة، بل سيقمها أسيادها.

دون باولينو غير مصدق: «من أخبرك بذلك؟»

تدخلت دونا أنزا في الحديث بصوت عال قبل أن تفتح الأخت فمها: باولينو، اعرف هذا الأمر، اليوم بالطابق العلوي، كانت السيدة جوفانا تحكى أمامى للبارونة بأن السيدة ليلا الفالبي التي تعيش خارج صقلية قد أصيبت هى الأخرى بالدهشة، فقد تركت منولارا خطاباً بخط يدها، تطلب منهم عدم ابلاغ أبناء شقيقتها بوفاتها، وليس فقط عدم حضور الجنازة! هكذا سيتحمل عائلة الفالبي كل مصاريف الجنازة.

تدنى الحديث إلى النماث القديمة وما يحكى عن بخل عائلة الفالبي، وسخروا من فكرة أنهم الآن مضطرون لتحمل نفقات الجنازة، افترضوا سوء العلاقات بين منولارا وأبناء شقيقتها المتوفاة تحدثوا من جديد عن شخصيتها الصعبة.

تطرق الحديث إلى هوية عشيق منولارا والايحاء بأنه المحامى الفالبي والعلاقة بينه وبين منولارا.

كان دون باولينو يتابع فى صمت أحاديثهم التي كانت تتشعب وتتشابك، ففى أحيان كانوا يتحدثون جميعا فى نفس الوقت محركين أيديهم من شدة الانفعال.

أخيراً تحدث دون باولينو بصوت رصين هذه المرة قائلاً: «أنا سأذهب إلى الجنازة، أولاً لأنني كنت أعرفها جيداً وعملت معها لسنوات ثم إنه من الصواب أن يعي عائلة الفاليبي أنهم كما يحترمون خادماتهم ويتكفلون بإقامة جنازتها، فنحن أيضاً نقدر الاحترام، وننتظر مثله عندما يحين الموعد.»

صمت الجميع. اكتست ملامحهم بتعبير جاد وانتبهت أعينهم واتجهت نحو دون باولينو، وهم يستمعون إليه بكل الاحترام الذي يكونه له. ردت دوناً أنزاً متأثرة: «معك حق يا باولينو بالتأكيد عائلة الفاليبي تحب منولارا، ولهذا قرروا إقامة الجنازة وأنا أيضاً سأذهب غداً.»

نظر دون فيتو إلى زوجته نظرة عدم موافقة ولكن لم يكن تواتيه الشجاعة ليمنعها وقال:

مشغول بالعمل هنا، وحتى لو لم يكن لي عمل، ما كنت لأحضر جنازتها.» عند ذلك توقف الحديث: عند الخلاف بين الزوجين يجب ترك الأمور تمر دون تعليق، وإن كانوا يعلمون جميعاً أن صاحبة القرار في المنزل هي دوناً أنزاً عند هذه النقطة انفض الجمع، وقد حانت ساعة إغلاق البوابة.

وفي المساء اثناء تبادل التحية بينما كان دون باولينو يطبع قبلة على وجنة أخت زوجته سألته دوناً أنزاً فجأة: «من كان عشيق منولارا عندما كانت فتاة صغيرة؟» نظر دون باولينو مباشرة إلى عينيها وقال: «حتى أنت، لا أستطيع أن أبوح باسمه لك.. ولكن أعرف من هو، غمز بعينه عاقداً حاجبيه تقريباً إلى منبت شعر رأسه. رافعاً جفونه المجددة مبرزاً حدقتي عيناه، فهمت دوناً أنزاً وصمتت»

٦- الغداء في ظهيرة اليوم بيت فاتا

كانت السيدة فاتا تقوم بالتطيرز وقد بدا عليها القلق، كانت تعلم أن منولارا تحتضر وكانت تنتظر بقلق أخباراً من ابنة خالتها أدريانا الفالبي، ومع ذلك فإن تحفظها الشديد كان يمنعها من الاتصال، فقد كانت تخشى إزعاجها. أخبرتها لوتشيا بأن الغداء جاهز، وقد ذهبت إلى حجرة مكتب الرئيس لتناديه. اعتادت عائلة فاتا تناول طعام الغداء في صمت، عند عدم وجود ضيوف. بيترو فاتا، رئيس اتحاد الزراعيين للمقاطعة، كان رجلاً قليل الحديث. كانت زوجته مارجريتا تحترم حبه للصمت وتعلمت أن تتحدث مع نفسها عندما كانت تشعر بالحاجة إلى الصحبة. ولكن ذلك اليوم تحدث الزوجان أثناء تناول الغداء جلس الزوج عند رأس المائدة والزوجة إلى يساره كعادتهما ثم قال بيترو: «تلقيت اتصالاً تليفونياً من ميمو ميندكو لقد ماتت منولارا هذا الصباح وقد طلبت منه أن يخبرني بموتها، يا له من طلب غريب!».

أرادت مارجريتا أن تعتب على زوجها عدم إخباره لها بالأمر فوراً، على الأقل كان سيوفر عليها ساعات من القلق، لكنها تصرفت بحكمة ولم تعلق على عدم إحساسه المعهود بها وبمشاعرها، واقتصرت على سؤاله: «هل أخبرك بشيء عن أدريانا والأولاد؟» لم نتحدث عنهم. ستقام الجنازة غداً في الساعة الثالثة ظهراً، وأعتقد أنه أخبرني بشيء آخر.

علقت الزوجة أعتقد أن أبناء شقيقتها سيحضرون بسرعة لحضور الجنازة. رد بيترو: أعتقد أنا أيضاً ذلك ثم غاص في أفكاره، رافعاً إلى فمه ملء شوكة من البطاطس المقلية.

كان من عادتهما، تناول القهوة بالتراس عندما يسمح الجو بذلك في ذلك اليوم، كانت لوتشيا تخدمهم باهتمام واضح، كانت يقظة، منتبهة لالتقاط أية معلومات

عن موت منولارا، فكانت تتظاهر بالعمل، بإعادة تنظيم مقاعد الطاولات الحديدية المنتشرة في التراس الواسع، كانت تحرك منافض السجائر، تنظف المقاعد من أوراق الغليسين التي بدأت في التساقط من سقيفة التراس، لم تكن تدرى أى عمل تخترعه لتظل في حضرة السيدين وتستمع لحديثهما.

كانت السيدة فاتا تتحدث عن عائلة الفاليبي: «أنا قلقة على أديانا بعد أن ذهبت للعيش ببيت منو وقد تعلقت بها جداً وستشعر الآن بالوحدة والألم. لا أدرى إن كانت تفكر في العودة إلى قصر الفاليبي ولكن يجب إجراء بعض الإصلاحات وتركيب التدفئة المركزية، وهناك أيضا مشكلة الخدم.. ستحتاج إلى أشخاص موثوق بهم فهي تعيش وحدها ومنو كانت تعمل بطاقة ثلاث خادמות. فضلا عن مهاراته الأخرى تصور أنها لازالت تدير أموال دوطة أديانا.

موت منولارا سيشكل خسارة كبيرة لها الآن يجب أن تعتمد على أبنائها أشعر بالقلق عليها.»

استمع الزوج إليها بانتباه وسألها: «أتعلمين إن كان الأولاد معها؟»

نعم وبمحض المصادفة، تصادف أن كلهم هنا في روكاكولمبو

رد الزوج: «أريد أن أساعدهم، فهم غير قادرين على إدارة شئون حياتهم، أنا مدين ل أوارتسيو.

استعلمي جيدا عن أحوالهم وأسئلي عن أخبارهم بالبلدة.

إذا سمعت إنهم يحتاجون إلى شيء أو يقومون بتصرفات غير مسئولة أخبريني وسأحاول توجيههم.»

ردت الزوجة:

«جسنا، كما تشاء». كانت تشعر بالعرفان لاهتمام زوجها بعائلة ابنة عمها على

الرغم من الأعباء التي تثقل كاهله.

كانت امرأة خجولاً ومتحفظة في التردد على صالونات البلدة، ربة بيت بطبيعتها، ومنذ أن أنجبت لها زوجة الابن التي تعيش بالطابق الأول حفيدتين جميلتين وهي تجد دائماً العذر في عدم مغادرة البيت.

شعرت أن هذه اللحظة المناسبة لتطلب من الزوج طلباً تخشى ألا توافق عليه،
أضافت مترددة:

«هل تريد أن أذهب إلى الجنازة غدا؟»

كان رئيس الزراعيين ينظر بعيداً: استدار فوق مقعد وحدجها صامتاً. نفث نفخة من السيارة، ثم عاد وتنفسها بتأمل بطيء. عاود النظر إلى ما وراء سور البلكونة الحجرى الذى يكشف المدينة كلها ثم عاد ونظر مباشرة في عينيها وقرر:

«كانت خادمة ممتازة، خدمتهم بإخلاص ولعشرات السنين وكانت تحرص على أن تبقى من الخدم وتتصرف على هذا الأساس.»

الأمر أن أدريانا بمنطقها غير المفهوم قررت أن تنتقل لتعيش في بيت خادماتها لا يغير من هذه العلاقة.

لقد سمحت لك أن تزورها في بيتها، لأننى لم أجد سبباً في قطع العلاقة الحميمة بينك وبين ابنة خالتك ولكنى أعلم أن الأقارب والأصدقاء والآخرين في روكا كولمبو حرصوا أشد الحرص ألا تطأ أقدامهم بيت مونلارا. وأنا لا أقر تصرفهم»

استمر في تأمل زوجته وأثناء حديثه معها، ثوبها الأخضر الفاتح، يديها الصغيرتان الرقيقتان، هيئة، وأناقة سيدة راقية. «ولكنك أنت، زوجتى ذات مكانة اجتماعية هامة في هذه البلدة وحيث إننى في العادة لا أذهب إلى جنازة خادمة قريب أو صديق أو زميل، فأنت كذلك لن تذهبي إلى الجنازة. يمكنك بالطبع زيارة أدريانا قبل وأيضاً بعد الجنازة.»

كان يشعر في داخله أن مارجريتا توافقه الرأي، يجب احترام المظاهر وخاصة في حالة عائلة الفاليبي، والتي لم تكن أبداً محبوبة في البلدة وأعطت الفرصة للحديث كثيراً عن علاقتهم الوطيدة بمنولارا ومع ذلك ظن أنه بالغ في تشدده. وشعر بالرغبة في البقاء وحيداً، أبعد زوجته عن المكان، مشيراً إليها بمحادثة أدريانا بالتليفون وعند ذلك اقترب من سور البلكون الحجري.

كان قصر فاتا يقع في أكثر مناطق روكا كولمبا ارتفاعاً، بجوار دير العذراء المتألمة، وبالقرب المسموح به «من القصر المهيب لأمرأ بريولي، المهجور، وقد بقيت منه الأسوار الخارجية الفخمة وواجهة المبنى ذات الطراز الباروكي والبلكونات المستديرة المنتفخة، كانت النوافذ مغلقة دائماً وكذلك الباب الحديدي الكبير، كان عمق الفيلا يختبئ عن عيون أهل البلدة وليس عن ساكني قصر فاتا، حيث كانت الأرضية الليانعة بالنباتات والشجيرات البرية تبدو من الشرفة، وكانت الرياح قد حطمت نوافذ الأفنية الداخلية، وأحواض الزهور مهملة بشكل يكشف عن التدهور السريع للقصر الرائع وتحوله إلى أطلال. وكان المنظر الطبيعي من التراس يشكل في كل فصول السنة متعة كبرى لبيترفاتا، فكان يستند إلى سور البلكونة الذي يمتد خارج الأسوار الخارجية، يشعر أنه معلق في الهواء أو فوق منبع نهر قراميد أسطح متلاطم الأمواج يتفجر تحت قدميه ويمتد فوق النتوء الجنوبي للجبل. كانت الأسطح من القرמיד اسطوانية الشكل يختلف كل منها اختلافاً طفيفاً في اللون، والحجم، والميل، أشبه بموزاييك أحادي اللون مبعثر دون نظام في توازن رائع من الألوان والأحجام.

كانت تبرز هنا وهناك من بين الأسطح، أبراج أجراس الكنائس المرتفعة الرشيقة والتي شيدت مثل أبنية سائر البلدة من الحجر الرمادي الوردى، والذي كان يبدو مرآة تعكس السماء عند المغيب من شدة تشبعه بأطياف اللون الأحمر للشمس المحتضرة.

يرتفع بين الأسطح برج جرس الكنيسة الأم بلون حجر المغرة الغامق، يقطعه خطوط من البلاط الأخضر والأبيض. ويجوار الكنيسة الأم، يتراءى قصر البريد، كما كان يسمى بتحدلق المبنى المستدير ذي الطابقين والذي تم بناؤه أثناء الحقبة

الفاشية. وبمرور الزمن انصهر هذا المبنى أيضاً داخل روكاكولومبا وأصبح جزءاً منها كما لو كان قائماً منذ القدم. وقد تدهور السقف المطلى باللون الوردى اللامع مبكراً وهذا التدهور سمح له بالتناغم تماماً مع الأسقف الأخرى المائلة التي تحتضنه.

ثم كان النهر الذي يقطعه الجسر الحجري ذو الأقواس الثلاثة، والذي كان يربط مدينة روكاكولمبا القديمة بالجديدة، شكل معمارى مشوه دون هوية ظهر في الثلاثين عاماً الماضية. وقد اتسعت روكاكولمبا كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية أيضاً بفضل الطريق السريع الجديد الذي كان يربط المدينة بالمراكز الأخرى للمقاطعة بعد نفق طويل. شيدت العشرات من المباني بالأسمنت المطلية بألوان زاهية، وفي فوضى الازدهار المعماري في السنوات الأخيرة. وروكا كولومبا ظهرت كمدينة كبيرة زراعية حيث استثمر أصحاب الأراضي الزراعية في الآلات الحديثة، والتكنولوجيا، وحظوا بسمعة بلدة زراعية حديثة وذلك كرد فعل على أزمة نظام عقد الإيجار الزراعي. وحيثما يقل الربح من الأراضي الزراعية أو يتلاشى، كان الاستثمار العقاري يعوض النقص. وهذا الاستثمار، وإن ضمن الرخاء والتقدم لمدينة روكاكولومبا إلا أنه شوه الجمال الفريد والعريق للبلدة والذي ترسخ في القرن السابع عشر على يد أمراء برولى وعماء قليل سيدمره نهائياً، فسيختفى نسيجه الاجتماعى خلال أعوام قليلة وسيتغير كل شيء.

كان بيتروفاتا يعتبر التغيرات التي يفرضها التقدم من الأمور الإيجابية، بيد أنه كان يجد صعوبة في التكيف معها. وكان يعاني كثيراً من عدم قدرته على التكيف مع المستحدثات ويشعر أنها دليل على اقتراب الأجل.

نظر فيما وراء المنطقة المسكونة. كانت الجبال تتسع في منحني واسع على شكل نصف دائرة، تضم في منتصفها بشكل عشوائى بعض الهضاب متوسطة الارتفاع والتي شيدت فوقها مدينة روكاكولمبا العليا، وفي الأسفل كانت تظهر تلال المناطق الزراعية المهمشة التي كانت تزداد رقعتها على مرمى البصر. ومن خشبة المسرح، (هكذا كان يحب أن يتخيل التراس)

كان الرئيس يتأمل منظر التلال التي كانت تتسع للهضاب الطبيعية المنخفضة ذات قمم زرعها الفلاحون، وراء ظهره، نحو الشمال، تموج الجبال متتالية الواحد تلو الآخر، مهيبة تغطيها الغابات ذات البقع الخضراء، تقطعها قمم أخرى مدبية تنحدر إلى البحر. نظر في الأسفل. كانت الحقول المحروثة تتلألأ تحت أشعة الشمس فوق منحنيات الهضاب التي تقع أمام روكاكولمبو، على الضفة الأخرى من النهر. والنهر المتوغل بالوادي والذي كان يحاذي الهضاب، يتلوى لامعاً هادئاً، فيختفى وراء هضبة ليظهر وراء أخرى.. كان منظرًا طبيعياً يحبه ويحفظ كل تفاصيله، وكان يطيب نفسه دائماً بالنظر إليه. ود أن يمتهن الرسم إلا أن قدره كان رعاية أملاك العائلة الزراعية. دخل إلى المنزل واتجه إلى حجرة المكتب، لم يكن يشعر برغبة في العمل. جلس بجوار المدفأة وعاد يفكر في منولارا. ماتت مبكراً، كانت تستحق التمتع بشيخوخة هادئة بعد سنوات من العمل الشاق لدى أوراتسيو الفالبيبي وعائلته، إنسانه يصعب تحديد شخصيتها، مخلصه مطيعة لرغبات سيدها وفي نفس الوقت قوية، متسلطة في ممارسة قدرتها النادرة في إدارة أملاك العائلة. كان أوراتسيو يطلق عليها « إلهة الحماية لعائليتي » بدون شك استطاعت إنقاذ العائلة من التردى المالي، أمسكت بزمام الإدارة، رغم أنها تسببت في خلافات دائمة بين الأخوين.

كان بيترو قد قضى فترة طفولته ومراهقته مع الأخوين الفالبيبي في البلدة ثم في المدرسة وكان فكرة الخلاف بينهما تحزنه. أمسك بكتاب ووجد بعض الارتياح في القراءة.

٧- بروفة ثوب حفيدة السيدة فاتا الصغيرة.

أعطت أنجلينا سالفياتو اللمسات الأخيرة لثوب حفل ريتا، وقد أعدته للبروفة الثانية والأخيرة. فردت الثوب فوق المنضدة ساوت كسرات التنورة، ربطت الكورسيه المطرزة نفخت الكمين على شكل كرتين صغيرتين، رجعت خطوة للخلف تتأمل في إعجاب وحدها الشكل النهائي للثوب، وشعرت بالرضا عن عملها. دخلت خادمات البيت لوتشيا وماريانا مبتسمتين مرحتين في غرفة العمل وقد تبعتهما تينا، ابنة شقيقة سانتا التي حضرت إلى بيت فاتا لاستعارة المكينة الكهربائية لتنظيف بيت الفاليبي.

كانت الفتيات تتأملن بإعجاب الثوب أمام عيني أنجلينا الراضيتين ويطلقان بين حين وآخر بعض التعليقات عن وفاة منولارا الذي أعلنته لوتشيا في المطبخ ساعة الغداء، كانت ماريانا تعلق قائلة: «لم يزل جسد الميتة بالبيت، ويفكرون في تنظيف بيت الفاليبي؟» كيف خطر ذلك بالهم، لو كنت مكانهم لشعرت بالحزن الشديد وما كنت لأفكر في شيء آخر!

انظري إلى التطريز في مقدمة الفستان، أنجلينا لديك يدان ساحرتان.

وقالت تيتينا:

السيدة ليلا تبدو وكأنها قائد عسكري، تصدر الأوامر هنا وهناك، كل شيء يجب أن ينتهي عمله فوراً، بالنسبة لها، أصبحت أجنبية، تتحدث بلغة لبقة كما في السينما، من يدرى كم تكلف هذا الستان لعمل الخزام، يبدو مثل ثوب أميرة! كانت تجس القماش الناعم، وتتحسس شريط الخزام فكان بالنسبة لها ترفاً، بعيد المنزل. «خالتى سانتا يجب أن تقوم بكل أعمال البيت والنظافة بمنزل الفاليبي فقط أنا وأمى نساعدنها، وأولئك ينتظرن منا خدمة كاملة، حتى فنجان القهوة لا يستطعن عمله، يحسبن أنهن خلقتن لإعطاء الأوامر. الزمن تغير وبعد الجنازة يجب أن تحدثهم خالتى بوضوح في ذلك الشأن»

ردت ماريانا:

«لو كنت مكان خالتك، لما بقيت بخدمتهم، فهي تعرفهم جيداً، وقد كانت تعمل لديهم قبل موت المحامي الفاليبي.» «بخلاء متكبرين.»

كانت ماريانا سليطة اللسان لذا خصتها السيدة فاتا بالعمل في المطبخ وليس للخدمة بحجرة الطعام أو الصالون والتي كانت تقوم بها لوتشيا الهادئة الرصينة.

كانت لوتشيا تستمع إليهما وقد ركزت عينيها على الثوب، كانت تتمنى أن تتعلم حياكة الثياب مثل أنجيلينا، وأضافت الرئيس كان يقول أن منولارا كانت تدير الأموال الخاصة بدوطة السيدة أدريانا كيف أصبحت بهذه المهارة في إدارة الأملاك؟ انظري كيف خاطت الحاشية، غرز صغيرة وكأنها تطريز إبرة، بالتأكيد أنت يا انجلينا خياطة ماهرة ويمكنك كسب الكثير من الأموال إذا ذهبت للعمل خارج البلدة.»

سألته ماريانا ببراءة مصطنعة:

«أخبريني يا أنجيلينا هل كانت منولارا قريبة لأمك؟ واضح أن الشطارة تسرى في عروقكم.» وكانت تنظر إليها، وقد تضرجت وجنتاها الشاحبتان بحمرة الحرج.

أجابت انجيلينا:

«لأدري، لم أكن أعرفها، كانت قريبة لأمي ولكنها لم تكونا على علاقة بها وأنا لست على هذه الدرجة من المهارة في الحياكة أفعل فقط كل ما أستطيع.»

أنقذتها لوتشيا وغيّرت الموضوع: تيتينا، أخبرينا هل ظهر زوج السيدة كارميلا بمنزل منولارا؟»

-«وكيف لم يذهب، قالت لي خالتي أنه كان ينتظر موت منولارا ليدخل إلى البيت، ثم اجتمعوا كلهم في حجرة السيدة أدريانا، وأغلقوا الباب وكانت أصواتهم مسموعة من تلك الحجرة، باختصار كانوا يتشاجرون حول الميراث والمسكن والراحلة المسكينة لا تزال بالمنزل.»

كانت تيتنا منجماً للأخبار، وواصلت الحكى: «لم يشترها لها ولا حتى زهرة وأبناء المحامي، وكل منهم أفضل من الآخر لم يرتدوا ملابس الحداد للجنائز». السيدة ليلا تقول أنه ليس لديها ثياب سوداء، كارميلا لن ترتدى سواداً احتراماً لزوجها الذى لا يريد لها أن ترتدى ملابس الحداد فقط، البروفيسور جاني ارتدى كرافتة سوداء ولكنه لم يضع شارة الحداد السوداء حول ذراعه، يقول إنها لم تعد تستخدم فهو يعيش في كاتنيا ويعرف هذه الأمور!»

- «والسيدة الفاليبي؟» -

«المسكينة، تبكى كثيراً، كانت مثل الأختين، كانت منولارا تعاملها مثل ابنتها، أضافت ماريانا: مع أنها كانت تصغرها في العمر.»

قالت لوتشيا وهى تدير عينيها في إشارة لعائلة فاتا بتعبير وجه من يدري ببواطن الأمور: «لا يعجب السادة المودة بين هاتين السيدتين، فالإنسان منا يمكنه أن يفنى نفسه في العمل من أجل أسياده وهؤلاء الأثرياء يأخذون وينفقون ثم يتركوك عارياً من كل شيء هذا ما يقوله دائماً عمى باولينو.»

تيتنا لم تفهم: «ماذا تعني؟»

لم ننتظر لوتشيا أن تكرر السؤال: «لقد قال الرئيس لزوجته إنها ينبغي ألا تحضر الجنائز لأن منولارا كانت خادمة ثم قال لها أن منولارا هى من أنقذت أموال وثروة الفاليبي.. ماذا يعنى هذا؟ أنا سأخذ إذن في الظهرية، وسأذهب إلى الجنائز. كلما زاد اجتهادك في العمل، قل تقديرهم لك وفور انتهائى من نفقات تجهيز زواجي، سأزوج ولن أعمل مرة أخرى.» أردفت دون التقاط أنفاسها وسألت انجيلينا: إن أمكننى أن أتعلم الحياكة مثلك، يمكنى أن أخطط أثواباً لبناتي، انظرى العرى كما هى جميلة متساوية وصغيرة، أنجلى هل يمكن أن تعليمينى أن أخطط مثلك «ربما شيئاً فشيئاً؟»

ردت أنجيلينا «سرى، الآن يجب أن أنظم الحجرة» كانت متحفظة هادئة قليلة الكلام بطبعها، تحترم، وتقدر أصحاب المنزل. وكانت تخجل من صلة القرابة بمنولارا ابنة الخالة المنبوذة من أهلها.

عاودت تينا الحديث: «بالتأكيد منولارا كانت تمتلك الكثير من النقود، وكيف حصلت عليها، فذلك أمر، يعلمه الله وحده، ربما الله لا يريد أن يعلم.. كانت تدفع لخالتى من جيبها وتعطى نقوداً لأبناء المحامي، كانت ذكية وشاطرة ولم تستطع التمتع بأموالها.»

كانت للوتشيا أفكار واضحة في هذا الأمر: «أن أقول أن النقود خُلقت لنصرفها، وعندما يموت الانسان لن يأخذ معه الأموال إلى المقبرة.»

أردفت تيتنا: «يبدو أن عائلة الفاليبي تنتظر أيضاً ميراثاً من منولارا، عندما يصل أبناء شقيقة منولارا، لحمها ودمها، أريد أن أرى المشادات التى ستنشأ بينهم.. فهم من دمها ويحق لهم الإرث.» تصمت فجأة، وقد دخلت السيدة فاتا مع زوجة الابن والصغيرة ريتا، وانسل ثلاثتهم نحو المطبخ.»

بدأت انجلينا المهمة الجادة في عمل البروفة النهائية وتلقت إشارات ومدح من السيدات الثلاث، ثم بقيت وحيدة أخيراً، وواصلت ترتيب أشيائها وتنظيف الحجرة لتتركها منظمة لليوم التالي.

كانت تمارس مهنة الخياطة بالمنزل، وتعمل فقط لدى عدد قليل من عائلات روكا كولمبا، كانت كلها عائلات ثرية ومحترمة. وكانت مدرستها بالمدرسة الابتدائية قد علمتها الحياكة وشجعته عليها وجعلت تطرز مناديل «جهاز ابنتها بدلاً من تعليمها القراءة والكتابة جيداً، وشعرت أنجلينا وعائلتها بالامتنان لتلك المعلمة، فمئذ سن العشر سنوات لم تكف عن حياكة الملابس للآخرين»

كانت أنجلينا تكسب جيداً واتخذت دور الابنة غير المتزوجة والتي تعول وترعى والديها العجوزين. كانت راضية عن حياتها المنظمة، والهادئة. كانت تقضى أسابيع وأحياناً شهوراً كاملة بمنزل عائلة أو أخرى.

وفي تلك البيوت، كانوا يسمحون لها بسماع الراديو أثناء الساعات الطويلة التى تقضيها وحدها بالعمل مما جعلها تتعرف إلى الموسيقى وحسن من لغتها الإيطالية.

كانت تتبادل أطراف الحديث مع الخادמות أثناء ساعة الغداء وتستمتع بطعام الأثرياء الشهى.

وفي الغالب كانوا يحتفظون لها بالحلوى والبسكويت الذى كانت تحبه وقد اتخذ جسدها الشكل الممتلئ للمرأة التى تقضى معظم أوقاتها جالسة، كخطوة أولى نحو حياة العنوسة الواضحة التى لا رجعة فيها.

بعد بروفة ثوب الحفيدة، ذهبت السيدة فاتا إلى المطبخ، بحجة تحضير سلة طعام الحداد التى كانت تريد إرسالها إلى ابنة خالتها عن طريق تيتينا. وعلى الرغم من أنها تخيلت أن أبناء أدريانا بالطبع لن ينسوا إصدار أوامر لسانتا لتجهيز العشاء، فإن مارجيتا فاتا كانت تريد اتباع تقاليد الحداد الصحيحة وجهزت حلوى ومشهيات للمسكينة أدريانا للتسرية، وكتعبير صامت عن مشاركتها ألم فقد منولارا. استغرقت وقتاً طويلاً في إعداد السلة وهى تثرثر مع تيتينا على أمل أن تحصل منها على بعض الأخبار تنفيذاً لأوامر الزوج. كانت تيتينا سعيدة بالتحدث معها وقد روت للسيدة فاتا الحكاية الرسمية بإيجاز دون إسهاب في تفاصيل كثيرة ودون أى انتقاد لعائلة الفاليبي، تماماً كما يحدث عند الحديث مع السادة، تركت قصر فاتا حاملة بتباه، المكنتسة الكهربائية وسلة كبيرة من حلوى وبسكويت الحداد.

وصلت نوروتسا سالفياتو متعبة من ارتقاء السلم الذى كانت تصعده مرتين في اليوم لاصطحاب انجلينا ذهاباً وعودة. كانت لوتشيا تقدم لها دائماً بعض الأطعمة الشهية. وفي ذلك اليوم قدمت لها فنجاناً من لبن ماعز مع الكعك الطازج وبينما كانت ترتشف فنجان اللبن المغلى المحلى بالسكر، والذى كانت مولعة به، روت لها لوتشيا ما حدث « لقد ماتت منولارا هذا الصباح وكل عائلة الفاليبي في بيتها، السيدة الفاليبي منهرة، كانت منولار قديسة في خدمتها للسيدة. » كادت نوروتسا تختنق غيظاً عند سماع كلمات الإطراء والمدح عن قريبتها المكروهة، لم تستطع بلع ملء الملعقة التى ملأتها بالبسكويت المبلل باللبن الحلو والتى أصبحت كرة حلوى لذيدة كانت تزرددها في غمضة عين.

لوتشيا، وقد ظنت أن معدة نوروتسا قد تقلصت من الحزن، عند سماع خبر موت ابنة خالتها، استمرت في ذكر محاسن الراحلة.

وفي تلك الأثناء عادت السيدة فاتا إلى المطبخ. بدا لها من المناسب التوقف للحديث أيضاً مع نورتسا، قدمت لها العزاء ثم سألتها: «أخبريني يا نورتسا: كيف ذهبت منو للعمل بمنزل الفالبيبي؟»

أعتقد أن أمها كانت تعمل بمنزل مينا كابيللي»

-«ابنة خالتي نوروتسا أنسريللو كانت مريضة جداً والسيدة ليللا الفالبيبي رحمة الله عليها، أحببت ابنتها الصغيرة وألحقتها في خدمة المحامي الفالبيبي واستمرت في خدمتهم.»

أصرت السيدة على السؤال:

«يقولون لي إن أمها كانت خادمة ممتازة في بيت مينا كابيللي، كنت أنت أيضاً تعملين لديهم في تلك الفترة، كيف كانت أم منولار أجابت نوروتسا: «كانت ابنة خالتي شاطرة في العمل ولكنها لم تستمر طويلاً في خدمتهم حيث تزوجت.»

كانت نوروتسا تعلم أنها لا يمكنها الهروب من الاجابة على أسئلة السيدة ولكنها كانت تعرف كيف تجيب بأدب، وبطريقة توضح بها للسيدة أنها لن تعرف منها شيئاً آخر.»

٨- نوروتسا سالفياتو تحكى لابنتها

أثناء سيرها مع الأم، سألتها انجيلينا عن ابنة خالتها، أجابت نوروتسا بحدّة: «لا يمكن التحدث عن هذه الأشياء خارج البيت، عندما نصل سأحكي لك من كانت أم منولارا ولماذا دخلت تلك المرأة بيت الفاليبي». واصلت المرأتان الهبوط في صمت نحو روكا كولبا الدنيا، تتأبط كل منهما ذراع الأخرى، الأم صغيرة الجسد نحيلة والابنة ممتلئة، فجأة المظهر.

وفي ذلك المساء، بينما كانتا تجهزان الحساء للعشاء، وفت نوروتسا بوعدها وحكت لأنجيلينا قصة أم منولارا:

«كنا بنتي خالة وكان ترتبنا الثاني في البنات، وهكذا حملنا اسم جدتنا رحمها الله نوروتسا. ألقنا بخدمة عائلة مينا كيبلي معاً كي نكسب ما يكفي لتجهيزنا للزواج، ولكن ابنة خالتي نوروتسا كان عليها أن تكسب أيضاً ما يكفي لتجهيز أختها ذات القدم الحلفاء التي لم يكن ليتزوجها أحد بهذا العيب. أسندوا إلينا أعمال المطبخ والنظافة، باختصار أسوأ الأعمال لأننا كنا صغيرتين ولكنها كانت جذابة وكانت حسنة المظهر ونجحت في نيل إعجاب الأنسة ليللا وأصبحت خادمتها المفضلة وتركتني وحدي بالمطبخ، أقوم بكل الأعمال الشاقة».

كانت نوروتسا تنقى العدس من الحصى الصغيرة، وعند هذه النقطة في الحديث، أقامت ظهرها أمام انجيلينا، وقد وضعت يديها إلى جانبيها، وأردفت: «كانت تشعر أنها مهمة، ابنة خالتي هذه، لأن الأنسة كانت تفضلها وكانت تحكي لنا في المطبخ الكثير من الأشياء الجميلة عنها وتظهر لنا الهدايا التي أعطتها لها لتشعل غيرتنا: فساتين مستعملة، ولكنها جديدة، وشرايط، وأوشحة، وملابس داخلية من القطن الرقيق مثل قماش «الفوال»، وأحذية، وغير ذلك من أشياء كثيرة أفقدتها عقلها.» كانت انجيلينا تتخيل الهدايا الرائعة للأنسة مينا كيبلي وهي التي لم تتلق أية هدية من السيدات اللاتي تخطط لهن الملابس، إلا أنها لم تنطق بكلمة.

عادت نوروتسا لتتقنية العدس واستطردت: «كانت الأنسة ليلا طيبة بحق، حاولت أيضا أن تعلمها القراءة والكتابة ولكن إن كانت قد تعلمت فعلا أم لا، لا أحد يدري، كانت تتفاخر أمام الجميع وتظاهر بقراءة صفحات من الجرائد القديمة التي كانت تصل إلى المطبخ لنلف بها الفاكهة التي تحفظ في الشتاء في المخزن، أو لتجفيف زيت القلي، أو لحماية المائدة، أو عند تفريغ الزيت في الزجاجات ولكن بالتأكيد لم تكن ليقرأها أمثالنا.»

سألت انجلينا التي كانت تقرأ كل عناوين الجرائد التي تقع في يديها:

«لماذا، وأى عيب في قراءة الجرائد؟»

ردت نوروتسا:

«الطاهية التي كانت تعرف القراءة جيدا وكان لديها كتاب مليء بوصفات مونسو، كانت تقول إنهم يكتبون بالجرائد هراءات، لا يجوز أن تعرفها الأنسات، ولكن ابنة خالتي كانت متعطشة لمعرفة تلك الأشياء،» وكانت نوروتسا تعتبر ابنتها، وهي أصغر أبنائها لا زالت طفلة بريئة حتى بعد أن بلغت الأربعين.

«وهكذا بفضل هدايا الأنسة ليلا، استطاعت أن تعد جهاز عرسها قبلنا جميعا وبدلاً من أن تعطيه لأنا، كما كان ينبغي لها، أرادت الزواج بـ لويجي أينسريللو، عامل المناجم، كانت تشاغله بعينيها، فعمال المناجم كانوا يكسبون جيداً. لم يكن دورها في الزواج قد حان، ولكنها لم ترضخ لهذا الاعتبار، وطلبت تدخل الأنسة ليلا في الأمر. وكانت الأنسة ليلا قد خطبت للمحامي تيشو الفالبيبي وكانت تعد لحفل زواج كبير.

أقنعت الأنسة ليلا أمها السيدة كارميلا باستدعاء والد نوروتسا وياقناعه بالموافقة على زواج ابنته بعد أن وعدته بإلحاق أنا العرجاء بخدمتها، غضبت خالتي بيد أنه تحتم عليها إطاعة السادة، ولم تسامح خالتي وزوجها نورتسا أبداً على فعلتها. ولم تكن علاقتهما طيبة بأنسريللو.

سألها أنجيلينا وقد سحرتها قصة حب ابنة خالة أمها:

«وأنت ظللت صديقة لابنة خالتك بعد زواجها؟»

أجابت الأم: «كانت تبحث عني عند الحاجة ولكنها لم تكن أبداً صديقة، هناك أشياء لا يمكن غفرانها، فالمسكينة أختها «أنا» كانت تكذب وتشقى للعمل في بيت كبير مثل بيت مينا كابللي وتعمل خادمة بالمطبخ إلى أن تزوجت.» ثم أردفت: «سأحكى لك ماذا فعلت عندما مات زوجها، كي تعي أن الرب يعاقب من يقصر في أداء واجبه»

أصيبت بمصائب وأمراض كثيرة إلا أن الكبر كان ملازمًا لها بعد موت زوجها، عرض أخوه جوفاني أنسريللو، عليها أن يأخذها لتقيم في بيته مع ابنتها، كما يقتضى العرف، بالتأكيد لم يكن يسعده ذلك، وكذلك زوجته لم تكن راضية؛ فقد كان يتحتم عليهما إطعام ثلاثة أفواه فضلاً عن أنها وأدولوراتينا كانتا مريضتين. ظلت في بيت أخى الزوج أياماً قليلة وبدلاً من أن تعترف بفضله، رفضت العيش معهم بل إنها تحدثت عنه بسوء، عن أخى زوجها الكبير وأهانته أمام الجميع. ضربها جوفاني أنسريللو، وكان محقاً، وحسنًا فعل. فلم تحترم كبير العائلة ومنذ ذلك الوقت قاطعتها عائلة الزوج، كانت متعالية، ولم تحصل على أية مساعدة منهم كما أنها لم تطلب أبداً أية مساعدة من أنسريللو.

ولماذا لم تشأ الحياة مع أخى الزوج؟»

كانت أنجيلينا تنصت إلى أمها، مأخوذة بما تحكيه، وقد بدت حكاية ابنة خالة الأم أشبه بمسلسل تليفزيوني.

«لأن منخارها كان في السماء. بقيت وحيدة مع ابنتها وانتهى بها الأمر للعمل كغسالة في منزل الفاليبي، ولم تفقد أبداً غطرستها، كانت تقول إن ابنتها ستتزوجان زيجات جيدة وأن أبناءهما سيصبحون مواطنين وأصحاب مهن مهمة مثل السادة. انظري كيف انتهى بها الحال.»

قال نوروتسا برضا: «وعندما ضاق بها الحال، سألتني المساعدة. أرسلت في طلبي» كان المرض قد اشتد عليها ولم تعد تقوى على السير، هرعت إليها لعلاقة القرابة التي تربطني بها، أرادت أن تخبرني باقتراب أجلها، وطلبت مني أن أخذ ابنتيها في بيتي قائلة أنهما سترعاني في شيخوختي ولن تجعلاني احتاج إلى أي شيء من خبز أو غموس. وقد كان لديّ بالفعل ابنتان جميلتان وماهرتان. وكيف هذا، كنت أحدث نفسي، وأنا لدى أربعة أبناء منهم اثنان من الذكور، وهذه تقول أنني ينبغي أن أرعى أولاد الآخرين لأعتمد عليهم في شيخوختي كيف جرؤت على احتقار أبنائي، والتأكيد على أن ابنتيها ستكونان مصدر ثرائي؟

ولكن لأجل الرب والعذراء ولأن أمي وأمها شقيقتان لم أرد عليها كما ينبغي وأجبت أنني سأحدث مع زوجي على الرغم من أنه ليس هناك أمل كبير في موافقته. وفي اليوم التالي عدت لأخبرها أننا لن نستطيع ضم ابنتيها إلينا، وحملت معي لها خبزاً وفاكهة وقطعة من الجبن. قالت لي إنها ليست بحاجة لمساعدتنا وأن السيدة الفاليبى وضعت أدلوراتينا في مدرسة داخلية وألحقت الابنة الصغرى بالخدمة لديها. وبهذا اطمأنت أن البنيتين ستحظيان بحياة كريمة.»

-«وماذا حدث بعد ذلك!»-

-«حدث ما حدث! تزوجت أدلوراتينا، وتوفيت شابة، والأخرى ظلت في خدمة عائلة الفاليبى وأصبحت أسوأ من أمها، تحتقر الناس، متسلطة، والآن ماتت أيضاً، الرب يعاقب الأتراك، والمسيحيين لأعمالهم السيئة. أنت تعلمين جيداً ماذا فعلت بوالدك، الآن اذهبي وألقى بالمياه في حوض شرب الدجاج ثم ضعي الإناء فوق النار.»

٩- نوروتسا سالفياتو وزوجها يلعبان منولارا

بعد العشاء، ظلت نوروتسا وفاني سالفياتو وحيدتين، بينما كانت أنجيلينا تقوم بغسل أدوات الطعام من خلف الستارة المعلقة بسلك من الحديد. كان منزلهم متواضعًا للغاية، وقد جمّلته أنجيلينا بهذه الستارة من القماش المزركش بالورود والذي كان يفصل المطبخ عن المكان الذي اعتادت العائلة العيش، والنوم فيه.

قالت نوروتسا لزوجها:

« لم أرغب في إخبارك قبل العشاء كي لا يعلق الحساء بحلقك، اليوم ماتت منولارا.»

بصق فاني سالفياتو على الأرض وقال: «يبدو لي الهواء الذي أتنفسه أنظف، وأنقى فلم تعد تلوّثه بنفسها.»

ثم أضاف فاني: « لقد فقدت الصحة والرغبة في العمل، وقد كانت شريفة معي هذه العاهرة، والأدهى أنها كانت ابنة خالتك.» لم تكن نوروتسا تتقبل النقد بسهولة وخاصة من زوجها فردت: « وأى ذنب جنيت، ألم أكن أول من قال للأولاد إنها بالنسبة لنا ميتة، وألا يلقي أحد من عائلة سالفياتو عليها السلام، إن قابلوها بالطريق، بل يجب أن يديروا وجوههم في الناحية الأخرى كي لا يروها؟»

ثم إننا لم نكن نتقابل كثيرًا، في روكا كولمبا الدنيا، كانت لا تأتي، فقد كانت تظن أنها من السادة، بيد أنها عاشت خادمة وماتت خادمة. أما أنا فأسير في الطريق مرفوعة الرأس أمام الجميع، فعائلتي محترمة وأمينة، ولو كانت أمها لا تزال حية لحزنت لهذه الابنة الوقحة، الخائنة لأهلها.»

قال فاتي: «كانت وقحة حقاً، أفعالها المشينة في بيت الفاليبي لا تعينني ولا أريد أن أعرف عنها شيئاً.»

أضافت نوروتسا: «كانت لوتشيا أندليكاتو تتحدث عنها اليوم ببيت الفاليبي وتدعوها بالقديسة، لم أشأ الرد، فكنت أشعر بأمعائى تتقلص ولم أكن لأستطيع التحكم في كلامي.» ومجرد وصولنا إلى البيت، حكيت لانجيلينا عن تصرفات أم منولارا الخبيثة لتتعلم ابنتنا القديسة الحقيقية كيف تعرف الناس.»

عند ذكر انجيلينا رق قلب فاتي وأراد استدعاء الابنة.

جاءت إليهما انجيلينا، مطيعة كالعادة لأبيها، فأشار إليها بالجلوس بجانبه.

«أنجيلينا، تذكرى جيداً ما فعلته بنا قريبة أمك، لأنه بعد رحيلي، ينبغي أن تحكى لكل من ولد وسيولد من عائلة سالفياتو وهم بدورهم يجب أن يرووه كلمة كلمة لكل من يتحدث بخير عن تلك الوقحة في البلدة.»

كان عملي كبايع جائل للفاكهة والخضراوات يعجبني، كنت أرتقى كل درجات السلام كي أصل إلى روكا كولمبا العليا، وفي بعض الأحيان كنت أدفع بنفسى الحمار، المحمل بأقفاص الفاكهة وكانت الناس تشتري منى وتحترمني.

وذات يوم توقفت أسفل قصر الفاليبي، أنادى على بضاعتي.

«ذات يوم كنت أبيع مشمشاً حلواً ناضجاً، وأطلت تلك المرأة من الشرفة، اتفقنا على السعر، أنزلت السلة من الشرفة، بالثمن بالتمام، أخذت النقود وملأت السلة بالمشمش. سحبت السلة، وتبادلنا التحية. بقيت أسفل القصر، أبيع المشمش. كان مشمشاً طيباً، شهياً، وكانت الناس تشتري منه الكثير. عادت تلك العاهرة إلى البلكون، وبدأت في الصياح واتهامي بإعطائها مشمشاً شديد النضج، وأن المحامي الفاليبي لا يريده ونادتنى بالغشاش، المحتمل كانت تصرخ مثل المجنونة، وألقت بحبات المشمش في السلة وأنزلتها لأخذها. وأرادت استرداد النقود التى دفعتها، ولم تهدأ إلا بعد أن أخرجت النقود وعددتها، فلم تكن تثق بي.

كانت الناس تطل من الشرفات، ويتوقف العابرون ليستمعوا إلى حديثها معى بسبب ارتفاع صوتها، والألفاظ النابية التي كانت تخرج من فمها مثل ثعابين تتقاذف من بين أسنانها البارزة، أصبحت قبيحة مثل ثمرة برقوق مدودة، لم يسبق أن عاملنى أحد أبداً بهذه الطريقة، وأما أن تعاملنى امرأة وأيضاً ابنة خالة زوجتى، فكانت الإهانة مضاعفة..

استطرد فاتى بصوت منخفض ونظرة حزينة: «لست أدرى كيف استطعت البيع فى ذلك اليوم ولا فى الأيام التى تلتها، كان المشمش طيباً لم يكن فيه حبات تالفة، وإذا كان فيه بعض الحبات، ما ذنبى أنا؟ لقد اشتريته ودفعت ثمنه على أنه مشمش طيب، وكان ينبغى لى أن أبيعته كله، وكان من الأفضل بيعه للأغنياء الذين يمكنهم رمى نصفه دون أن ينتابهم الجوع. كان سنى قد تعدى الخمسين وكنت مريضاً وبحاجة إلى العمل لأعول عائلتى، وإلا لما كنت ذهبت أبداً لروكا كولبا العليا. عندما كنت أمر أسفل بيت الفاليبي، كنت أشعر بساقى ترتجفان، حتى الحمار لم يكن يريد صعود السلم الذى يؤدى إلى منزلهم.»

نظر إلى إنجلينا ومسح بحنان على ذقتها، ثم قال بصوت عال: «ابنتى الرقيقة، الحلوة، كوفى ذكية وحكيمة وتذكرى ألا ينسى أحد من أبنائى أو أحفادى أن تلك السيئة قريبة أمك، كانت خادمة وعاهرة فى بيت المحامى الفاليبي.»

حدقت أنجلينا وأمها أعينهما فى وجوم ولم تدرياً بماذا تجيبان.

فاتى، وقد أدهشته شجاعته وشعر بالرضا عن الأثر الذى أحدثته كلماته على وجه ابنته وزوجته، استند إلى ذراعيه وحاول أن يقوم بمفرده رافضاً العصا الذى قدمتها له نوروتسا. نجح فى الوقوف على قدميه، واتجه ناحية باب المنزل، سائراً بثبات فوق ساقيه المعوجتين كما لو كان قد استعاد أخيراً مرونة الحركة مع استعادة كرامته التى سلبتها منه منولارا منذ عشرين عاماً.

ظل واقفاً عند عتبة الباب، رفع نظره ببطء، كانت روكا كولمبا العليا تظهر مهيبية. وأضواء المنازل القابعة فوق الجبل تعطي الإيحاء بمغارة عيد ميلاد مضيئة، تجثو تحت أقدامها بيوت روكا كولومبا الدنيا الفقيرة المسحوقة.

التفت فاني إلى زوجته التي تبعتته وقال:

«نوروتسا» هناك بأعلى بيت العاهرة ابنة خالتك اعلمى أني سالفياتو فاني، ألعتها أيضاً ميتة».

الثلاثاء ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣

١٠ المحاسب بوماريتو لم يتناول قهوة الصباح

في ذلك الصباح من يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣ كان المحاسب بوماريتو يصعد إلى الميدان، متشوقاً إلى تذوق القهوة الساخنة التي تنتظره في المنزل.

كانت الساعة حوالى الثامنة صباحاً وكان قد أنهى أحد واجبات اليوم: الزيارة التقليدية للحلاق بعد فترة الاجازة، كان هواء الصباح يدغدغ وجنتيه الحليقتين النضرتين، وكان المحاسب محققاً بالشعور بالرضا عن نفسه.

وقد وجدته الحلاق في صحة جيدة وأثنى عليه. وقد سلاه بالحديث كثيراً ذلك الصباح، فروى له دون بياحيو الأخبار الجديدة للبلدة، تلك التي يمكن معرفتها فقط من الحلاق: عن الأجنبية الجميلة التي تعمل في بيت الدعارة بجوار المقابر والنهمة دائماً (مفهوم طبعاً لأى شيء) ويلزم سفينة بحرية لإرضائها، عن مغامرات توتو ريزي الذي قد يفقد حياته ذات ليلة، إذا واصل زيارته لغرفة نوم زوجة الصيدلاني في الليل، سائراً فوق الأسطح بينما الزوج يكدح في الصيدلية في نوبة الليل لكسب العيش.

أبطأ السير عند التقاطع مع شارع بارا، فكر، سعيداً بمزاجه الرائق أن اسم الشارع مناسب، حيث تعلق إعلانات الوفاة فوق الأسوار الناعمة لقصر ارتوا. لاحظ إعلانين جديدين. حدّث نفسه «لترى من مات» المدرسة ماتيلدا كاكوباردو عن واحد وثمانين عاماً كما يذكر الإعلان الأول قرأ العبارات المعتادة في تلك المناسبة وسجل موعد الجنائز ليخبر بها زوجته كي تذهب لأداء واجب العزاء.

الإعلان الثاني كان يخص ماريا روزاليا أينسريللو توفيت عن خمسة وخمسين عاماً، علق «مجهولة لا يعرفها أحد» المسكينة كانت في نفس عمري، وواصل طريقه.

دق جرس الباب، لم يفتحوا له فوراً كما كان يتوقع دق الجرس مرة أخرى، دون رد. أخرج المفتاح من جيبه وقد أزعجه قليلاً تأخر الزوجة والخادمة في فتح الباب.

عدم احترام من جانب نساء البيت له. لم يرهما عند باب البيت، دخل إلى المطبخ، متلهفاً لشرب القهوة الساخنة وكان لم يزل رائق المزاج. وجدهما هناك، تطلان من النافذة.

كانت الخادمة أنطونيا مستلقية فوق مقدمة النافذة وكأنها على وشك السقوط، وقدمايها تلمسان بالكاد الأرضية وثوبها المرفوع عند مؤخرتها يظهر ساقيها الممتلئين. حدث نفسه، سعيداً بمحافظته على الشعور بالحبور الذي لازمه منذ الصباح:

بالتأكيد مؤخرة الأجنبية بيت الدعارة، كانت ستقدم منظراً آخر.

قال بصوت عال: «لقد عدت».

لم تتحرك الخادمة، فقد كانت منهمكة في سماع أحاديث النسوة بالدور الأسفل استدارت الزوجة وقالت: «اه منيكو، هل عدت، أسمعت يموت منولارا؟»

وفي هذه المرة، غضب المحاسب بالفعل، فلم تفكر الزوجة في تقديم القهوة وأجاب: «حبيبتي ميموتسا ومن كان ينبغى أن يخبرني بذلك الحلاق مثلاً؟»

أجابت الزوجة بحماس:

«أم تقرأ الإعلان في ركن شارع بارا؟ لقد أصقته عائلة الفاليبي فوق جميع الأسوار.» وأخيراً قدمت له القهوة.

فهم المحاسب بوماريتو أخيراً سبب انفعال نساء منزله، عندما تذوق القهوة الساخنة، وذهب عند الضيق، بل تمتع بالمظهر الجميل لزوجته والتي عادت هي الأخرى لتوها من الكوافير وتزينت استعداداً للذهاب إلى المدرسة.

«هذه هي المرة الأولى التي يقوم بها سادة (أرباب العمل) كما يقال الآن، بتعليق إعلان وفاة للخادمة. لمنولارا ابني شقيقه. وقد شاركت كل عائلة الفاليبي بنفسها في إعلان الوفاة»

يجب أن ترى ماذا كتبوا، اذهب، واقرأ النعى من أجل خاطرى، عندما عدت كانت السيدة كورتانو تكرره على مسامعى تقول إنهم بدأوا النعى بمقدمة من الثناء والإطراء عليها، ونعلم جميعاً كيف كانت غليظة الطباع، أنا كنت زميلة دراسة لكارميلا وأعلم جيداً هذا.» كانت ميمي بوماريتو تحكى وتخبط بيدها اليمنى فوق صدرها مكررة: أعلم أنا، وكيف لا أعلم أنا، لتأكيد قولها. وقد فتح الروب كاشفاً عن ثدى ممتلئ عاد تفكير الزوج في الأجنبية، وهذه المرة راهن أن تلك العاهرة ليس لديها ما لزوجته الشابة المثيرة من صدر بض. وهكذا لم يستطع المحاسب بوماريتو مقاومة اللحاح العذب لحبيبتة ميمي، ورجع بسرعة إلى شارع بارا حيث تجمع الناهب لقراءة إعلان وفاة انسريللو، كي يكرر لزوجته ما كتب بالحرف:

بالأمس توفيت فجأة

ماريا روزاليا انسريللو

عن عمر خمسة وخمسين عاماً

من منزل عائلة الفاليبي

يعلن الخبر الحزين السيدة أدريانا نجرتشينا أرملة المحامى أوراتسيو الفاليبي، الابن جاني مع زوجته أنا كيوفارو، الابنة ليللا وزوجها الدكتور جان ماريا بولا والابنة كارميلا وزوجها.

التحقت بخدمة العائلة في سن الثالثة عشر، وعاشت في منزلهم منذ ذلك الحين وخدمت بكل الحب والإخلاص العائلة التي تبكيها. ستشيع الجنازة اليوم في الساعة الثالثة بكنيسة العذراء المتألمة وستدفن الراحلة بمقبرة العائلة في روكاكولمبا.

كانت جارتهم في الشقة المقابلة والجاريات الأخريات بالبيت في انتظاره لم يتركن له الوقت ليعيد إعلان الوفاة كاملاً، كن يقاطعنه بتعليقاتهن في وقت واحد. يشعرون بالألم والحزن حقيقة، كارميلا كانت تكرهها وليلا لم تعد تقضى الاجازات في روكاكولمبا بسببها! فهذا البيت لم يجرب مشاعر الحب ولو لهرة.»

«الخدمات يدفن في مقابر العائلة، أصبحنا جميعا إخوة»

«لو كان المحامى الفاليبي حيا، لم يكن يسمح بهذا الأمر.»

وأبناء شقيقتها التي كانت تتباهى بهم كثيرا، لماذا لا يشاركون في جنازة خالتهم؟

استطاع المحاسب بصعوبة التخلص من أولئك النسوة وذهب إلى عمله تاركهن للثرثرة والنميمة. وفي الطريق لاحظ أن العديد من أبناء بلده يتوقفون لقراءة إعلانات الوفاة ويتهامسون أمامها.

كان خبر وفاة منولارا قد تم لصقه في جميع الأماكن التي تسمح فيها البلدية بلصق الإعلانات. بالتأكيد منولارا جلبت الأموال الكثيرة لعائلة الفاليبي شديدي البخل كي تستحق كل هذه النفقات.

قرر أنه على الرغم من أن إعلان موت خادمة بدعة من العصر الحديث أو العهد الديمقراطي، إلا أنه ما كان لينفق ليرة واحدة لإعلان وفاة خادمة، بل إنه سيتذكر أن يتحدث الليلة مع زوجته عن هذا الأمر قبل أن تبدأ في إعطاء وعود لخدمتهم انطونيا.

ثم عاد إلى القصر اللذيذة عن الأجنبية، تلك التي تستحق أن ينفق من أجلها الأموال بدلاً من المحرومة منولارا التي لم تكن جميلة أبدا ولم تعرف المتعة الحسية. وبمجرد وصوله إلى المكتب، تذكر أنه لم يخبر زوجته بوفاة السيدة كاكوباردو، هذه حقا امرأة مهمة، فهي حماة مدير المدرسة التي تعمل بها ميمي بعقد مؤقت وتبحث عن فرصة للتثبيت. ولعن منولارا.

١١- ماريكيا بيتاريزى تلعن منولارا بعد أن علمت بوفاتها أثناء زيارتها لمحل الخردوات الحديثة

في الصباح الباكر، ذهبت ماريكيا بيتريزي إلى الميدان لشراء خيوط للتطريز من محل الخردوات الحديثة. وجدت المحل ممتلئاً بالزبائن، وكانت الأنتستان أروتا صاحبتا المحل لا تقدمان الخدمة على طاولة الزبائن بل يثرثران بالايطالية الفصحى مع بعض السيدات، وقد تركتا للبائعة مهمة خدمة الزبونات. ماريكيا وقفت في مكان منفرد، واعية بقدرها الاجتماعي، بينما كانت السيدات الأخريات تتدافعن إلى طاولة المحل ماطلات في الشراء بحجة انتقاء البضائع وهن في حقيقة الأمر يسترقن السمع لحديث صاحبات المحل المسلمي. أيضا كانت ماريكيا تحاول أن تفهم موضوع تلك المناقشة وبصعوبة أدركت في النهاية أنه موت منولارا. أرهفت السمع إلا أن البائعة سألتها في هذه اللحظة عما تريد. وفي طريق العودة، قررت المرور ببوابة دون فيتو ميلتللو لتعرف تفاصيل ذلك الموت المفاجيء.

لم يتح لها الوقت لطرح الأسئلة لأنها بمجرد دخولها من البوابة بادرتها دوناً انزا واحضرت لها مقعداً وهي تغمز بعينها الضاحكتين قائلة:

ماريكيا كنت تنقصين الجمع، احكى لنا كيف كانت منولارا وقد عملتما سوياً بمنزل الفاليبي، بالتأكيد تعرفين الكثير!

لم يكن يعجب ماريكيا تذكر تلك الفترة القصيرة الحزينة، وافقت أن تحكى في مقابل الحصول على المعلومات ولكنها أرادت أن تؤجل ذلك لبعض الوقت.

قالت وهي تمسح بيدها فوق جبهتها وتستند إلى ظهر المقعد الخشبي مدعية الارهاق والشعور بالتعب الشديد: أولاً اعطوني كوباً من المياه، أنا منهكة». أثناء ذلك كانت تستمع لحديثهم.

دون باولينو انونسياتا وقد أسند قدميه إلى العصا الواصلة بين أرجل المقعد الذى قبع فيه، وقد باعد ما بين ركبتيه ووضعه فوق مقبض العصا الذى كان يتأرجح بين ساقيه، أخذ يحكى بحماس:

«كنت موجودًا في اليوم الأول الذى بدأت فيه منولارا العمل ببيت السيدة ليلا. كان واضحاً أنها معتادة على حياة الريف، كانت برية بحق. جاءت إلى المطبخ في ساعة الغداء ولم ترد الجلوس إلى المائدة مع بقية الخدم بل تسمرت أمام النافذة تشاهد فناء المنزل مثل عصفور صغير في القفص.»

علق دون فيتو: «نعم عصفور، أصبحت شاعراً، تلك كانت ذئبة، استمع لما أقوله.»

وضح دون باولينو: بل كانت تبدو عصفوراً صغيراً، خائفاً، حيواناً صغيراً برياً حبيساً، لازلت أراها ماثلة أمام عيني، لم تشأ الجلوس معنا لتناول طعام الغداء، مع أنها كانت تتضور جوعاً فقد كانت نحيلة مثل العصا. بينا فاسيللو أعدت لها طبقاً من المكرونة وحملته إليها عند النافذة، كات تلتهم الطعام بيدها وبالشوكة من شدة الجوع، وقد بقعت ثيابها بالصلصة لم تكن تعرف قواعد الطعام مثل بقية الناس.

ثم أعطتها بينا قطعة اسكالوب، وأمسكت تلك بها بيديها وقطعتها بأسنانها تقريباً دون مضغ، لم توجه إلينا كلمة شكر، ولا ابتسامة وظللنا واجمين ننظر إليها. ومنذ ذلك الحين استمرت في الأكل بمفردها بعيداً عنا جميعاً وإن اضطرت للجلوس إلى المائدة بالمطبخ، كانت تزدرد الطعام دون حديث وتنهض من فورها للعمل. كانت غليظة الطباع وبقيت كذلك، كانت إن وجه إليها أحد سؤالاً ينتفض جسدها كله وتجيّب وكأنها تعوى وتطلق نظرات مثل كلب مستعد للدفاع عن نفسه، كانت عيناها سوداوين مثل قطعتي الجمر تلعف من يخاطبها بكلمة.»

أضاف دون فيتو: استمرت على هذا المنوال. «كانت إنسانة سيئة الطباع، أذكر ذات يوم توجهت لشراء بعض الأشياء للبارونة وقابلتها عند السلم كانت عائدة

إلى منزل الفالبي محملة بأشياء ابتاعتها من السوق، كانت تذهب إلى السوق في الصباح الباكر لاختيار أفضل البضائع. رأيتها تتعثر في سيرها وسقطت أكياس من يدها ووقعت فوق الأرض فاكهة جميلة وخضراوات، وأواني من الخزف، تحطمت فوق السلام.

جريت لمساعدتها، جعلت تصرخ، كما لو كنت أريد مضايقتها: «اذهب بعيداً لا أحتاج مساعدة من أحد» جمعت ما وقع منها في ملح البصر.. الفاكهة الخزف المكسور، الورق، ووضعت كل هذه الأشياء في الأكياس وواصلت صعودها دون أن تحييني بصباح الخير. ويعلم الله وحده ماذا ظن بي المارة القليلون في ذلك الوقت عندما فطنوا إلينا وتوقفوا لمشاهدتنا.

لم أشعر أبداً بمثل هذه الإهانة، منذ ذلك الحين اعتدت إلقاء التحية عليها، لأن التحية لا ينبغي حجبها، بيد أنني لم أخاطبها بكلمة واحدة بعد ذلك..»

سألت ماريكيا: «متى الجنازة؟» وكانت تود الانصراف بعد أن حصلت على هذه المعلومات.

قالت لها دون انزا: «ألم تنظري النعى في الطريق؟ لقد علقته عائلة الفالبي في كل مكان تماما مثلما فعلوا مع المحامي الراحل.» ثم أردفت ماريكيا: «لا تنصرفي، أخبرينا كيف كانت منولارا مع المحامي، الفالبي أنت بالتأكيد تعرفين.»

اضطرت ماريكيا للحديث: كيف كان هو لا أعلم، لكنني أعرف كيف كانت هي. التحقت بخدمة عائلة الفالبي بعدها بخمس سنوات، كانت قد أصبحت الخادمة الخاصة للسيدة ليلا. ولكن عند عودة أوراسيو ابن السيدة من كاتينيا لقضاء الاجازة، كانت تلك تبدل كل ما في وسعها لخدمته، كانت تغازله، العاهرة، ولكنه لم يكن حتى ينظر إليها.»

توقفت ماريكيا عن الحديث، لترى وقع كلماتها وتلتقط أنفاسها.

دون باولينو استدار ناحية الباب الذى يؤدى إلى رواق البوابة وارتسم تعبير على وجهه فضم شفثيه إلى أسفل، وقوَس حاجبيه. أردفت ماريكيا: «واحدة مثلها كانت يجب أن تمشى مطأطأة الرأس بعد ما فعلته عندما كانت تجمع اللوز في الحقول ولكن الناس لاتخجل. كانت السيدة ليللا تحبها وتصدق ما كانت ترويه من حكايات سيئة» لحسن حظى تركت العمل لديهم، وتزوجت. «كانت ماري كيا قد تحدثت كثيراً ونهضت للعودة إلى البيت قبل أن تضطر للإجابة على أسئلة أخرى.

وفي الطريق كان يتراءى أمام عينيها تلك الفترة الحزينة التى قضتها في بيت الفاليبي. كانت في ذلك الوقت مخطوبة لابن عم تحبه وكانت تتعجل الزواج، لذا قررت الذهاب للخدمة لإعداد جهازها بسرعة. كان أوراتسيو لا يزال طالباً، وقد لاحظها وانجذب إليها.

كانت ماريكيا تعلم أنها فتاة جميلة كان شعرها متموجاً لامعاً وقدها جميل متسق ولكنها كانت فتاة مخلصه وأرادت أن تحتفظ بعذريتها لخطيبها. وكان أوراتسيو لا يهدأ، كان يناديها لإحضار كوب من المياه أو لتقوم بالخدمة في غرفته وكان يتحتم عليها إطاعة أوامره، ولأنها كانت تعلم أنه كان يجردها من ثيابها بعينيه كانت ترتجف عندما تبقى وحيدة معه، إلا أنها أفهمته بأدب أنه لا يمكن أن يفعل معها شيئاً.

أدركت منولارا اهتمام أوراتسيو بها. فكانت تكلفها بأكثر المهام الشاقة في المطبخ والمخازن كي تبعد عنها عن عيني وذهن العازب، وليس لحمايتها بل لأنها كانت تشعر بالغيرة، فعلى الرغم من تقاربهما في العمر، لم تظهر أبداً صداقة أو مجاملة نحوها.

ذات يوم استدعتها السيدة الفاليبي وأخبرتها بنقص بعض المناديل المطرزة والتى كانت ماريكيا قد وضعتها في أدراج السيدة. أجابت ماريكيا وقد شعرت بالإهانة لهذا الاتهام:

«أنا لم أسرق شيئاً، إذا لم تجديها فقد أخذها غيري» ومنذ ذلك الوقت كانت تشعر بمراقبة السيدة منولارا لها. وبعد أيام قليلة سألتها السيدة الفاليبي عن

بعض الاغطية من الصوف كانت قد غسلتها مؤخرًا. فهمت ماريكيا ما يدبر لها، ورجت أمها أن تترك العمل في ذلك المنزل وهذا ما حدث. وعندما كانت على وشك الانصراف، اقتربت منولارا منها وأعطتها مظروفًا قائلة: «طلبت منى السيدة ليلًا أن أطلب منك إلا تتحدثي مع أحد ولا أن تشكريها، إنها هدية زواجك.» كان هناك مبلغ يعادل أجر شهرين من المرتب؛ مبلغ كبير من المال نفعتها ولم تجرؤ على رفضه. قالت ماريكيا بصوت عال: «ما أقبح الفقر».

كانت متأكدة أن منولارا قد أعطتها هذا المبلغ كي تسامحها على سوء تصرفها معها. أما منولارا فلم تحظ أبداً باهتمام المحامى أوراتسيو بل تحتم عليها خدمة عائلته كلها واستضافة أرملته ببيتها، مما يؤكد أن الله يعاقب الأشرار.

فكرت ماريكيا ضاحكة:

«ومكافأة لها ستدفع عائلة الفاليبي الآن تكاليف جنازتها.» ماريكيا بيترازي وعائلتها لن يذهبوا إلى جنازة منولارا.

١٢- دون جوفانيني بينزيمونيو يتحدث عن نادى الكونسيرفاتسيونى

كان العم بيبو كونيليو قد أضع وقتاً في المخبز. كان يتنفس بصعوبة عند ارتقاء السلام القائمة، التي تؤدي إلى الميدان، كان قد تأخر في الوصول إلى نادى الكونسيرفاتسيونى، ويخشى أن يكون عضو آخر قد استولى على نسخة جريدة «سيشليا»، ويحرمه من متعة أن يكون أول من يقرأ الجريدة.

وكانت المفاجأة أن وجد أصدقاءه مستغرقين في حديث مفعم بالحيوية والإثارة، فلم يخطر ببال أحدهم أخذ الجريدة، التي بقيت كما هي فوق المقعد في انتظاره. ظل واقفاً يستمع إلى حديثهم وقد احتضن بين ذراعيه كيس الخبز، وقد انبعثت منه رائحة الخبز الطازج الساخن، نسي الآلام الروماتيزمية بساقيه.

وفي ذلك الصباح كان يلتف حول دون جوفانيني بينزيمونيو البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً العديد من الأشخاص. كان بقية الأعضاء يجلسون حوله، ويتدخلون في الحديث بين الفينة والأخرى، مضيفين بعض التفاصيل للقصة التي يحكيها دون جوفانيني بحيوية، ويضحكون ملء أشداقهم مثل صبية صغار.

لم يفهم عم بيبينو في بادئ الأمر عن يتحدثون.

« كانت تتسلق الأشجار مثل القردة، قدم هنا ويد هناك، وتمتطي الأغصان، ثم تقفز من فرع لآخر، تتعلق بالفروع المحملة بالزيتون وتتقافز فوقها لتهزها كما لو كانت ترقص، فوق الفرع السفلى ارتفاعاً وهبوطاً.» نهض دون جوفانيني وأخذ يقلد الحركات وقد باعد بين ساقيه، مثنياً ركبته.

« كانت تتسلق الأشجار حافية، لم تكن قدماها الحافيتان تحسان بخشونة لحاء الجذوع، التي تمسها بالكاد من شدة الرشاقة والخفة. لم أر مثلها خلال ستين عاماً

من عملي بالحقول، كانت حبات الزيتون تتساقط مثل كريات الثلج، وكان الصبية ينظرون إليها من الأرض بأقواه فاغرة ويحاولون الاقتراب تحت الشجرة، وتبعدهم حارسه الحقول»

قال ماريو لوجاريو متعجباً وعيناه تلمعان لتذكر متع حسية منسية:»

«كانوا يريدون رؤية فخذيها، وليس جمع الزيتون! كان الآخرون يضحكون. وكل منهم يضيف تعليقا:

« وأى ساقين! »

« كانت غضة نصره! »

« كانت صغيرة السن، وكان لها جسد أنثى بض.»

« وكيف عرفت؟ هل لمستها؟ »

كان العم بيينو يسأل: «من؟»، لكن الأعضاء لم يعيروه اهتماماً، فقد كانوا منهمكين ومستمتعين بالذكريات المثيرة، تسليهم التعليقات المرحة التي كانوا يظنون أنهم لم يعودوا قادرين على إطلاقها.

أخيراً خاطبه دون جوفانيني: «هل تذكر منولارا، التي كانت في طفولتها، تعمل في أرض البارون بوتريسكا؟»

اجاب بيينو: «نعم»، وقد أصيب بالإحباط فقد كان يعتقد أنها نائمة عن امرأة أكثر جاذبية من خادمة عائلة الفالبي، «ولكن لماذا تتحدثون عنها؟»

قال ماريو لوجاريو، ولا زالت عيناه تدمعان من الضحك.

«أم تقرأ النعي في الطريق؟، لقد ماتت البارحة.»

رد بيينو الذي كان يشعر بالغضب لأنه لم يستطع الضحك مع الآخرين، فقرر أن يتغص عليهم مزحهم فقد كان عجوزاً بائساً:

« من الجميل الحديث عن الراحلين الذين لم يواروا الثرى بعد، والسخرية منهم أيضاً، أرجو ألا تفعلوا معي ذلك بعد رحيلي..»

بأدبه ماريو لو جاربو برد أسكته: «لا يجيد الحديث إلا عن المصائب»

ضحك الآخرون، كان العم ببينو يستحق ذلك الرد الجارح.

شعر دون جوفانيني، على العكس، بأنه ملوم، ولكنه أراد الاستمرار في الحديث، مأخوذاً بالذكريات:

«ببينو، صحيح أن منولارا، يرحمها الله، قد ماتت بالأمس، إلا أننا هنا لا نتحدث عنها بسوء بل نمدح جمالها».

أضاف جاسبري بونتي: «أعتقد أن المرحومة لو علمت أننا لازلنا معجبين بها، لشعرت بالرضا، عندما كانت شابة كانت تشعر بجمالها وكان يعجبها أن ينظر إليها الآخرون!»

عادوا للحديث عن منولارا ولكن هذه المرة بنبرة أكثر جدية، ثم عرجوا مرة أخرى إلى المزاح. فقال جاسبري ضاحكاً: «كانت تضرب بالعصا من يمد يده ليساعدها، ضربات قوية!»

سأله دون جافنينو:

«لماذا، هل حاولت أنت أيضاً؟»

«لا، من كانت تواتة الشجاعة! فالكلمات البذيئة التي كانت تخرج من فمها عند الغضب.. وكم كانت تعرف منها! وصوتها!»

أضاف ماريو لوجاربو:

«كان أقوى الأصوات جميعاً، فكانت الحارسة تلجأ إليها لمناداة شخص من بعيد عند الحاجة، كانت تبدو وكأنها مغنية، ليتهما احترفت الغناء، كانت تعجبني كثيراً عندما كانت تدندن مع الفتيات وعمال الحقل، ويرتفع صوتها بعدوبة، ثم كانت

تتحرك أثناء الغناء واضعه قبضتى يديها على جانبيها، ويتمايل مع الغناء كل جسدها. « وقف وأخذ يقلد حركات منولارا، واضعاً يديه فوق جانبيه، محرراً خصره فوق ساقيه النحيلتين المعوجتين.

ضحكوا مرة أخرى، وبينو الذى استسلم كان يشاركهم الضحك.

«عندما كانوا يزنون أجولة المحصول اليومي، كانت تلقى بها فوق الميزان وكأنها مملوءة ريشا، كانت معجونة بالحديد.»

قال دون جوفانينى بجدية:

«من الحديد والنار.»

ثم أردف، ولم يكن قد غفر لبينو عتابه المبرر له، وقرر أن يُشعره بالذنب لأنه اشترك في الضحك معهم:

ثم خمدت تلك النيران، مسكينه.

ورويدا، رويدا، هدا بقية الأعضاء وإن لم يصمتوا، فدماء الشباب التى أثارها الحديث عن منولارا كانت لا تزال تسرى فى سرايئهم الواهنة العجوز.

وقد روادتهم الذكريات، تابعوا الحديث بحنين إلى حياة الريف، وللمرة الأولى أصبح المنتدى يعبر عن اسمه، فقد واصلوا الكلام، بينما بقيت الجريدة، متروكة كما هى فوق المقعد.

وعند منتصف النهار، بدأ الاعضاء يستعدون للعودة إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء، الأكثر شباباً، يلتقون أيضاً بعد الظهر.

اقترح دون جوفانينو: «بعد كل هذا الضحك بسببها، أعتقد أنه من الواجب، حضور جنازتها، فما رأيكم؟»

هكذا ضحوا براحة القيلولة عرفاناً منهم بجميل منولارا التى أثارت مرحهم، وأيضاً لإحساسهم بالخجل لعدم احترام الموت، ذهب إلى الجنازة جمع غفير من نادى الكونفرساتسيوني مما أثار دهشة وفضول الحاضرين.

١٣- جاسبرى ريسيكو، موظف بمكتب البريد وسكرتير الحزب الشيوعى الايطالى بمدينة روكا كومبا وزوجته الفيرا

أغلقت مكتبة بكوريلانصف ساعة قبل موعدها فى صباح ٢٤ ديسمبر كى تستطيع صاحبة المكتبة روزاليا مانجارانشيا بيكوريلان إعداد الغداء والذهاب إلى جنازة منولارا. الفيرا ريسيكو العاملة بالمكتبة استغلت تلك الفرصة لشراء بعض السردين الطازج من بائع السمك لتحضيرها لزوجها الذى كان يعشق السمك فى كل أيام الأسبوع، وليس فقط يوم الجمعة.

كانت إلفيرا بالمطبخ تطفى أسماك السردين التى فتحتها ونزعت منها الشوك وقلبتها جيدا فى الدقيق، عندما دخل زوجها خفية وأحاط خصرها بذراعيه واحتضنها بحنان، كانا متزوجين منذ ثمانية أشهر، وكان الناس يقولون عن حق أن كلا منهما مجنون بالآخر.

وبينما كان يقبل عنقها المبلبل بقطرات العرق من حرارة الزيت المغلى سأله جاسبرى كيف عادت مبكرا إلى المنزل؟

«دعنى يا جاسبرو لاتعطلنى ألا ترى أننى أقلى السمك سيتعجن لو لم أقله فوراً.» كانت تتحدث عن غير اقتناع، لأن لمسات الزوج قد تزايدت والآن يتحسس ثديها وفخذيها وجانبيها وكانت تشعر بالنشوة وابتلال ريقها بعدوبة، «لقد ماتت خادمة عائلة الفاليبى، أقارب السيدة بيكوريلانأغلقتوا المكتبة مبكرا للذهاب إلى الجنازة.»

خفت الشهوة للحظة ثم اشتعلت. قال الزوج مطوقاً جانبيها، ضاغطاً بجسده نحوها: «لعلها أينسريللو، لقد رأيتها الاسبوع الماضى بمكتب البريد وكانت تبدو مرهقة.»

توقف لحظة ثم أردف: «كانت امرأة شريرة، من النوع الذى يجب الحذر منه. كانت الفيرا تشعر أن أسباب إعجابها بزوجها تزداد يوما بعد آخر، ذلك الزوج المثقف الذى يعرف كل شيء عن كل الناس، ويتأمل جيداً قبل إصدار حكمه،

وأفكاره دائما عميقة وحكيمة وأضافت «على الرغم من أن السيدة بيكوريل حكت لي أنها كانت سيدة طيبة، أحببت عائلة الفاليبي كما لو كانت عائلتها وخدمتهم بإخلاص طوال حياتها».

ثم قاطعت حديثها وقد ندمت على استخدام تعبير بورجوازي «خدمت».

وخجلت من جهلها، واصل جاسبري عض حلمة أذنها.

واصلنا الأثررة حول المائدة وهما يلتهمان أسماك السردين الساخنة المقرمشة.

سألت الفيرا:

«ولكن لماذا وضعت عائلة الفاليبي الإعلان في الطريق، ولم يقيمون جنازتها، أليس ذلك من واجب عائلة الراحلة؟» كانت الفيرا التي تنحدر من سيركوزا، تتوق للاندماج في بلدة الزوج حيث ستقضي حياتها كلها، مالم ينتقل الزوج إلى مدينة أكبر بسبب نشاطه السياسي.

رد جاسبري:

«هؤلاء الأوغاد يجب أن يتعلموا كيف يعاملون العاملين لديهم باحترام أثناء حياتهم وليس بعد موتهم، انيسريلو مثال مخجل للبلوريتاريا التي تخضع لطبقة أصحاب رؤوس الأموال وتعامل الآخرين بغطرسة، أعرف ذلك وقد أجبرتها على الالتزام بحدودها مرات عديدة في مكتب البريد.

كانت تتصرف بكبر وكأنها بارونة، بارونة فيما يخصها! لم يصف شيئا آخر، فكان يضايقه أن يحكى أنه في الحقيقة كانت منولارا هي من وبخته أكثر من مرة عند تغييره أثناء ساعات العمل. عن مكتب استقبال الشكاوى، حيث كان يتسلل يوميا إلى مقر الحزب لقراءة جريدة «أونيتا»، وكان مدير المكتب، زوج عمته الذي بفضله حصل على الوظيفة، يسمح له بذلك.

وكانت منولارا قد زجرته كما لو كان تلميذا بالمدرسة، وهي التي لا تعرف الكتابة بالكاد أفهمته أنها على علم بغيبابه المستمر عن العمل وأن عليه إعطاء القدوة الحسنة للموظفين كي يحترموه.

كان تأثير خطبة جاسبري الحماسية القصيرة بالمقارنة بما اعتاده من خطب تهدف إلى تشكيل الوعي السياسي لدى زوجته، مدهشاً وغير متوقع.

أسندت الفيرا يدها فوق كتفه مبتسمة، وحنانية، دلكت عنقه وقالت:

« اليوم لدى مفاجأة لك»، بينما كانت تفتح أزرار الروب، وظهر ثدياها البضآن، كانت عارية تماماً.

بمجرد الانتهاء من تناول أسماك السردين القليلة الباقية، شعرت الفيرا بالامتنان للنشاط السياسي لزوجها الذي منع وجود خادمة بالبيت ولو لبضع ساعات في اليوم، لأنه في يوم ٢٤ سبتمبر ضاجع جاسبري زوجته فوق مائدة الطعام التي كانت تراقص فوقها أدوات المائدة بمرح على إيقاع حركات ساقيه.

وقد علم زوجته فضلا عن ممارسة الحب، بعض الأشياء الرائعة غير المعتادة، فبعد أن وصل إلى ذروة اللذة، ابتعد جاسبري عن المائدة كي ينظر إلى الفيرا التي كانت ترقد فوقها شبعي، فاتنة، وكان كأس من النبيذ في متناول يده، فشرب جرعة منه. وأحسن صنعا بصب الباقي في تجويف سرتها الصغيرة البديعة ومن هناك سرت قطرات النبيذ فوق بطنها الغضة، وتخللت أجزاء جسدها الحميمة وتساقطت فوق فخذها المنفرجتين. هكذا عرفت الفيرا متعة تقبيل الأجزاء الحميمة.

نسى جاسبري ريسيكو في تلك الظهيرة ان يخبر الرفقاء بعدم حضور جنازة أينسريللو «خاتنة الطبقة العاملة». ولم يكن هناك حاجة لذلك، لأن حضور جنازة الثالثة ظهراً، لم يخطر ببال أحد من أعضاء الحزب الشيوعي بروكاولومبا. ولم يمنع ذلك ريسيكو من التباهي في الأيام التالية بأنه بفضل سرعة بديهته جنب الحزب الظهور بشكل سيء أمام المواطنين.

١٤- الجنازة

سار الطبيب ميندكو متأبطاً ذراع شقيقته، السيدة كونشيتا دى برىما فى الطريق إلى كنيسة عذراء الآلام لحضور جنازة منولارا. كان صامتاً، مستغرقاً فى أفكاره. كما تعود منذ تقدمه فى السن، وفجأة قال بصوت عال: «أنا غير مقتنع بوفاتها على هذا النحو، كان يمكنها أن تعيش حتى عيد الميلاد! كانت تتعجل الرحيل ونجحت أيضاً هذه المرة.»

حاولت السيدة دى برىما تهدئته: «ماذا تقول يا ميمو، اهدأ.»

وعند ذلك اقترب منهم بعض المعارف المتجهين لحضور الجنازة ودخلوا إلى الكنيسة معاً.

جلس الطبيب ميندكو وشقيقته فى الصفوف الأولى. كان الطبيب يُعجبه تأمل المذبح المبنى على غرار رسومات العصر الباروكى من الرخام متعدد الألوان، تمثال العذراء المتألّمة ذات النظرة المليودرامية، كما يقتضى طراز المدرسة الأسلوبية التى عرفت فى الأقليم، القبة المزينة برسومات بوتق وتغطيتها تيجان الورود، الهبة السخية من الأمير برولى، ربما أراد بها ارضاء ضميره، بعد إرغامه للابنة الكبرى على الرهينة لاسباب تتعلق بالميراث وبالفعل أصبحت ريثة الدير فيما بعد. نظر الطبيب إلى التابوت، ولاحظ أن منولارا قد اختارت دون أن تدرى أكثر الكنائس مناسبة لإقامة جنازتها، فالمرأتان ضحت عائلتهما بهما: الأولى للحفاظ على المكانة العائلية والأخرى لتحافظ على حياة عائلتها.

همس إلى شقيقته قائلاً:

«يشترك النبلاء والفقراء فى أشياء كثيرة دون أن يدروا.»

هزت السيدة دى برىما رأسها بموافقة غير محددة، معتقدة بأن تأملات أخيها تزداد غرابة مع تقدمه فى العمر.

كان الأب أرينا يرتدى ملابسه بمساعدة أحد القساوسة الشبان، لإقامة مراسم الجنازة في الكنيسة التي كان قسيساً لها لسنوات عديدة. كان قد نسي تقريباً عمله كقسيس منذ بلوغه المعاش، فكان يعيش حياة هادئة في البيت الريفى الذى يملكه ابنه غير الشرعى، كان يعتنى بحقل الخضروات، وبزراعة الحديقة أمام البيت.

في نهاية الأمر كان يعمل بالفلاحة، وهو ابن مستأجر أراضى الأمير برولي، وبعد أن اختار له والده حياة أفضل من حياة الريف وساعدهما الأمير في ذلك.

وقد عادت منولارا إلى الاتصال به في شهر مايو الماضي، وتقابلا عدة مرات استعادة فيها صداقتهما القديمة. قد أخبرته، دون ان تشى قسما ت وجهها بأى تأثر، بأنها تحتضر وستموت قبل الشتاء وطلبت منه مساعدتها في كتابة الخطابات كما كان يفعل في الماضي، وطلبت منه أن يقيم مراسم جنازتها، وهو لا يستطيع أن يرفض طلبها.

كان الأب ارينا يرتدى الأردية الكهنوتية البنفسجية والذهبية الخاصة بقداس الجنازة، كان شريط الدانتيل المزين لطرف رداء الكتان الكهنوق الأبيض للقسيس الجديد يصل بالكاد إلى ركبتيه. يا ترى ماذا فعل بالأردية «التونيك» الطويلة التى حاكها الراهبات خصيصاً له، حيث كان طويل القامة، وهو أمر غير منتشر بين طبقة الفلاحين التى يأتي منها رجال الدين. كان الأب أرينا طويلاً، نحيلاً، ممشوق القوام، رقيق الصحة وقد تساءل مرات عديدة عما إذا كان كرم الأمير برولي معه ومساعدته إياه علاقة بأمة التى يقال إنها كانت رائعة الجمال في شبابها، فقد كان مختلفاً عن إخوته، قصار القامة، ممتليء الجسد وقد أرسل إلى المدرسة الكهنوتية ليس لأنه أظهر رغبة في الرهبنة، وهى لم تتولد لديه قط، وإنما لإزالة حرج من المنزل. ومثل منولارا رضى بنصيبه في الحياة، ويمكنه القول بأنه عاش حياة بسيطة ولكنه راض عنها.

كانت إقامة القداس، تصيبه دائماً بالتوتر بسبب تلعثمه الذى استطاع أن يحتال

عليه بحيلة اكسبته شعبيته: فقد تعلم إقامة الصلوات وأيضاً المواعظ بسرعة كبيرة، فكانت قداساته لا تزيد عن ربع الساعة وهى ميزة كبيرة.

كانت العائلات الثرية تتهافت عليه، بفضل رعاية الأمير له، وأيضاً لطيبته وحسن أخلاقه، لإقامة قداسات الزواج، والتعميد، والمناولة الأولى، والجنائز فضلاً عن قداس العائلات فى البيوت أو كنائس القرى. وهكذا أتاحت له فرصة التردد على بيوتات العائلات الثرية والجلوس إلى مواعدهم العامرة فتعلم استحسان الطعام الجيد، وكان يصرح بنهمه للطعام دون إحساس بالذنب؛ لأن كل هذه الخيرات لم تكن لتأتى له دون عمله كقسيس.

فكر الأب أرنيا طويلاً فى خطبه جنازة منولارا. لدرجة أنه كتب بالفعل صفحة صغيرة من الملاحظات إلا أنه لا يجدها الآن. حدث نفسه وهو يعدل الأردية الكهنوتية على جسده: كفى، فليكن ما يكون»، ودخل إلى الكنيسة فى تمام الساعة الثالثة يتبعه الكاهن.

فوجيء بحضور عدد كبير من الناس. كان أفراد عائلة الفاليبي يجلسون فى الصف الأول، كانت السيدة أديانا الوحيدة بينهم بثوب الحداد. كانت سانتا محشورة بين نساء أخريات فى الصف الثانى، كن جميعهن يرتدين السواد ويغطين رؤوسهن.

كانت هناك أيضاً صديقات للسيدة الفاليبي، وقد اطمأن بذلك عليها، فتلك السيدات سيقيمن برعايتها ومواساتها فى الفترة القادمة، ثم أشخاص عملت بخدمة عائلة الفاليبي، والعديد من أبناء البلدة، والفقراء، وبائعى الفاكهة، وحراس البنايات بروكا كولمبا العليا تجار صغار، معارف لمنولارا.

كان الأب أرنيا ينظر إلى بقية الجمع، لم يكن ينتظر كل هذا العدد، كان هناك العديد من علية المجتمع فى البلدة، موثق العقود فاتسانو، والطبيب منيدكو وأخته، والمهندس الزراعى ماسكولو وزوجته، ورئيسه المدير، ومدرسون بالمدرسة، حتى مجموعة من عجايز نادى الكونسيرفاتسيونى.

لم ينته الأمر عند ذلك. ولكن أيضاً، حضر عدد من الفلاحين الذين كانوا يعملون في الأراضي المملوكة لعائلة الفالبيبي كانوا عديدين وقد شغلوا أربعة أو خمسة صفوف في آخر الكنيسة في مجموعة واحدة، ممسكين بقبعاتهم في أيديهم، ولاحت في أعينهم نظرة توبة مثل تلاميذ المدارس، ورجال آخرين، أشخاص متوسطى العمر من الغرباء من البلدة، لعلهم من الحمالين أو من الريف.

نظر إلى التابوت حائراً متردداً. مسكينة منولار، من كان يصدق أنه وهو من يكبرها في العمر بكثير، سيقم قداس جنازتها وسط كل هذا الحشد من الناس الذين لا يدري من أين جاءوا!

بدأ القداس وكالعادة انتهى بسرعة شديدة. وعندما حان وقت الموعظة، اقترب من المنبر، وارتجل الحديث دون أية صعوبة: «من الصعب دائماً الحديث عن الراحلين. في بعض الأحيان، أحاول أن أقول الكلمات التي كانت لترضى المتوفى، وفي أحيان أخرى ما تود العائلة سماعه... في مرات قليلة قررت أن أقول ما أريده أنا. سأقول عن ماريا روزاليا انسريللو ما أشعر به لأننى عرفت منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها وأحببتها مثل ابنتي، وعندما كبرت أصبحت صديقة حقيقية كنت أعرفها جيداً، المنولار، كما كان يناديها الفلاحون للإساءة اليها، ومنو التي عملت ببيت الفالبيبي بجهد واجتهاد طوال حياتها، لم تعرف الراحة، شخصية ثائرة في قلبها وعقلها، وكانت تحاول أن تقدم دائماً المزيد والأفضل. كانت صعبة الطباع، سريعة الغضب، نادراً ما تضحك، وإن كانت لها روح دعابة خاصة بها.

كرّست حياتها لخدمة عائلة الفالبيبي، وفعلت لهم ما اعتقدت أنه الصواب، كان لديها القليل من الأصدقاء وإن كنت أرى الكثير من الأشخاص هنا، وهذا يعنى أنها ربما كان لديها أصدقاء أكثر مما كانت تظن، كان لديها أيضاً أعداء، لم تكن تسامح بسهولة وكانت صعبة المراس وهى أخطاء سيغفرها الله لها، لأنها تعذبت وعانت كثيراً منذ طفولتها، عندما كانت تجمع اللوز في الحقول...»

عند هذا شعر الأب أرينا بشعاعين يخترقانه بشكل مهيب ويقودانه بشكل تلقائي نحو دون فينشينسو انكونا. لفت الأنظار إلى الشخصية المعروفة في آخر مكان بالكنيسة، أمام عمود البوابة الرئيسية.

وقد باعد بين ساقيه وعقد ذراعيه، ومعطفه ملقى فوق كتفيه الصلبتين المقوستين، فكان السلطة قد خلقت هالة حوله.

صمت الأب ارينا وبقي ساكناً مثل تمثال. استعاد قدرته على الحديث بعد جهد كبير. أغفل ذكر ما كان ينوي قوله، وختم حديثه بسرعة: « وتألّمت أيضاً بموتها شابة.» أقول لكم إنها كانت امرأة تستحق الإعجاب، وممرور الوقت سنتعلم أيضاً أن نحبها لأنها كانت تحافظ على وعودها، كانت خادمة وصديقة مخلصّة. أقدم تعازي إلى أبناء وزوج شقيقتها غير الحاضرين بيننا بكل أسف وأيضاً إلى عائلة الفالبيبي.»

فقط في هذه اللحظة، نجح الأب أرينا في رفع بصره عن دون فيشينسو، ونظر إلى السيدة الفالبيبي. شعر بقواه تخور واستند إلى المنبر. رفع عينيه باحثاً عن عيني دون فيشينسو وكأنه حمل صغير يبحث عن أمه، ولكن دون فيشينسو انكوانا كان قد اختفى وتلاشى كما لو كان وهماً، لم يسمع صوت خطوه أو صرير الباب، اختفى تماماً مع رجاله.

١٥- دون باولينو يتبول على نفسه

للمرة الثانية بسبب منولارا

لم يكن دون باولينو متديناً. كان يذهب إلى الكنيسة فقط لحضور الجنازات وحفلات التعميد والزواج، وكانت دونا مينا تشعر بالأسف لذلك على الرغم من أن الزوج كانت لديه أسباب قوية تمنعه من الالتزام بالذهاب، فقد كان يعاني من روماتيزم بالمفاصل ولم يكن يستطيع الولوج والخروج بسهولة من بين الدكك الخشبية بالكنيسة، هذا الاختراع الجهنمي المزود بمسند للأقدام، تنحسر فيه قدماه باستمرار، وطاولات خشبية صغيرة تفتح، وتغلق للركوع فوقها وتصطدم بها ركبته، وأرفف صغيرة بارزة تحوى كتاب الصلاة، وتقيد حركته. ذات مرة في حفل زفاف ابنة شقيقه، احتاج تدخل ثلاثة رجال لتخليصه من الدكة التي وقع وانحسر داخلها. وفي كنيسة العذراء المتألمة، فضل أن يترك زوجته، وابنة أخيه لوتشيا تجلسان في الصفوف الأولى في الصحن الرئيسي للكنيسة بينما جلس هو بمقعد عثر عليه لحسن الحظ بجانب باب الدخول، كي يكون من أول المغادرين بعد انتهاء المراسم.

كان يتأمل بمودة الأب ارينا، الذي اصطحبه مرات عديدة في السيارة إلى البيت الريفى للمحامي، أثناء حياة السيدة ليلا، عندما كانت الناس تعتاد إقامة القداسات في الكنائس الصغيرة ببيوتهم. رجل طيب، هذا الأب ارينا، كان يستلطفه. ثم إنه ليس قسيساً بالمعنى الضيق فقد حملت منه دونا مريكا، الأرملة التي تكبره في العمر وأنجبت ولدا يشبهه تماما لم يكن الأب ارينا يخفى هذا الأمر كما يفعل الكثير من القساوسة، فكانا أثناء الرحلة بالسيارة يتحدثان عن أبنائهما.

الاستماع إلى القداس الذى يقيمه هو أمر مريح فهو يضمن قصر القداس وانتهائه سريعا. كان دون باولينو يشبه قداس الأب ارينا برحلة في السيارة؛ يبدأ دائما وهو ينفخ ويتعثر في تلعثمه، ثم تزداد سرعته ويتحدث ملتهما كلماته، متخطيا عبارات كاملة كي يصل فورا إلى «أذهبوا فقد حلت البركة». مثل سيارة

ماركة «ألفا روميو». كان دون باولينو ينصت إلى الأب ارينا باهتمام، واثقاً من انتهاء العظة في وقت قصير.

كان يُحدث نفسه وقد لاحظ أنه كان يتكلم بوضوح ودون تعلثم: «أحسنت أيها الأب ارينا، يبدو أنه تحسن في سن الشيخوخة» وكان ينظر إليه بمودة.

ولكن فجأة قطع الأب ارينا حديثه بعد العبارات الأولى.

بدا لدون باوليو أن القسيس يحدق إليه، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد كانت نظرات القسيس تتعداه لشخص آخر خلفه.

فكر دون باولينو: «أخطأت بظني أنه تحرر من التعلثم، ها هو يعود إلى العي، ولا يتمكن من مواصلة الحديث، إلا أنه ظل هادئاً واثقاً في أن الأب ارينا سيعود سريعاً إلى الحديث. ولكن القسيس بقى واجماً، صامتاً وبدا وكأن جسده تجمد من رعب لا يمكن فهم كنهه أو وصفه، كانت نظرتة مثبتة فوق كتف دون باولينو الأيمن، وكأنه أرنب برى غشى بصره أمام مشعل الصيادين الليليين، ضحية عاجزة تنتظر مصرعها بوابل من طلقات الرصاص.

بدأ دون باولينو يشعر بضيق غريب، كما لو كان هو أيضاً طرفاً في هذا الموقف، كما لو كانت تتطلق من خلف كتفيه حزمة ضياء شريرة تصعق وتشل حركة الأب ارينا.

تحامل على نفسه وتحمل ألم تحريك عضلاته فلم يكن قد فقد فضوله المعهود، نجح في الالتفات والنظر إلى الخلف: وجد دون فينشينسيو مستندا إلى باب الكنيسة، الوجه المحمر العجوز ذو الجلد المشدود اللامع، تقريباً دون أية تجاعيد يضح حياة وفتوة، وقد ثبت نظره على الأب ارينا.

كان يقف حوله أربعة رجال مرتدين الملابس الغامقة وكانت أعينهم تنتقل بسرعة من نقطة إلى أخرى بالكنيسة. لاحظوا فوراً دون باولينو. حدجه أحدهم

بنظرة تحذير، كانت تنقل الرسالة المعروفة: «لا شأن لك بهذه الأمور اعتبر أنك لم تر شيئاً». التفت دون باولينو، بسرعة خارقة، ودون الإحساس بأى ألم في عظامه، وعاد إلى وضعه السابق وأحنى رأسه كما لو كان في موقف التوبة. كان يرى ضباباً أمام عينيه ويرتعد من الخوف. شعر بسخونة داخلية كانت تسرى بين فخذيته وتنتشر فوق ساقيه لتصعد إلى مؤخرته، كان دون باولينو انونسيستا يبول على نفسه.

انتهى القداس وكان الناس يستعدون للخروج على تودة من الكنيسة.

ظل دون باولينو ملتصقا بكرسيه، محرجا من فكرة أن يرى الآخرون سرواله المبلل. قال لزوجته إنه يرغب في تحية الأب أرينا وأنه سينتظره. انقشع الضباب من أمام عينيه وغدا نظره صافياً وشعر بتحسن، ولكنه أحس باللزوجة، بعد برودة البول، الذي كان يسبب له شعوراً بالضيق الشديد.

نهض بحذر واتجه نحو قاعة الكنيسة متوخياً الحذر بالسير بجوار الحوائط في الضوء الخافت.

وكان الأب أرينا وحده وقد خلع أرديته الكهنوتية، حيث كان يقف أمام لوحة المتنيحة كارميلا دي برولي، أول رئيسة للدير ذات العينين الغامضتين القاسيتين، كما لو كان يطلب منها أن تشفع له عند الرب.

اقترب منه دون باولينو وفهم أن القسيس يطلب العون من الراهبة، ربما كانت من أسلافه، وانتظر برهة. لمس رداءه بخفة ليجذب انتباهه، انتفض القسيس:

- «اوه أهذا أنت يا بولينو لقد أفرغتني.»

- رد بولينو:

- «أنا أيضاً، رأيته، وربما بُلت على نفسي»

- رد الأب أرينا بنصف ابتسامة:

- «لا داعي للقلق على نفسك أو عليّ، أمسك هذا.» وأعطاه خرقة من الكتان

وساعده بغلظة على تخفيف بلله.

بعد ذلك خرج العجوزان معاً، أحدهما طويل، ممشوق مهيب الطلعة في جيبته السوداء الهفهافه، والآخر قصير، ترتعش ساقيه أكثر من المعتاد وقد انحنى فوق عصاه، ظهراً أمام باب الكنيسة الخارجى حيث كانت الناس تتباطأ في الانصراف، منشغلة بالثرثرة في انتظار الأب إرينا.

- قال الأب إرينا لدون باولينو: «اتصل بي».

ولحق سريعاً بموكب الجنازة الذى كان ينتظره واتخذ مكانه في المقدمة بجوار جانى الفاليبى وتحرك الموكب. بقى دون باولينو أمام الكنيسة آملاً أن تجفف الرياح الخفيفة سرواله.

وكى يتصرف بشكل لائق، تتبع بنظرة احترام الموكب الذى كان يتحرك مثل دودة بطيئة طويلة الرأس، تتلوى في الطريق المتعرج المنحدر نحو المقابر. وعندما اختفى الذيل الممتوج المتعرج الصخب عن نظره، رجع إلى البيت منكسراً، محبطاً.

أخبر دوننا ميماً أن أسماك السردين المحشى (بيكافيكو) التى تناولها على الغداء، أصابته بالحموضة، واندس في السرير متمنياً أن يجف السروال دون أن يترك أثراً لفعلته المخجلة.

في تلك الظهيرة، نام بعمق. استيقظ وقد حل المساء، وكان يشم الرائحة الحلوة للبصل المحمر المستخدم في طهو طعام العشاء، وشعر بالأمان.

حدث نفسه ضاحكاً: «لم يكن ينبغى لمنولارا أن تفعلها معى».. «مرتان كثير».

كان قد مر خمسة عشر عاماً على المرة الأولى وهى دائماً طرف في الموضوع.

كانت ليلة مظلمة من ليالى شهر ديسمبر، هبط الليل في الرابعة بعد الظهر وكان يصطحب منولارا بالسيارة إلى الريف.

كانت تجلس بجانبه، كما تعودت عند سفرها وحدها معه، فلم تكن تعامله معاملة السادة.

كانت منولارا قد أمسكت بزمام إدارة أملاك القاليبي منذ فترة وجيزة، وكان الصراع محتدماً بينها وبين مستأجرى الأرض الراضين الخضوع لسلطتها. كان زمن الشقى جوليانو، وثورة الأجراء، والصراع بين النظام القديم والمافيا التي كانت في أوج تطورها، وأصبحت أكثر عنفاً ووعياً بالدور الذى بدأت تلعبه في الصراع السياسى والطبقى في إيطاليا الديمقراطية المسيحية. كانت كل زيارة إلى الريف مغامرة وصداماً جديداً. كانت أفضل اللحظات لدون بارلينو المحب للحياة الهادئة هى لحظة الرحيل من المزرعة، محملاً بالمحصول والمنتجات الزراعية. في ذلك اليوم كانت رائحة الخضراوات التى قطفت لتوها وعطر محصول البرتقال الجديد يفوح من السيارة. كان دون باولينو يقود السيارة بحرص مشتهياً طعام الخضراوات المطبوخة المسلوقة، مع بعض من زيت الزيتون الجديد وعصير الليمون الذى سيأكله على العشاء. كان يتقدم بالسيارة بمهارة وحرص في الطريق الضيق الملتئ بالحفر والأحجار الخطرة والذى يلتف مع منعطف الجبل، على شفا الجرف الممتلئ بالأحجار، و العوسج.

وعند هذه النقطة من الطريق عند المنعطف، أجبروه على الوقوف بالسيارة.

قطع ثلاثة رجال الطريق أمامه: كانوا في انتظارهما.

وقف أحدهم في منتصف الطريق، والاثنان الآخران على جانبيه، وصوبوا نحوهما بنادق الصيد، لم يكن يرى منهم إلا العيون التى كانت تظهر بالكاد بين القبعة والشال الذى يغطى وجوههم.

كان رد فعل منولار فورياً، و حاضراً وضعت يدها فوق فخذه، دون أى خجل وقالت له: «سيد باولينو، عندما أقول لحضرتك اذهب، ضع يدك على ناقل الحركة على السرعة الأولى، وتحرك بسرعة، هل فهمت. الآن قف وافعل ما يقولونه.»

صرخ الرجل الواقف في منتصف الطريق: «أطفئوا نور السيارة». أشعل دون باولينو من شدة اضطرابه النور وتوقف. صرخ الرجل مرة أخرى: «قلت أطفئ المصابيح أيها الأحمق!» أطاع دون باولينو الأمر، وبقي في الظلام. وأثناء ذلك فتحت

منولارا زجاج نافذة السيارة وقالت بصوت عال، واثق وهي تُخرج رأسها من النافذة: «ماذا تريدون؟»

تحرك الرجل ببطء والبنديقية لا تزال مصوبة وهو ينظر مباشرة إلى وجهها وسأل: «هل هذه سيارة المحامي الفاليبي؟» وأثناء ذلك كان زميله يفحص السيارة من الداخل عبر النوافذ ليتأكد من عدم وجود أشخاص آخرين بها.

أجابت منولارا: «تعلمون جيدا أن هذه السيارة يمتلكها المحامي الفاليبي وأنا منولارا، ماريا روزاريا انسيريللو، والجالس على مقعد السائق هو دون باولينو أنونسييتا، سائق المحامي. ينبغي أن أعود إلى البلدة للعمل ببيت الفاليبي، لذا أخبروني بسرعة بما يجب أن تخبروني به.» وخفضت رأسها وجلست بظهر مستقيم فوق مقعد السيارة وعنقها ملتفت إليه وعيناها تنظر بثبات في عيني الرجل القريب المتوعد. أرخى الرجل البنديقية، فانزلقت ببطء على جانبه.

وضع ذراعه ببطء فوق النافذة المنخفضة، تمهل، ثم تحدث قائلا:

«يا آنسة هذا تحذير لحضرتك، الذهاب إلى الريف غير صحي بالنسبة لك، هواء المدينة أفضل كثيرًا، من الأحرى بك القيام بعملك كخادمة في بيت المحامي الفاليبي دون التدخل في الأمور التي لا تعنيك.»

احتدم التوتر. نظر دون باولينو أمامه، فرأى فوهة بنديقية ذى الوجه الدميم، الواقف في منتصف الطريق الضيق مباعداً ما بين ساقيه مثل عملاق من الحجر، مصوبة نحوه.

أحس برجفة مترددة بيد منولارا التي لم تغادر فخذيه، شعر بضغط أظافرها فوق قماش البنطلون. كانت هي أيضا تشعر بالخوف، وأحس بالقنوط.

انتفض عند سماع صوتها الرنان. كانت تصرخ ويتناثر الرذاذ من فمها، ومع ذلك كانت كلماتها واضحة و بسيطة:

« لم يتحدث أحد معي بهذا الشكل من قبل، أعرف أنه ليس خطئك، أو خطأ السادة الذين بصحبتكم اليوم، لم يشرحوا لكم الأمر جيدا، وليس من واجبي التوضيح الآن. أطلب منكم أن تسدوا لي صنيعاً، لتخبروا دون فينشينسو انكونا أن منولارا تحييه وستصل به قريباً، وألا يشغل نفسه بالاتصال بي، سأرسل اليه من يخبره بطلبي للمقابلة عندما أصبح مستعدة للحديث معه، وألا يقلق أنا سيدة أفي بوعدي، وسأظل كذلك. أوصيكم أن تبلغوه بتلك الرسالة فوراً وأن تخبروه أيضاً أنني لم أشعر بالإهانة من هذه المقابلة معكم، ولم تغضبني، فعلى أية حال، لن تتكرر مثل هذه المقابلات، وقد أخرجتموني عن الرجوع إلى البلدة. الآن ينبغي أن أذهب، لأن دون فينشينسو انكونا يعلم أنني «خادمة مطبخ» بمنزل الفاليبي. يعلم لأن الأمور كذلك، ولأنه يعلم كل شيء بالبلدة. ويعلم أيضاً أنني أحب إدارة أملاك المحامي الفاليبي، ويجب أن أعود إلى الريف، هواء الريف يعجبني كثيراً ويفيدني جداً. عندما سأحتاج مساعدة، لن أخجل من الاتصال به، هو يعلم أنني أحترمه. أتمنى لكم جميعاً أعياداً سعيدة وعيد ميلاد سعيد، والآن أفسحوا الطريق لأنني تأخرت.» كانت تتحدث مشيرة بيدها، وكانت قد رفعت يدها من فوق ساق دون باولينو ولكن عندما انتهت من حديثها، أسقطت يدها بقوة. وبصوت قوى وواثق، أمرت دون باولينو: «دون باولينو، فلنذهب والتفتت لتنظر إلى الطريق الضيق أمامها دون أن تنظر إلى الشخص الذي كانت توبخه، فقد أنهت المقابلة. أدار دون باولينو محرك السيارة وتقدم ببطء، كان الرجل الواقف أمام السيارة لايزال ساكناً، مصوباً البندقية نحوه. كانت يد منولارا تستحثة على التقدم في السير. فكر دون باولينو أنه ربما قد حانت ساعته، وأنه سيلقى حتفه إما برصاص البندقية أو بالسقوط من المنحدر الجبلي، فقط يد منولارا الثقيلة مثل الحجر والتي كانت تضغط فوق فخذه، كانت تمنحه القوة للقيادة مثل الآلة. وبخطوات وثيدة، محتفظاً بغطرسته، بدأ الرجل التنحي عن الطريق متحركاً إلى جانب الجبل، وأفسح الطريق للسيارة والبندقية لاتزال مصوبة نحو دون باولينو.

وتحركت السيارة ببطء.

أطلت منولارا من النافذة وقالت: «تحياي! أبلغوا الرسالة لدون فينشينسو انكونا، لا أريد أن أسبب لكم مشاكل، الموضوع لا يستحق.»

عصرت فخذ دون باولينو بيدها. أشعل أضواء السيارة، مثبتا قدمه فوق دواسة البنزين وانطلقت العربة مخلفة وراءها سحابة من الغبار.

أدرك عندئذ أنه يجلس فوق سائل بارد، فقد بال على نفسه.

عادا إلى البيت صامتين. عندما وصلا إلى بيت الفالبيبي قالت له منولارا: «اصعد حضرتك إلى المطبخ، سأعطيك أحد بنطلونات المحامى وسأغسل بنطالك، أخبر زوجتك أن البنطلون تبقع بالزيت.»

أوصيك بالألا تفتح فمك بأية كلمة لأى شخص.»

لم يحك دون باولينو أبدا ما حدث، ومنذ ذلك الوقت استطاعت منولارا إدارة الأراضى فى الريف بسهولة.

-١٦- بعد الجنازة، الطبيب ميندكو يقدم التعازي

لسانتا ويتحدث مع موثق العقود انجيلو فاتسانو

قدم الطبيب ميندكو التعازي مرة أخرى إلى عائلة الفاليبي بعد انتهاء الجنازة. وبدأ له من الواجب مواصلة سانتا أيضا. حاول أن يعثر عليها بين الجمع، وجدها بجوار الكنيسة تحيط بها مجموعة من النساء، بأصواتهن الصاخبة، كن يحاولن مواساتها ويتبارين بكلمات العزاء المبالغ فيها.

كان الطبيب ينتظر بصبر انتهاء أحاديثهن ليصل إلى سانتا أو ليجعلها تلاحظه، وأثناء ذلك كان يسمع ما يقولونه.

كانت سانتا تعيش لحظة من لحظات مجدها، تتباهى بقدرات منولار في الطهي والشئون المنزلية دون إغفال ذكر التقدير البالغ من منولار لها ولفضائلها. كانت النساء متعلقة بشفتيها، تنتظر بشغف كلماتها:

« علمتني أشياء كثيرة في المطبخ، على الرغم من أنني كنت أجيد الطهي بكل أنواعه: الحلوى بالسكويت، والجيلاتي، واللحم المطبوخ، والسوبليه، وأيضا المارينج والبروفيتول... كانت تترك المطبخ نظيفا، لم تكن تطلب مني أبدا غسل أوان، و صوان لها، لم تتركني أبدا أكل وحدي. كانت تعد المائدة للسيدة أدريانا وتخدمها بنفسها، مع أنها كانت تقيم في بيتها، إلا أنها كانت تعاملها وكأنها سيدة البيت المالكة لكل ما فيه.»

كانت النسوة الصاخبات يقاطعنها باستمرار بتعليقات من الإعجاب والدهشة تغطي على كلمات سانتا، وقد ازدادت التعليقات عندما بدأت سانتا في رواية التصرفات الأخيرة للبطلة.

« قبل وفاتها بأسبوع، أرادت صنع بسكويت باللوز وعجينة اللوز. كان لديها دقيق اللوز ولكن لم يعجبها، كانت تقول أنه يحتاج أيضا حبات اللوز المر، كانت خبيرة

بكل شيء. طلبت من السيدة كارميلا أن تشتريه لها، ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضير الحلوى. نهضت من سريرها لتحضير العجينة، كان يبدو عليها المرض والألم. أجهشت سائناً بالبكاء مرة أخرى، وقد غرقت في كورال كلمات العزاء ومواساة النسوة: «يالها من امرأة» كانت قديسة»، كيف ستعيشون بدونها».

تشجعت سائناً وواصلت روايتها سأحكي لكم هذا، فقط لتفهمن كيف كانت تحترمني وتقدرني. أعدت صينتين من البسكويت، ووضعتهما في الفرن احترقت أحدهما، بينما الأخرى خرجت طيبة وهشة.

قالت لي: « إياك أن تأكلي البسكويت المحروق، لأنه أصبح مرّاً، لا يؤكل لتأكلي أنت والسيدة أدريانا قطع البسكويت الذهبية لأنها حلوة الطعم.» أخذت البسكويت المحروق إلى غرفتها وأكلته وحدها فكانت لا تحب أن تلتقى بشيء في النفاية.»

انفجرت طاقة في الدائرة ورأت سائناً الطبيب. ألقى بذراعيها حول عنقه ولم تتركه لفترة، كانت تفخر أمام أترابها أن الطبيب المعالج لمنولارا يعتبرها فرداً من العائلة يتقبل العزاء.

كانت تلك اللمسة الأخيرة لإظهار الأهمية التي نسبتها لنفسها في ذلك اليوم. وأخيراً وجد الطبيب الطريق للتخلص منها، وانصرف. وفي الطريق، اقترب موثق العقود فاتسيانو من الطبيب وقطعا جزءاً من الطريق معاً.

«كانت شخصية فريدة، كان لديها حدس في الاستثمار كنت أحسدها عليه.. تخيل أنها نجحت في تقليل خسائر تقسيم أراضي عائلة الفالبيبي وأعطت للفقراء أراضي مليئة بالأحجار، والعوسج.

كانت تعرف أرضهم أفضل من أي حارس زراعي، صدقني أنا الخبير في هذه المهنة على الرغم من شخصيتها الصعبة، إلا أنها كانت امرأة صالحة ومحبة لعائلة الفالبيبي.» اختتم موثق العقود حديثه وصدّق الطبيب على كلامه.

سأله: «ميمو، أخبرني بشئ يثير فضولي، كنت الطبيب الخاص لها هل تركت وصية؟»

لست أدري

«أسألك لأنها منذ فترة جعلتني أقوم بإجراءات هبة بيتها للسيدة الفاليبي ووظنت أنها ستكتب وصية، لكنها لم تفعل وأدهشني هذا، كنت أعتقد أنها تثق بي.

كان يمكنها كتابة وصيتها، كانت تكتب بصعوبة، كنا نعلم ذلك جيدا ولكنها كانت تمتلك الكثير وكان لديها الكثير من الممتلكات.

لم يكن لديها، دخل معلن، فلا أحد يرغب في دفع الضرائب، بيد أنها كانت دائما تجد النقود عندما تحتاج إليها، وكنت أتساءل دائما من أين تحصل على كل هذه الأموال.»

لم يكن أنجيلو فاتسيانو يعجب الطبيب منديكو وهذا السؤال أثار أعصابه: «ينبغي أن تعرفها أنت أفضل مني، أنا كنت فقط طبييها، وبالنسبة للأموال لم أطلب منها أبدا أن تدفع لي.»

«ربما لم يتسن لها الوقت لترك الوصية، رغم كل شيء، كانت تبدو بصحة جيدة منذ أسابيع قليلة، يبدو لي أيضا أنها سافرت في شهر أغسطس للإجازة ولم أكن أتوقع أن تموت هكذا بسرعة.. أنت ما رأيك؟» اضاف موثق العقود آملا في الحصول على إجابة شافية من الطبيب، الذي أجابه بكلمة من مقطع واحد «حضرتك نعم. أنا لا.»

فهم موثق العقود أن ميمو لم يكن ليزيد في كلامه، فتركه وانصرف.

عندما بقى الطبيب منديكو وحده، تأمل كلمات ساننا وتعليقات موثق العقود بالتأكيد منولار ماتت قبل الأوان.

كان قد شخص الورم في مايو، ونصحها بإجراء بعض التحاليل واستشارة أخصائي
إلا أنها رفضت وقد أخبرها أن ذلك الرفض الأحمق سيقصر أيامها وسألته فقط، إن
كانت ستعيش إلى الخريف. فرد أنه من المحتمل أن تعيش إلى الخريف، وردت
منولارا: « سيكون مناسباً لي الموت في آخر سبتمبر.» إلا أنه فوجئ بالتدهور غير
المتوقع في حالتها في الأسبوع الماضي وعلى الرغم من الآلام الشديدة بالمعدة إلا أنها
رفضت دخول المستشفى لإجراء التحاليل وماتت في نهاية سبتمبر كما قررت.

هز الطبيب منيدكو رأسه وقال بحزن بالغ: حان وقت التخلي عن ممارسة المهنة،
لم أعد طبيباً جيداً، يجب أن أعترف بذلك.»

١٧- دون جوفانينو بينسيمونيو يراقب المارة ويتذكر منولارا

شعر دون جوفانينو بإرهاق شديد، بعد الجنازة، توقف بالنادى ليسترخ قليلا قبل مواصلة ارتقاء الطريق نحو البيت. كانت المقاعد موضوعة بالخارج، فوق الرصيف مرصوفة بمحاذاة السور الخارجي. سقط فوق أول مقعد بدلاً من البحث عن مقعده المفضل. كانت مقاعد «نادى الكونسرفاتسيوني» من القش تبدو ظاهرياً متشابهة، بيد أن كل عضو كان قد اختار له مقعداً، والويل لمن يستولى على مقعد الآخر، وقد حدثت مشاحنات كثيرة في الماضي حول هذا الأمر.

كانت الشمس ساطعة فوق الأحجار بالطريق. كان الضوء يغشى الأبصار، فكانت عينا دون جوفانينو تجتهد في البقاء مفتوحة، واستسلم للنعاس. أيقظته ثرثرة المارة في الميدان. وبدلاً من العودة إلى البيت كعادته طلب من النادل تحضير القهوة ليظل مستقيظاً، وبدأ يشاهد المارة.

كان مبنى «نادى الكونسرفاتسيوني» متهدماً، وكان يتكون من صالة كبيرة على طراز القرن الثامن عشر، بالطابق الأرضي مؤثثة بمقاعد ومناضد صغيرة، وأربع غرف بالطابق الأول، أصبحت الآن مهجورة وممتلئة بأخشاب قطع أثاث قديمة، يقال إنها كانت تستخدم لتبادل أحاديث خاصة وفاحشة مع نساء دخلن إلى تلك الغرف خلسة. كان خادم عجوز يقوم بكل الأعمال الضرورية للنادي: فكان يقوم بالتنظيف، وشراء المستلزمات وأحياناً بوظيفة السكرتير، والإداري. كانت الطبقة البروجوازية الغنية للبلدة الآخذة في التوسع تتردد على النادى حتى عام ١٨٦٠

وبعد ذلك انتقلت إلى نادى «أونيتا دي إيطاليا».

بدأ منذ ذلك تدهور «نادى الكونسرفاتسيوني». كان أعضاؤه ينتمون إلى الطبقة البروجوازية البسيطة بالبلده، والكثير منهم من أرباب المعاشات، وكان المبنى في

حالة مزرية. وعلى الرغم من ذلك كان دون جوفانينو وبقيّة الأعضاء يتباهون بأن مقر النادي من أفضل الأماكن في المقاطعة. بالفعل كان قد شيد في مكان واسع من الميدان، في الشارع الرئيسي لروكاكولومبا، بالقرب من الكنيسة الرئيسية، وأرقى المحلات بالبلدة، وأمام أيضاً المقهى، الذي يتردد عليه عليّة القوم، كان بدون شك أفضل المواقع لمشاهدة الميدان.

مع انخفاض درجات الحرارة، كانت الناس تتدافع إلى الميدان لمشاهدة الاحتفالات الرسمية. نشاط اجتماعي طيب، وصحى وهام جداً وقد مارسه أيضاً دون جوفانينو للبحث عن زوجة، وللبحث عن عمل، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية، وليظهر للناس بناته اللواتي بلغن سن الزواج، ولقضاء الوقت. لاحظ دون جوفانينو أنه على الرغم من التغيرات التي حدثت في الفترة الأخيرة وظهور التلفزيون، إلا أن هناك الكثير من أهل البلدة يتنزهون في الميدان، أغنياء وفقراء وكلهم متأنقون.

وكانت خادمات العائلات الغنية يتنزهن أيضاً في أيام آحاد، إلا أن منولارا لم تُرّ أبداً بينهم.

كان هناك العديد من الفتيات، كن الغالبية بين المارة. لاحظ أن كل أربع فتيات تتأبطن أذرع بعضهن البعض، كن يذهبن ويجئن أمامه. يثرثن كلهن في وقت واحد، يضحكن ملء أشداقهن، وينظرن حولهن. ثم يسرن بتمهل أمام المقهى، مكان التقاء الذكور.

كان الرجال الجادون يتمشون قليلا وفي الغالب مع زوجاتهن اللواتي ترتدين الملابس الجميلة وتبدو عليهن الدعة بعد نوم القيلولة. أما الرجال فكانوا يفضلون، للتلاقى، والنظر إلى الفتيات والنساء، والرجال الذين يسرون خلفهن. كان أوارتسيو الفالبيى واحداً من هؤلاء، فكان يتنزه وحده في الساحة متتبعاُ أرداف النساء المتأرجحة.

عادت نفس المجموعة من الفتيات الصغيرات بالمرور أمام دون جوفانينو.

واحدة منهن كانت صغيرة الحجم وقبيحة، ألقت بنظرة نارية، لشاب كان مستندا بخفة إلى بلكون المقهى. كانت أعينهما تتلاقيان بشكل خاطف في كل مرة تمر فيها الفتيات أمامه، ثم تدير الفتاة رأسها إلى الناحية الأخرى، وتواصل السير مبالغة في هز خصرها. وقد شغل الأعضاء كل المقاعد المرصوفة بجوار السور صامتين متأهبين لملاحظة اهتزاز نهد أو حركة أرداف جميلة، كانوا يعرفون بأعينهم النساء القليلات ذوات النهود الكبيرة اللاتي تجرؤن على ارتداء ملابس ضيقة بصحبة زوج، أو أب، أو أخ. اتجهت أفكاره للجسد الشاب اليافع لمنولارا. كان يحتفظ بصعوبة بعينه مفتوحتين، فجفونه المرخية المجددة تسقط فوق حدقة العين وتغشى بصره، كانت صور ومشاهد من الماضي تقفز أمام عينيه كما لو كان يشاهد فيلمًا سينمائيًا.

-١٨- دون جيوفانينو يتذكر

كان دون جيوفانينو مثمناً أميناً ومحترماً للمحاصيل الزراعية. وكان عمله يجعله يطوف بالأراضي الزراعية ممتطياً حصانه، وكان يستطيع التباهي بالمعرفة الجيدة لكل أراضي المقاطعة. كان يترك البلدة من الفجر ويعود إليها في المغيب. كان يرى أمام عينيه الطفلة الصغيرة ذات الأربع أو الخمس سنوات تسير بجوار أبيها في الطريق الواسع في ضوء الفجر الخافت مستقيمة الجسد، فخورة. كان لويجي اينسريللو رجلاً سيئ الحظ فقيراً بعد أن فقد عمله في المناجم بسبب مرضه وعلى الرغم من علمه بحال رثتيه اللتين دمرهما المرض فإنه عمل أجيراً بالحقول ليعول عائلته. كان يصطحب معه الابنة الصغيرة لأن زوجته كانت هي الأخرى مريضة. بينما كان الأب يكدح في الأرض، كانت الطفلة تجمع الحلزونيات، الفاكهة، حبات القبار، قطع الخشب وكل ما تجده للأكل أو لإشعال النار. وعند العودة إلى البلدة كان لويجي يجر أقدامه، وقد هذه التعب، بينما تسير الطفلة بجواره مرفوعة الرأس على الرغم من جرابها المثلثل بما جمعته، وأحياناً كانت تحمل أيضاً فأس الأب. كان دون جيوفانينو يحجم عن دعوتها للضعود فوق فرسه لأنه كان يخشى من وقوع الأب في الطريق دون مساعدة ابنته.

بدأت تعمل في سن السادسة في فرق قاطفات اللوز.

كانت أصغرهن سناً ولكن أكثرهن مهارة.

كانت تعمل بتركيز وبمهارة ومستعدة لسباق الأخرى والتعلم منهن.

لم تكن تفلت من بين أناملها الصغيرة حبة لوز أو زيتونة أو حبة فستق وكان لبنان أصابعها عيون. كانت تعثر عليها بين قطع الطمي في التربة الصلبة، بين الأحجار والنباتات الشوكية. حيثما مرت تلك الأنامل الصغيرة الرفيعة، لم تكن لتغادر حبة أو فاكهة سواء في الأرض، أو فوق الأشجار، أو بين الأفنان.

كانت تتسلق الأشجار العالية دون خوف لتنزع حبات اللوز العالقة التي لم تقع تحت ضربات العصي. بعد موت أبيها، وهي لاتزال في الثامنة من عمرها، كانت تعول أمها وأختها. لم يكن هناك عمل ترفض القيام به، أينما كان وبأى أجر، كان شرطها الوحيد العودة في المساء إلى البلدة. كانت أصابعها تبدو كسيقان عنكبوت من شدة النحول، من العمل الدؤوب في جمع اللوز، كأنما تنسج شبكة فوق الأرض. لذا أطلقوا عليها اسم «منولارا» الذي لم يفارقها أبدا. كانت تعمل بسعادة تقريبا. كان دون جوفانينو يتذكرها، راحة، مستغرقة في العمل، ولكن منتبهة لكل ما حولها: كانت تسمع من بعيد اقتراب فرسه وكانت أول من يحييه بصوت رنان:

«بارك الله فيك، دون جوفانينو.»

شاهدها تكبر وتصبح صبية متناسقة القد، نحيلة، بسبب الجوع الذي نشأت فيه، وجهها بيضاوي، وعيناها ذات الأهداب الطويلة، تشع منهما الحيوية، وابتسامتها الجميلة تكشف عن أسنان غير مستوية باوزة.

فكانت تغنى بصوت ساحر: عندما كانت الفتيات ترد بالغناء على أهازيج الأجراء، وكانت تغنى بكل أحاسيس وشغف فتاة شابة.

كانت تمزج مع الصبيان، فلم تكن تخجل من الرجال. وقد تعلمت لغة الذكور الفجة القوية، والتي كانت تستعملها بشراسة، إذا ارتكب أقرانها خطأ في حقها أو شعرت بسوء معاملة، أو إجحاف.

كانت تعرف كيفية التصرف مع رؤسائها وعندما كان الملاحظ الزراعي، أو رئيسه العمال يسيئون التصرف معها، كانت تصمت، ويتكدر وجهها.

منذ صغرها كانت تشعر بعزة نفس، لا تتلاءم مع مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، وكانت تنظر مباشرة إلى العيون، وتسال دون خبث أو وقاحة وتنتظر الإجابة، وكانت بالفعل تتلقاها.

لم تذهب إلى المدرسة كانت تعرف أن واجبها إعالة عائلتها والإنفاق عليها. وخلال استراحة الغداء كانت تبتعد بنصيبتها من الخبز والغموس، وتستقطع منه دائماً جزءاً كبيراً لتحمله إلى البيت. و تحتفظ في جيبها بكسرات من الخبز الجاف، والفاكهة المجففة وقطع الجبن التي كانت تلتقطها من هنا وهناك، محتفظة بالطعام الأفضل للمريضتين اللتين تنتظرانها بالبيت.

وبعد انتهاء يوم العمل، إذا وجدت وقتاً، كانت تعود وحدها إلى الحقل لتجمع الفاكهة والخضراوات التي تركها الفلاحون بعد جمع المحصول. كانت تضعها في جرابها وتعود إلى البلدة لم تكن تخشى مخاطر الطريق أو مشقة السير الطويل.

عندما بلغت الثالثة عشرة تركت العمل بالحقول. يقال إنها أحببت أحدهم وانتهت القصة نهاية سيئة. لم يتحدث أحد عن تلك القصة لأن الشاب كان ينتمي إلى عائلة محترمة.

لم يسأل دون جوفانينو الذي كان بحكم عمله يرى كثيراً ويتكلم قليلاً، عن هذا الموضوع أبداً. كلما قلت المعرفة عن تلك الأشياء، كلما كان أفضل. وقد عرف بعد ذلك بوقت قصير أنها التحقت بالعمل لدى عائلة الفالبيبي.

وقابلها بعد عشرين عاماً تقريباً. كان قد سمع أنها بعد موت والدة المحامي، تولت إدارة أملاك وأراضي عائلة الفالبيبي. وقد استدعته لتقدير محصول اللوز. تقابلوا في البيت الريفي حيث كانت تتصرف كصاحبة الأملاك. لم تعد فتاة الماضي الجذابة، وإنما متحفظة، رجعية. كان دون جوفانينو قد ذهب إلى حقول اللوز ممتطياً حصانه. كان مستغرقاً في أفكاره كعادته عندما يعمل، ولم يدرك أنها كانت تتبعه سيراً على الأقدام وعندما لحقت به، لم تتركه لحظة واحدة. كانت تتوقف عندما يقف لملاحظة ثمار شجرة أو تشذيب فروع، لم تكن نظرتها تغادر وجهه، و دون أن تنطق بكلمة واحدة. أحس دون جوفانينو بالضيق. عندما رجعا إلى البيت الريفي، دخلت منولارا إلى حجرة الإدارة وتركته ينتظر طويلاً. ثم خرجت بعد

ذلك ممسكة بدفتر. استهل دون جوفانيو حديثه بالمقدمات المعتادة عن محصول السنة، الأمطار، ما حرث من الأرض وما ينبغي حرثه ليصل إلى اللحظة المرتقبة، لحظة ثمين المحصول. كانت منولارا تستمع إليه، وقد وقفت أمامه في صمت. شعر دون جوفانيو بالخرج من صمتها، كان يسيل منه العرق بارداً.

لم يكن يفهم تصرف هذه الخادمة التي تأمر الآن. هل كانت تفعل ذلك لتظهر حسن الأدب، أم أنها تريد أن تلفت انتباهه أن الأمور انقلبت أو من يدري أى خطة شيطانية كانت تدور برأسها.

كان واثقاً من شيء واحد فقط، كان يتعجل العودة إلى البلدة.
حاول أن ينتهي من عمله بسرعة.

كان يوشك على النطق بتقديره النهائي، بسعر المحصول، عندما أوقفته، حيث مدت ذراعها اليمنى، وكف يدها المفتوحة نحوه، قائلة:

«قبل أى حديث، دون جوفانيو، اقرأوا من فضلكم التقدير الذى حسبته، إن كان يبدو لكم صحيحاً»، وناولته الدفتر. لا يزال دون جوفانيو يشعر بالرجفة، كلما تذكر تلك اللحظة، ماكتبته كان بالضبط الثمن الذى حدده.

ولدهشته أراد أن يعرف كيف استطاعت تحديد الثمن، ربما قرأت أفكاره؟ شرحت ببساطة الملاحظات التى جعلتها تصل إلى نفس النتيجة.

سألها معجباً: «كيف استطعت تعلم كل ذلك؟»

كانت إجابتها وجيزة:

«كنت أحب العمل فى الحقول؟ هل تتذكرون؟»

يكاد دون جوفانيو يقسم أنه رأى الدمع يتفرق فى عينيه الغامقتين.

ومنذ ذلك الحين لم تعد خدماته مطلوبة ولم تحتج عائلة الفالبيى إلى مئمن في أراضيتها. كان دون جوفانيو يحدث نفسه:

«كانت مختلفة كثيراً عن كل الآخرين، من كانت تشبهه؟ من أين ورثت ذلك العقل وهذا الحضور بالتأكيد، لم ترثه عن أبيها الذى لم يكن يتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء ولم يكن يحب العمل، فمن؟»

وفجأة بدا له أن لمح شخصاً بالكنيسة يشبه دون فينشيسو انكونا؟ انتفض للفكرة التى كانت تعبر ذهنه. تضايق وحادث نفسه: «بعض الأمور من الأفضل حتى عدم التفكير فيها.»

فتح عينيه جيداً، و اعتدل فوق المقعد وعاد لمشاهدة الميدان.

-١٩- في البلدة، ليلة الجنازة

كانت روكا كولمبا تتحدث قبل الجنازة، عن قرار عائلة الفاليبي بإقامة الجنازة لخادمتهم. كانوا يتحدثون أيضاً عن المرحومة كما تقتضى الأصول، ولكن لم يكن هناك الكثير ليقال فضلاً عما كان واضحاً للجميع. كانت التعليقات عن حياتها الخاصة محدودة للغاية نظراً لأنها عملت دائماً لدى نفس العائلة، ولم يعط ذلك الفرصة للنميمة اللادعة، على الرغم من أن أحاديث العائلات التي كانت تتردد على عائلة الفاليبي لم تكن تخلو من التلميحات عن المغامرات العاطفية الراقية لاوراتسيو وكانوا يفترضون بسخرية، لا تخلو من شك، في أن نزواته طالت أيضاً الخادمة.

افتراض كان لا يلبث أن يستبعد، حيث كان من المعروف ولع أوراتسيو بالنساء المتزوجات الجميلات والمثقفات.

لم يخب ظن أثرياء روكا كولمبو القليلون، الذين أجهدوا أنفسهم بالذهاب إلى جنازة منولارا في الثالثة ظهراً من يوم الثلاثاء ٢٤ سبتمبر، ليس لتقديم العزاء، ولا تقديراً لعائلة الفاليبي ولكن بدافع من الفضول لهذا الحدث غير المعتاد. فقد رأوا بأعينهم عدم الاكتراث من جانب أبناء الفاليبي لموت الخادمة التي تولت تربيتهم، كما ظهر من تاج الورود الصغير، والجنازة المتواضعة دون مسيرة يتيمات، أو موسيقى، حاولوا تثمين التاج الكبير الذى أرسله أبناء شقيقتها، وتعجبوا من عدم حضور أى منهم لجنازة خالتهم الوحيدة.

إلا إن كانت عائلة الفاليبي قد طلبت منهم صراحة عدم الحضور.

وهكذا اغتنم الحاضرون الفرصة لمشاهدة المشاركين في تشييع الجنازة، وإعادة رواية الواقعة في البيت والنادى والصالونات مضيفين إليها، بخبرة من شاهد الأحداث وعاصرها.

كم كان عدد الحاضرين في كنيسة عذراء الآلام! بغض النظر عن الشيوعيين الذين امتنعوا جميعاً عن حضور الجنازة، فقد شهدت الجنازة كل طبقات وأطياف المجتمع بل يقال أن دون فينشينسو انكونا ربما شرفها بالحضور. للأسف لم يشاهده وجهاً لوجه. وإن لاحظ وجوده القليلون، لكن شائعة حضوره انتشرت في البلدة كلها، فضلاً عن رؤية الأولاد الصغار الذين كانوا يلعبون الكرة أمام مدخل الكنيسة لسيارة ماركة جوليتا سوداء لامعة وصلت إلى الميدان الصغير بعد بداية القداس، وتوقفت بالضبط أمام الباب الرئيسي حيث نزل منها أربعة رجال بصحبة رجل عجوز سمين ضخم، دلفوا إلى الكنيسة ليخرجوا منها بعد ذلك بفترة قليلة بينما كان القسيس لا يزال يتلو القداس، واستقلوا السيارة التي انطلقت بسرعة كبيرة واختفت في لمح البصر.

منذ ذلك اليوم، منذ ظهيرة الثلاثاء، بدأ الناس يتحدثون عن منولارا بحرص، واحترام، وإن كانوا قد سبروا غور حياتها في أدق تفاصيلها، حيث لم يكن هناك الكثير ليقال.

كان الخوف الذي يثيره اسم انكونا في روكا كولمبا، كبيراً لدرجة تجعل الجميع يخفضون أصواتهم عند الحديث، ولا يجروؤن على ذكر اسمه في الأماكن العامة، أيضاً في المحال وفي ملتقى الميادين، من المعروف أن حتى لحوائط البيوت وللأحجار الطريق عيوناً وآذاناً، تنقل الكلام لمن يجب أن يعرفه، ومن الحكمة ألا يحدث ذلك.

كانوا يتعجبون مرة أخرى من نجاح منولارا الكبير، وارتقاها من خادمة إلى امرأة أعمال، فأدارت أملاك عائلة الفالبي وأنقذتهم من الإفلاس وسمحت للعائلة بأكملها أن تستمر في حياة السادة، بينما قنعت بعمل الخادمة التي تتولى كل شؤون المنزل. بالتأكيد اضطروا لقبول تصرفها كصاحبة الأملاك، وتدخّلها في شؤون حياتهم، واحتمال استيلائها على بعض أموالهم، لكنها على الرغم من كل شيء كانت مخلصاً للعائلة، واستضافت بيتها أرملة المحامي وبذا رفعت عبء رعاية الأم عن كاهل الأبناء.

وكان الرأي العام حول منولارا أنها كانت امرأة جاهلة ولكن ذكية قادرة على التصرف، سيئة الطباع، ومتسلطة، كرسّت حياتها كلها لخدمة عائلة الفالبيبي.

كان الأثرياء ينكرون عليهم سماحهم لها بالتدخل في قرارات العائلة بشكل غير مسبوق، وغير مقبول للناس العاديين، ولكن أفراد عائلة الفالبيبي كانوا مختلفين عن الآخرين أيضاً في ذلك: فكانوا مستعدين لبيع أرواحهم للشيطان في سبيل الحياة المريحة وراحة البال.

كان الفقراء ينكرون على منولارا انحيازها لجانب السادة على حساب أبناء طبقتها بما فيهم أبناء شقيقتها لتحصل في النهاية على جناية متواضعة لقاء ما فعلته معهم.

أما تقدير دون فينشينسو انكونا لها فيظل على أية حال من الأمور الغامضة التي ليس لها ما يبرزها، ولكنه أمر، يفضل الفقراء وأبناء الطبقة المتوسطة، بكل حكمة، عدم التوقف أمامه، وتجاوز التفكير فيه.

كان يمكن التحدث بحرية عن هذا الأمر فقط في صالون البارونة تشفيليا، بحضور عدد قليل من الأصدقاء المقربين لإظهار مدى احتقار الطبقات الراقية للمافيا. كان بينهم أشخاص من كاتنيا، ضيوفاً جاءوا خصيصاً لحضور حفل الزواج المزمع إقامته قريباً في بيت فاتسانو، كانوا يروون الحكايات عن الخيانات الزوجية لأوراتسيو، وغلظة ماسيمو ليوني، وغطرسة ليلا، وحياء جاني.

تحدثوا عن الوضع المالي لعائلة الفالبيبي الذي سمح لخادمه أن تقوم بإدارة أملاكهم، وهم من أثروا في القرن السابق لإدارتهم أملاك الأمير برولي. كانوا محظوظين لأن منولارا لم تضاههم في الجشع واشترت من نقودهم فقط بيتاً متواضعاً لها. وهناك العديد من الحالات المماثلة لمن قاموا بإدارة أملاك وحققوا ثروات هائلة من وراء النبلاء والسادة الخاملين لذا كان ما حدث عادلاً بشكل ما، ومن المعتاد عند تدهور أحوال هذه العائلات أن تلقى نهاية مماثلة. ولكن لم يحدث أبداً إدارة الأملاك من قبل امرأة وخاصة خادمة.

كانت قصة عائلة الفاليبي غريبة ومثيرة للدهشة، بسبب علاقة التبعية التي ربطت السادة بالخادمة، وكانت غير منطقية لأنه على الرغم من تمرد الجيل الجديد من العائلة على استمرار هذه العلاقة المريضة، بيد أنهم في الحقيقة استمروا في اعتبار منولارا جزءاً من العائلة لدرجة إعلان نياً وفاتها وتشجيع جنازتها كما لو كانت واحدة من الأقارب المقربين.

من ناحية أخرى كان هناك سر ما في حضور دون فيننشينسو للجنازة، وهو زعيم المافيا المعروف بالمقاطعة، ووالد شخصية مهمة تعيش خارج صقلية، رجل عصرى محترم يساند الحكومة. كان حضوره مثيراً للدهشة والقلق وجديراً بالتأمل. وبعد مناقشات حامية، بقيت نظريتان كلتاهما جريئة وغير مقنعة: الأولى أن دون فيننشينسو هو والد منولارا الحقيقي الذي ورثت عنه الدهاء، أو أنه عشيقها السرى في شبابها. وبذا أصبح دون فيننشينسو انكونا، رجل المافيا، الذي قتل بوحشية دفاعاً عن المافيا، بل قتل أيضاً زوج شقيقته لأنه تحدث أكثر من اللازم، والأب لأربعة أولاد، والكاثوليكي الملتزم، شخص يتبع نزواته، وربما رومانسي، ضحية للمشاعر.

وفي بوابه بناية تشفاليا، كانوا يتحدثون فقط عن الجنازة. لم يبلغ أي منهم سذاجة ووقاحة السادة، وتجراً على التفكير في أن نوروتسا انسيريللو، أو ابنتها كانتا عشيقتين لدون فيننشينسو انكونا. واهتدت الحكمة الشعبية إلى افتراضين: الأول أن منولارا تنتمي إلى المافيا وهو من الأشياء الاستثنائية نظراً لأنها أنثى وفقيرة أو أنها قدمت لدون فيننشينسو خدمة كبيرة، استحققت بها ذلك التقدير بعد موتها. في كل الأحوال سرى بين الحاضرين التبجيل لمنولارا، وإن أراد دون ميليتيللو توضيح أن الراحلة على كل حال كانت شخصية، كريهة، لم تثق بأحد وأنها انتقلت إلى صفوف السادة بعد أن دهست بأقدامها أبناء طبقتها.

-٢٠- الأربعاء ٢٥ سبتمبر ١٩٦٣

لا يزالون يتحدثون عن منولارا على خلاف التوقعات، جاسبري ريسيكو
يسيء معاملة كارميلا انتقاماً من عجرفة منولارا.

في صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من سبتمبر، تكررت أحاديث النميمة
على سمع القليلين الذين لم يعرفوا بها بعد، وقد أضافوا إلى الروايات، وزينوها بعد
ليلة من النوم الهادئ، وإن كانوا يتحدثون بحرص دائماً.

اتفق جميع أهالي بلدة روكا كولمبا سواء ممن يسكنون الطبقات العليا، أو البوابين
على أنه لم يعد هناك ما يمكن مناقشته، أو نقده، أو كشفه حول منولارا والفاليبي،
وقد سئمو الحديث في هذا الموضوع، الذي قتل بحثاً، وقدر له أن ينتهي تماماً من
اليوم التالي. كان من المتوقع أن يشغل خبر حفل الزفاف القريب لابنة موثق العقود
الثرى فاتسانو حيز النميمة الذي يستحقه، إلا أن ذلك لم يحدث.

كانت كارميلا قد قبلت بقلب واجف قرار أهلها بأن تذهب إلى مكتب البريد
لاستلام الخطاب المرسل إلى منولارا، حيث إنها الوحيدة من العائلة التي لا تزال
تعيش ببلدة روكا كولمبا، لذا فهي شخصية معروفة ومحترمة.

وقد ناقشت مع الزوج حتى ساعة متأخرة من الليل، أدق التفاصيل فيما يتعلق
بهذه المهمة: ماذا ارتدى؟ وإذا اتهموني بمخالفة القانون، لأنه ليس قانونياً استلام
خطاب خاص بشخص لا يمت لك بصلة قرابة، علاوة على أنها ميتة، ماذا أفعل؟
هل أذهب مع صديقة؟

فكرت في أن تذهب إلى مكتب البريد في الظهرية مرتدية ثياباً أنيقة وأن تشرح
إلى الموظف أنها فكرت في المرور لاستلام خطابات لأمها السيدة الفاليبي والتي تصل
باسم خادمتها الأمينة كي تتمكن من استلامها.

كانت كارميلا تشعر بالقلق وبأنها مراقبة أثناء ذهابها إلى مكتب البريد. كانت

ساقها ترتجفان، ليس من جراء الكعب العالي، وخطوتها غير الثابتة فوق الطريق المرصوف بالحجارة، كان العرق يسيل من كل جسدها، وتشعر باليأس. نجحت في السيطرة على مشاعرها بإظهار الغطرسة الموروثة عن عائلتها، وأخيراً وصلت إلى مكتب البريد.

كانوا قد ظنوا أن معرفة موظف شبك البريد يموت منولارا، ستكون من الأمور الحتمية.

إلا إنها وجدت موظفة جديدة.

نسيت كارميلا الكلام الذي حفظته تقريباً وفعلت عكس ما كان ينبغي عمله. سألت بصوت متردد إن كانت هناك خطابات باسم الأنسة ماريا روزاليا اينسيريللو. سيدة أنيقة مثلها ترتدى الحلى من الواضح أنها متزوجة، ولن تكون بالطبع الأنسة اينسيريللو.

أدركت الموظفة ذلك فوراً وسألته دون أن تراودها أية شكوك إن كانت تود استلام خطابات بالنيابة عن الغير.

لم يكن، ذلك السؤال مقدمة للرفض من قبل الموظفة، فقد كان من المعتاد أن يذهب أشخاص لمكتب البريد لاستلام خطابات مرسلة إلى أبناء عمومة، أو آباء، أو أبناء، وأعمام دون أى توكيل رسمى منهم فقط استناداً إلى كلمتهم.

تلعثمت كارميلا، ولم تنجح في الرد على ذلك السؤال البسيط. استعادت بشكل عفوى كبريائها العائلي، ردت بعنف ينبىء بتطور الأمر إلى مشاجرة، ارتفع صوتها بالصياح والتهديد للموظفة المسكينة التى ظنت أنها تسببت في رد فعل العميلة على هذا النحو.

اتهمتها كارميلا بالوقاحة، وأنها لا تعرف من هي، ابنة المحامى أوراسيو الفالبيبي. أمرتها بتسليمها كل مراسلات اينسيريللو فوراً، دون إهدار وقتها، لأنها لديها ما تفعله بدلا من الانتظار على شبك البريد وخاصة أنها تسببت في خلق طابور من العملاء.

وردت على سؤال الموظفة عما إذا كانت قريبة لاينسريللو بأن منولارا كانت خادمة لدى عائلة الفاليبي وأنه يحق لها السؤال عن كل البريد العادي والمسجل، والحجوز بالبريد لأن كل مراسلات منولارا في الواقع تخص عائلة الفاليبي وكان يجب على الموظفة إدراك ذلك.

وفي حالة تقاعسها عن تسليم الخطابات، فإنها كارميلا الفاليبي حرم ليوني ستقدم في حقها بشكوى إلى مدير المكتب الذي تعرفه شخصياً.

قررت كارميلا أن تحكى الحقيقة، أمام رفض الموظفة القاطع بتسليم الخطابات.

فقد جاءت بناء على طلب من عائلتها. والدتها السيدة أدريانا الفاليبي كانت تعيش مع خادمتها انيسريللو ببيت الخادمة، التي توفيت منذ يومين بمرض السرطان. والسيدة أدريانا تشعر بالحزن الشديد لفقدها، وليست في حالة تسمح لها بالذهاب إلى مكتب البريد لاستلام المراسلات التي تصل باسم انيسريللو بينما في حقيقة الأمر تخص عائلة الفاليبي.

كان التفسير بسيطاً وكان عليها العودة إلى والدتها بالمراسلات في الصباح.

لم تأت حكاية كارميلا بالنتيجة المطلوبة، فلم تصدق الموظفة روايتها الحقيقية، وازدادت شكوكها وجعلتها تتشدد أكثر وتتمسك بموقفها الأول بل إنها رفضت أن تخبرها عن وجود خطابات باسم الأنتسة الراحلة.

كانت كارميلا تزداد إصراراً، وتكرر نفس الكلمات، وفي النهاية طلبت من الموظفة بنبرة هيسترية أن تخبرها عما إذا كانت هناك على الأقل خطابات محجوزة بالبريد باسم انيسريللو، مهددة بأنها لن تتحرك من أمام الشباك إلا بعد حصولها على هذه المعلومة.

طلبت منها الموظفة الانصراف لأن هناك زحماً من عملاء آخرين ينتظرون دورهم.

عندئذ بدأت كارميلا في توجيه عبارات التهديد للموظفة، مؤكدة هذه المرة أنه لايمكن إن كانت انيسريللو مريضة أو بخير، حية أو ميتة، هناك مسائل عائلية ينبغى

حلها فوراً، لذا يجب أن تخبرها فوراً عن وجود مراسلات لاينسريللو وإلا ستحدث مصائب للجميع. أسقط في يد الموظفة حديثة التعيين، ولم تدر ماذا تفعل.

استدعت زميلة لها لمساعدتها. احتقن وجه كارميلا، وتصلب جسدها وكانت كمن أصيب بالشلل، لم يكن لديها أية نية للانصراف وثبتت في مكانها أمام الشباك. كان الموظفون والعلماء يستمعون إليها بتعجب وضيق من تعطيل الخدمة، وأيضاً بنوع من الفضول والشعور بالتسلية. ومن كان يعرفها تمتع بالمشهد وكان يستمع إليها بنهم.

قرر موظفو مكتب البريد أن الحل الوحيد هو اصطحاب العميلة إلى الزميل الطيب الذي اختار أن يعمل بمكتب شكاوى الجمهور، السيد ريسيكو، وهكذا فعلوا. تطلب الأمر تدخل اثنتين من الموظفات لإقناع كارميلا بالابتعاد عن الشباك، أحاطتا بها، و أمسكتا بذراعيها وهي لا تزال في حالة هياج وأدخلنها إلى المكتب.

دعاها جاسبري للجلوس بالمقعد المقابل لمكتبه وقد سألتها بنبرة في غاية اللطف والأدب:

أية خدمة ياسيديتي؟»

تسللت الموظفتان غامزتين بأعين يقظة وهما تضحكان، كانتا تقدران أسلوب ريسيكو، الزميل الشهيم، الفطن، فضلا عن وسامته. وأثناء ذلك، أمسك جاسبري بورقة وقلم وكتب تاريخ اليوم بعناية.

كانت كارميلا تجلس أمامه وقد باعدت ظهرها عن مسند المقعد، واثنت ساقها بعصبية، مستعدة لتهب واقفه في أية لحظة. أخيراً صمتت.

سألها ريسيكو بصوت عذب عن بياناتها لتحرير محضر الشكوى. أزعج هذا التصرف كارميلا الذي أمرته بعجرفة ألا يكتب شيئاً، استمع إليها بهدوء وأدب، حيث إنها ابنة المحامى اورتسيو الفالبيبي كانت تود فقط استلام مراسلات الخادمة وأضافت أنها تعرف مدير مكتب البريد جيداً وتتوقع أن يتم حل المسألة بسرعة لمصلحة الجميع بمن فيهم السيد ريسيكو.

عندما سمع اسم الفاليبي، لم يصدق ريسيكو هذه الصدفة، فقبل ذلك بدقائق كان مستغرقاً في قراءة جريدة «لاسيشيليا»، وتضايق عندما اقتادت الزميلتان إليه تلك الحمقاء في غرفته. الآن يشعر بتحقق أمنيته في تلقين درس لواحدة من عائلة الفاليبي التي وقعت الآن بين برائته.

كان ريسيكو يمتلك قدرة فطرية على جعل الآخرين يتحدثون بحرية، بكل ما في جعبتهم، ليهاجمهم في الوقت الذي يشعرون فيه بالاطمئنان الكامل، ويقودهم بذلك إلى الإقرار بصحة ما يقوله، ويشكرونه على حسن معاملته على الرغم من إخفاقهم في تقديم شكواهم.

كان ينجح في حل معظم المشكلات والشكاوى ويعطى للعملاء الانطباع بأن هناك من يأخذ شكواهم بجدية ويشكرهم على مساهمتهم في تحسين خدمات مكتب البريد الحكومي. ولم تكن تضره بالطبع جاذبيته.

قرر ريسيكو التظاهر بعدم معرفة أمور عائلة الفاليبي. ترك كارميلا تحكي له ما حدث بشباك البريد متفقاً معها على أن عملاء مكاتب الخدمات الحكومية يجب أن يعاملوا بكل احترام.

استطاع أن يصل إلى ما يريد الوصول إليه، بتوجيه أسئلة بسيطة مشجعة، مستخدماً لغة الإشارة، بسط كفى يديه وثبتهما نحوها، شفتاه مفتوحتان بالكاد عن نصف ابتسامة. كانت المسكينة تكشف له شيئاً، فشيئاً عن السبب الحقيقي وراء سؤالها عن مراسلات أنسريللو. كان ريسيكو ينظر مباشرة إلى عينيها ليرخي جفنيه، متأماً أمام الاتهامات الموجهة إلى الزميلة، ويهز رأسه مصدقاً على حديثها، ويحثها باحترام على الاستمرار في الحديث. أخيراً أقرت البائسة أنهم كانوا ينتظرون خطابات هامة باسم منولارا وأن هذه الخطابات في الغالب تحوى أموالاً، وأنها كانت مستعدة لتزوير توقيع اينسريللو لتمتكن من استلامها فوراً. أضافت كارميلا أنه إن ساعدها ستقدر تصرفه وتذكره بخير عند مديره.

كان صمت جاسبري يشجعها على الاستمرار في الحديث إلا أنها كانت قد تحدثت بشكل كاف. ابتهجت في صمت، وحدثت نفسها «كان يلزم وجودك!» واستقامت

فوق المقعد. بينما كان يشير إليها بالقلم، وكأنه رمح، عَنفها بشدة، واتهمها بالسرقة، وانتحال شخصية أخرى، وتزوير توقيع، ونصب، وشهادة زور، وتزوير بيانات شخصية خاصة بأشخاص آخرين أمام موظف حكومي، وتهديد ومحاولة رشوة لمخالفة واجبات العمل. فضلا عن أنها جرّوت على شكاية موظفة الشباك التي لم تشكك في روايتها، وخطتها لإحكام محاولة النصب والإضرار بمصالح الورثة الشرعيين للراحلة انسيريلو.

ثم نهض بإباء، وأعلمها بوقار أنه سيحرر مذكرة ويرسلها إلى المدير لسببين سيشرحهما لها بالتفصيل.

وعند ذلك توقف ليشاهد رد فعل كارميلا، التي وجمت. كانت تشق وجهها المنتفخ قطرات ضخمة من الدموع.

جلس ريسيكو من جديد، ليسرد أمامها السببين. وقال وهو يهز إبهامه نحوها:

«الأول أننى أتقاضى راتبى من الدولة لخدمة الجمهور، وسيادتك حضرت إلى المكتب لتقديم شكوى لعدم رضائك عن الخدمة التي نقدمها، من حقا أن آخذ شكواك على محمل الجد.

الثاني: أن حضرتك أخبرتنى عن علاقة صداقة تربطك بمديرتنا. وذكر هذه المعلومة بالتأكيد له مبرر، وليس لاتهام المدير بالرشوة أو الإهمال لأنه شخص أمين ومحترم. ربما إذن لتهديدى وفي هذه الحالة يجب أن ألجأ إلى المدير لاتخاذ القرار النهائي:

لو حضرتك محقة في طلبك، ونحن من يرفض إعطاء معلومات وتسليم مراسلات يحق لك استلامها، أم أن حضرتك لصة أو محتالة تحاول الحصول على ما يخص الراحلة ماريا روزاليا انسيريلو.

في رأيى ليس لك أى حق في استلام بريد يخص مواطنا آخر دون توكيل أو تفويض كما ينص القانون، ولانحة مكتب البريد، ونفس الأمر ينطبق على معلومات خاصة بمواطن متوفٍ.»

تغير الوجه الجميل لكارميلا بشكل مخيف:همدت غرة شعرها.. التصقت
خصلاتها الشقراء بوجهتها الغارقة في العرق بشكل سيء، كان ظل الجفون يتساقط
فوق وجنتيها، وكان أحمر الشفاه الذى أطبقت عليه شفيتها بقوة كي لا تنفجر في
البكاء، يسيل مكوناً هالة حول فمها.

كانت كارميلا في لحظة الخطر الداهم تتشبث بكبرياتها: حبست دموعها ورجت
رئيسيكو أن يتركها تنصرف، فهي لم تحسن شرح الأمر، وليس كما فهم منها، أسهبت
في الحديث لأنها حزينة جداً لموت منولارا. ومع عبارة:

«اعتبر أننا لم نتقابل أبداً، وإن كنت أجدك انساناً مهذباً جداً وأتمنى مقابلتك في
ظروف أخرى.» حاولت رسم ابتسامة مصطنعة جذابة على شفيتها المنتفختين بدون
أحمر الشفاه.

رد جاسبرى بقسوه، الرد الذى كرره بفخر أمام زوجته تلك الليلة: سيدتي، سيادتك
تمثلين الشعب الإيطالى الذى يعانى من تسلط هيئات الدولة التى خلقت فقط
لخدمة المواطنين وقد قدمت شكوى مستخدمة حقك كمواطن وسيتم تحقيق
العدالة وأنتوى القيام بواجبي.»

بعد هذا القول، جمع ما كتبه من ملاحظات وباحترام شديد استأذنها:
«اسمحي لى.»

وانصرف تاركاً كارميلا عاجزة عن الكلام. ولكن ليس لفترة طويلة.

٢١- ماسيمو ليوني، يعاقب زوجته على حماقتها

يحكى أنه في ذلك الأربعاء بمكتب بريد روكا كولمبا، اضطروا لاستدعاء الموظفة الحاصلة على شهادة في الإسعاف والمساعدة الطبية، لتهدئة كارميلا ليوني التي أصيبت بنوبة هيسترية حقيقية إلا أنها لم تنجح. لذا قام نائب مدير مكتب البريد الذي تم استدعائه بالاتصال بالزوج ماسيمو ليوني، ليصطحب زوجته خارج مكتب البريد.

ويبدو أن ماسيمو كان ينتظر تلك المكالمة، وصل بالسيارة التي أوقفها أمام المدخل الرئيسي للمبنى، ودلف فوراً للدخول سائراً وراء الموظفين الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. وبمجرد أن رأى كارميلا، أمسك بذراعيها وضغطهما خلف ظهرها بقبضته ثم أجبرها على النهوض من المقعد الذي التصقت به.

أجبر ماسيمو زوجته على السير بدفعها للأمام في ردهات المكتب ممسكاً بذراعيها اللذين قيدهما خلف ظهرها، وقد ضغط عليهما بقوة حمرت لحمها في لمحة بصر. كان ماسيمو يدفعها من الخلف بركبته، وجسدها ينتفض وتجهش بالبكاء إلى أن وصلا إلى صالة المكتب وخرجا من المدخل الرئيسي. وكانت الكلمات الوحيدة التي وجهها ماسيمو لزوجته على حد قول (جمع الموظفين) والمارة المجتمعين حولهم «امش! إلى الأمام! كما لو كان يسوق حماراً»

دفعها أمام الجميع داخل السيارة الرياضية الجميلة، وبمجرد أن جلست اندفعت إلى الأمام وخرج من فمها نهر من القيء الأصفر. كان جرس التليفون يرن، عندما فتح ماسيمو باب شقتهما. كان يمسك بكارميلا من ذراعها تحت إبطها، أحكم قبضته حولها حينما رفع سماعة التليفون، كانت ليلاً قلقة، تنتظر معرفة ما حدث بمكتب البريد في الصباح.

أخبرها ماسيمو أنه لم يكن هناك أية رسائل وأن كارميلا تعاني صداعاً نصفياً وعلى وشك الخلود للنوم. أشار بالانصراف إلى الخادمة ميمما التي كانت قد سارعت إلى التليفون، عند

سماع الجرس، ثم دفع كارميلا داخل غرفة النوم ووارب الباب. انهال عليها في صمت ركلاً ولكنها فوق فخذيها، وصدرها، وظهرها، لن يرى أحد زرقه الجسم في تلك الاجزاء، كان يعرف جيداً كيف يضربها. لم يكن هناك داعٍ لغلغلق باب الغرفة. فالخادمة ميمما لم تكن لتسمع صراخاً أو نحيباً، فقط أنفاس ماسيمو المتلاحقة ووقع الضربات فوق جسد كارميلا التي سقطت مغشياً عليها فوق السجادة. غسل ماسيمو يديه ووصف شعره ثم جلس إلى المائدة. حيث قدمت الخادمة ميمما له الطعام، ميمما الخادمة ببيت ليوني بالتأكيد لن تحكى لأحد ما حدث. بعد الغداء، خرج دون أن يمر بحجرة النوم، لم يشأ أن يأخذ السيارة، لقد كان بحاجة للتنفيس عن غضبه بالمشي. كان يشعر بالاستياء الشديد لتصرف زوجته فلم تلوث فقط السيارة الجديدة من الداخل ولكنها أيضاً تصرفت بشكل قد يسبب فضيحة في البلدة، ومن يدري أية مصائب أخرى. كان يشعر بندم شديد على زواجه منها. تزوجها تحدياً لمعارضة عائلتها للزواج، بقيادة منولارا، وليس طمعاً في دوطة كبيرة كما كان يشاع في البلدة، والآن يندم على زواجه من تلك المرأة التي لا تصلح لشيء. استمر في السير بخطوات واسعة في طرقات البلدة الخاوية ثم راودته رغبة البقاء وحيداً في الهواء الطلق بين الحقول.

حافظ على خطواته الثابتة وقطرات العرق تتساقط منه تحت وهج شمس الخريف الساطعة. دون أن يدري وجد نفسه في طريق المقابر، نفس الطريق الذي سلكه بخطوات وثيدة في اليوم السابق وراء جثمان منولارا شعر برغبة لا تقاوم في الدخول وتحطيم الجذث الذي بنته تلك المرأة بالضبط أمام كنيسة العائلة. كان باب المقابر مغلقاً. وظلت يدها ملتفتين حول الحديد المطروق تحت وهج الشمس. كان الغضب يختلط بالعطش، شعر بالتعب وقرر أن يعود إلى البلدة.

وفي طريق العودة، لاحظ أن نوافذ بيت الدعارة مفتوحة، دخل وبقي إلى ما بعد الظهر، خرج منهكاً ولكن دون إحساس الترف المعتاد، فسألته القوادة إن كانت الأجنبية قد نالت إعجابها، وبعد أن أخذت النقود، قدمت له على استحياء العزاء في وفاة منولارا.

لعن ماسيمو وأضاف: «ربما كانت تقيم علاقات جنسية مع رجال المافيا، لقد

فضحت بعد موثها.»

-٢٢- الأب ارينا يقوم بزيارة التعزية

السيدة الفاليبي ويوبخ ليللا على اقتراحاتها غير المهذبة.

كان الأب أرينا يُكن مودة للسيدة الفاليبي. كانت قد تحملت بكبرياء صامت خيانات المحامى أوراتسيو، الذى ورث شهوانية والده ولكن بدلاً من مخالطة العاهرات، كان يفضل إغواء سيدات من عائلات طيبة ومعروفة بالبلدة والمقاطعة. ظلت زوجة وفيه صابرة بخلاف حماتها التى كانت تحتقر زوجها علناً وأفرغت رغباتها القليلة فى التسلية المتاحة لسيدة من طبقتها فى زيارات الصديقات، ولعب الورق وكانت سعيدة بترك العناية بالبيت لمنولارا التى خدمتها بنفس الإخلاص والتفانى الذى خدمت بهما حماتها.

لم تكن تؤذى أحداً كما لم تقم بأى عمل طيب. كان يقال عنها فقط إنها تنفق ببذخ على شراء الملابس: وهذه خطيئة صغيرة فى نظر الأب ارينا، فضلاً عن أنها أثناء شبابها متعت بجمالها رجالاً كثيرين، وهو واحد منهم دون أن تقودهم إلى الخطيئة. كانت على أية حال، سيدة محترمة مثل سيدات أخريات وقد كشفت عن أنها غير تقليدية بشكل أدهش الجميع، عندما أقدمت لمرة واحدة على القيام بتصرف غير معتاد بالنسبة لسيدة مثلها، عندما تركت بيت عائلة الفاليبي بعد موت الزوج لتقيم ببيت منولارا.

فى ساعة مبكرة، كما يليق بقسيس يؤدى واجب العزاء، دق الأب أرينا جرس الباب الكبير لمنزل الفاليبي. حتى وقت قريب إلى وفاة أوراتسيو، كان هناك دائماً أحد ببوابة البيت.

انتابت الأب ارينا هواجس حزينة حول مستقبل السيدة أدريانا بعد ترملها للمرة الثانية، وكان يأمل ألا يكون الأمر عسيراً بالنسبة لها وأن تستطيع التكيف مع الحياة وحيدة فى ذلك البيت الواسع الحزين وألا يتركها الأبناء وأن يعتنوا بها.

كانت ليلاً قد فتحت له البوابة واعتذرت عن تأخرها واصطحبته إلى الطابق العلوي. كانت درجات سلم من الحجر الأحمر تؤدي إلى بسطة سلم تضيئه كوة من الزجاج متعدد الألوان تطل على الفناء الداخلي، وبسطة أخرى كانت تصل إلى الطابق العلوي حيث يقع بابان من خشب الجوز الخالص: الأول كان المدخل الرئيسي للبيت والآخر كانت تفضي إلى مكتب المحامي، ثلاث غرف واسعة مفروشة فرشاً جميلاً كما يليق بمن يدير أملاك الأمراء بريولي. كانت ليلاً تسبق القسيس أثناء صعود السلم ووقفت أمام النافذة الزجاجية لتنتظره. كانت أشعة الشمس تتخلل الزجاج وتضيء شعرها الفاتح: كانت تشبه أمها كثيراً في شبابها، وطابت نفس الأب أرينا كثيراً عند ذكرى أديانا الجميلة اللطيفة وتذكرها عندما كانت عروسة شابة.

قالت له ليلاً:

«أبتاه، أريد أن أتحدث مع سيادتك دقيقة على انفراد، أعلم أنك كنت تقابل منولارا كثيراً في الشهور الأخيرة. كما تعلم أعطى أبي لمنولارا حرية كبيرة في التصرف وفي النهاية كانت تدير كل أملاكنا. وعند موت أبي لم يتم توزيع كل الميراث علينا واحتراماً لرغبة أُمي التي كانت تحب منولارا وتضعف تجاهها، سكتنا عن ذلك.»

كان الأب أرينا ينظر إليها وأمام نبرة صوتها الحاد الواثق، أدرك أنها تشبه أمها فقط في الشكل. وأثناء ذلك كان يحاول أن يفهم ماذا تريد منه؟ القسيس المسكين.

أضفت ليلاً وقد كشفت أخيراً عن نواياها:

«ينبغي أن أعود سريعاً إلى روما، لذا أحاول أن أعرف دون إبطاء ماذا فعلت بثروتنا وأين خبأتها. أعتقد أن لدى سيادتك بعض المعلومات، فقد كنت تكتب لها الخطابات في الماضي وظللت دائماً أباهما الروحي.»

ظل الأب أرينا واقفاً ينظر إليها وقد شعر بالإهانة من طلبها غير المتوقع. لاحظت ليللا ضيقه وأدركت أنها أخطأت وصححت كلامها: «من المؤكد أنه إذا حظينا بمساعدتكم، سنحفظ لكم هذا الجميل وعندما تتحسن الأمور أضمن لكم شخصياً أننا سنعبر عن امتناننا عملياً، ثم أضفت مترددة أمام صمت القسيس الطويل: «سيكون مبلغاً كبيراً يمكن أن يساعد، وحضرتك الآن في المعاش».

رد الأب أرينا بغضب متلعثماً وبلغة إيطالية أنيقة:

«حضرتك تعيشين منذ سنوات طويلة بالخارج، وربما قد نسيت أشياء كثيرة، ولكن من المستحيل نسيان أن قسيساً لا يمكنه أبداً أن يخون أسرار الاعتراف في كل العالم الكاثوليكي. لقد شرفنتي منولارا بصداقتها وكان معروفاً للجميع أنني كنت أكتب لها الخطابات. وقد جهزت لها مسودة ما تركته لكم وأعلمت أبناء شقيقتها بوفاتها وأستطيع أن أعطيك عناوينهم إن أردت، ليس لدى ما أقوله لك. وبالنسبة لعرض الأموال، إن كنت قد فهمت جيداً، فاني أشكرك ولكنني لست في تلك الحالة من العوز التي تجعلني أبيع كرامتي ومبادئ. وبالنسبة لك، يجب أن تخجلي من تصرفك الذي لا يليق بسيدة تنتمي إلى عائلة الفالبيبي.» أشاح بنظرة بعيداً عنها واستمر في ارتقاء السلم قائلاً: «الآن لنصعد، قد جئت لزيارة والدتك».

استقبلت السيدة الفالبيبي الأب أرينا بالترحيب المعهود وشكرته لأنه ظل بجوار منولارا في أيامها الأخيرة. وتبادلا ذكريات الماضي. كانت السيدة تتذكر: «كانت عنيده، يا أبت، هل تذكر كم مرة شجعتها سيادتكم على الكتابة ولكنها لم تشأ أبداً التعلم رغم أن حماقي كانت تذكر أنها كانت تعرف القراءة والكتابة ثم اتجهت إلى ليللا وأضافت: «ربما لا تعلمين ولكن الجدة أرادت لها التعلم فبعد موت والدتها، عانت منولارا كثيراً ولم تعد تتحدث. ففكرت الجدة أنها ربما تجد سলوی فی قراءة الصلوات وأرادت أن يعلمها الأب أرينا القراءة والكتابة».

أضاف الأب أرينا وقد حمسته الذكرى: « كنت قسيساً شاباً وكانت السيدة ليلاً تخمرني بعطفها. كنت آتى إلى البيت لإقامة قداس يوم الجمعة، وأستمع إلى اعترافات أهل المنزل وأبقى لتناول الغداء، وفي الظهر كنت أعطى دروساً لمنولارا، كانت تتعلم بسرعة وكانت تقرأ جيداً، ولكنها لم تكن تعرف اللغة الإيطالية، وقد أهديتها قاموساً إيطالي - صقلي، فح لها عالم الأدب، لا أعتقد أنها كانت تقرأ الكتب الدينية بل أظن أنها لم تقرأها أبداً ولكنها قرأت الكثير من الكتب الأخرى».

وكان المحامى اوراتسيو قد سمح لها باستخدام مكتبته، وكانت بعد استئذان المحامى تعيرني كتباً من الأدب الحديث؛ فكافأنتى على ما قمت به من دروس قليلة منذ سنين مضت.

وعند ذلك، عرضت أدريانا الفاليبي في نوبة سخاء مفاجئ على الأب أرينا عرضاً، قبله بترحاب:

« هل تسمح سيادتك لى بإهدائك بعض الكتب، فهناك الكثير منها التى لا يقرأها أحد، فلتختار ما يحلو لك منها، كنت أود إعطاءها لك بعد موت اوراتسيو، ولكن خشيت أن يسوء ذلك منولارا، فقد كانت تظل حبيسة تلك المكتبة لساعات طويلة فى اليوم وكانت تشعر بالغيرة الشديدة من كل التوافه التى كان اوراتسيو يحتفظ بها، كما تعرف حضرتك».

قالت ليلاً وقد شعرت بحرج القسيس:

« إذا سمحت لى سيادتك، إن كنت تثق فى اختياري، سأذهب فوراً وأحضر بعض الكتب التى ربما تصادف اهتمامك.»

رد القسيس: « شكراً يا سيدتي، الكتب مرتبة حسب الترتيب الأبجدي لاسم المؤلف فقد رتبتهامو بعد رحيل والدك»

انسلت ليلاً من بينهما وتركت العجوزين فى أحاديثهما اللطيفة. ثم عادت بعد قليل ومعها حقيبة مليئة بالكتب. لم يفتح الأب أرينا الحقيبة وإن كان يشعر

بالسعادة فقد كان يشتري الكتب المستعملة ويلتزمها. انصرف الأب بعد أن وعد السيدة الفاليبي بالعودة لزيارتها وتركها هادئة مبتسمة. عندما لحقت بها ليلا بعد توصيل الأب، قالت ادرينا « إنسان طيب».

قالت ليلا في نبرة حانقة: « لا أدري كيف يمكنك قول ذلك « تعلمين جيداً أنه من ساعدها على كتابة الخطاب وعلى إخبار أبناء شقيقتها بوفاتها».

أجابت الأم: « وما الضرر في ذلك، لماذا لم يكن ينبغي له فعل ذلك؟ ثم أردفت: أى كتب أعطيتها له؟»

أجابت بحدة: «أول مجموعة وجدتها، كلها لـ «دانونسيو» وبالمناسبة كانت منو قد وضعها كلها تحت حرف « أ » واضح أن الأب أرينا قد علمها جيداً الحروف الأبجدية.

كان رد فعل السيدة الفاليبي مفاجئاً:

« لقد سببت، كارثة، هذه الكتب تركها أبوك لبييترو فاتا. وقد فكرت في إعطائها له اليوم تحديداً! كانت رغبة واضحة من أبيك بل إنه كررها مرات عديدة قبل موته، ولكن منو كانت قد اعترضت وأخبرتني أنها كانت ستسلمها له. ربما تكون قد نسيت وفي الأسبوع الماضى أوصتني أن أعطى هذه الكتب لبييترو. كيف خطر ببالك إعطاء قسيس كتباً لدانوسيو وهى من الممنوعة بأمر الكنيسة». كانت السيدة الفاليبي تجهش بالبكاء مثل طفلة وتفرك يديها « الآن ماذا يجب أن أفعل، يا لها من مصيبة!»

عند هذه اللحظة، فقدت ليلا أعصابها وصرخت في وجه الأم بأن الكيل قد فاض بها من كل شيء، وكل شخص، وأنها تتشوق للعودة إلى روما. انخرطت السيدة في بكاء يائس. وكانت قد حانت ساعة استقبال الزيارات، فاستعدت الأم والابنة لاستقبال الناس. وهكذا وجدت عائلة لوداتو تشيفليا التى حضرت لتقديم

العزاء السيدة أدريانا الفاليبي في بحر من الدموع منذ أول الزيارة فلم تبد بهذا الانهيار حتى عند موت الزوج. بعد الزيارة كانت البارونة تشيفليا وابنتها قد أعددن تعليقاتهن حول الفاليبي: أدريانا كانت على حافة انهيار عصبي، متألمة، حزينة جداً، ليلا لا تساند الأم أو تساعدنا وكانت تتجنب النظر إليها كما لو كانت غاضبة منها، لم تستطع أن تخفي رغبتها في السفر، وترك البلدة، كانت تتحدث عن الراحلة دون أية مودة، كان من الواضح أنها تريد أن تعلم الجميع أنها تسعى للحصول على معلومات عن الوضع المالي لمنولارا وأنها بقيت في البلدة فقط من أجل هذا.

٢٣- الأربعاء ٢٥ سبتمبر،

ظهيرة من اللقاءات البغيضة لبيتروفاتا

أزعجت زيارتي جيرولامو ميلي، وليلا الفاليبي راحة القيلولة لبيتروفاتا. كان مدير مكتب البريد والذي تعود أصوله إلى مدينة راجوزا، قد اتصل تليفونيا قبل موعد الغداء طالباً تحديد مقابلة معه. لم يكن يعرفه جيداً، وقد اندهش بيترو من طلبه وقابله بمكتبه بشكل رسمي. كان ميلي أبيض البشرة مثل الشمع، ويتحدث بسرعة وينهض باستمرار من مقعده ويسير في الحجرة متجنباً الاقتراب من البلكونة المفتوحة كما لو كان يخشى أن يكون مراقباً. حكى له عن المذكرة التي كتبها موظفه ريسكيو، شاب نشيط ولكن مع الأسف شيوعي وأكثر من ذلك من أولئك المثاليين الشرفاء وكان يقترح إبلاغ الشرطة لأن هناك ما يريبه في تصرفات كارميلا ليوني.

في رأيه عناصر انتهاك القانون متوفرة. ولأن القرار النهائي يعود إلى المدير ميلي فقد قام بجمع بعض المعلومات بشكل متحفظ عن مراسلات انيسريلو. فقد كانت تتسلم مراسلات بالبريد من طرود وخطابات مسجلة بعلم الوصول، بالإضافة إلى طرود عديدة تبدو في ظاهرها مجلات وكتباً من إيطاليا والخارج. كان يعتقد أن تلك الطرود كانت تصل باسمها لتسهيل استلامها بدلا من إزعاج أوراتسيو الفاليبي، ولا يزال بعضها يصل لاشترابات لا تزال سارية أو ربما عروض إعلامية.

وفي السنوات الأخيرة، بعد موت المحامي، كانت تتلقى مراسلات من بنك من مقاطعة لومبارديا، فرع أو مكتب لأحد بنوك زيورخ، من البنوك التي تمتاز بطبقة معينة من العملاء. كان مدير مكتب البريد متأكداً أن هذه المظروفات تضم نقوداً وكانت تصل بشكل منتظم يوم ٢٥ من كل شهر ما عدا شهر سبتمبر كما لو كانت المرأة حدست موعد موتها ونبهتهم...

وهناك أيضاً أمر آخر، كان المدير يكاد يقسم بأن أحداً لم يشعر بتحرياته ولكنه أخطأ. فموظف بالمكتب عين عن طريق المافيا من أولئك الذين لا يمكن المساس

بهم أو الاقتراب منهم. حضر إلى مكتبه ونصحه ألا يهتم بمراسلات انيسيرللو، فلن تصل أية خطابات أخرى. كان التحذير الأول الذي تلقاه منذ عمله في روكا كولمبا وكان يشعر بالخوف.

هناك أيضاً أمر حساس يريد أن يناقشه.. فيما يبدو فإن ماسيمو ليوني مثقل بالديون وله علاقة بأرباب السوابق فضلاً عن أنه عنيف، فظ الطباع وقد تورط أكثر من مرة في مشاجرات. كانت الموظفات قلقات على كارميلا ويخشين أن يؤذيها زوجها أثناء نوبة الغضب التي حاول أن يكتمها إلا أنها كانت ظاهرة في ذلك الصباح.

شعر بأن من الواجب والضروري إخبار بيتروفاتا بذلك، وطلب مشورته حيث إنه صديق وقريب لعائلة الفاليبي فضلاً عن أنه شخص محترم لحكمته وتصرفاته الرصينة في كل روكا كولمبا.

لم يخذله الرئيس فاتا، وطلب منه ألا يفعل شيئاً وينتظر.

أكد له ثقته التامة في حسن تصرفه وشكره بحرارة على حضوره ولجونه اليه. اتفقا على تبادل المعلومات عن تطورات الموقف (فكر الرئيس.. « ما لم يطلب الرجل نقله فإنه يكاد يتغوط في سرواله من شدة الخوف»)

عاد فاتا إلى المكتب آملاً أن يرتاح أخيراً، إلا أن زوجته دخلت بوجه مقطب، قلق لتعلمه بأن ليللا الفاليبي في الصالون تريد أن تخبره بأمر عاجل.

لم يكن قد قابلها منذ عام، كانت أفضل الإخوة الثلاثة: ذكية، حاسمة، وأنيقة. روت له ليللا عن الوصايا التي تركتها منولارا بالنسبة لجنازتها وكان واضحاً أن ذلك لم يكن هدف الزيارة. طلب منها فاتا أن تدخل فوراً في صلب الموضوع شرحت ليللا الأمر، جادة كعادتها وحذفت بعض التفاصيل التي شعرت بأنها محرجة: « بعد موت أبي، أرادت منو أن تستمر في إدارة الأملاك التي ورثتها إلا أننا رفضنا وأعتقد

أنها قررت ترك الخدمة لإغاظتنا وأجبرت أمي على قبول الإقامة غير اللائقة في بيتها. ومن الواضح أنها كانت تدير أملاكاً أخرى لم تشكل جزءاً من الميراث، ربما لتجنب دفع الضرائب، أعتقد أنها ربما استثمارات لأموال سائلة أو أسهم. لم تشأ أن نخبرنا عن الحسابات البنكية أو عن الأشخاص الذين يتولون مراجعة تلك الاستثمارات كانت تدفع لنا الفوائد في يوم ٢٥ من كل شهر، حيث كانت الأموال تصل بالبريد. كنا ننتظر معلومات بشأن ذلك عن طريق موثق العقود فاتسانو كما حدث للميراث أو عن طريق أحد المختصين أو شخص من ثقافة منولارا كي نستطيع الحصول على هذه الأموال، ولكن أحداً لا يعلم شيئاً عنها. حاولت كارميلا أن تعرف شيئاً فذهبت إلى مكتب البريد، ولكن يبدو أن الموظفين رفضوا تسليمها المراسلات الخاصة بمنو.. أعلم أنها كانت تلجأ إليك بعد موت أبي لتسألك النصيحة. هل تعلم شيئاً قد يفيدنا؟ أعرف أن الأب أرينا قد ساعدها في كتابة الخطابات، ولكنه أخبرني بالقليل، ربما معك يمكنه التحدث بحرية أكبر. ماذا تقترح؟»

تنفس بيترو فاتا الصعداء. فقد خشي أن تحكى له ليلا عن عنف ماسيمو ليوني مع كارميلا. قد بالغ ذلك المدير الأحمق. نصحتها باللجوء إلى مهنين آخرين بالمقاطعة يقدرهم وكانت تربطهم بمنولارا علاقات عمل وأضاف « في الحقيقة تفاجئيني بقصة وجود أموال للفاليبي تحت سيطرة منولارا حسب علمي، قد أطلعتكم على كل شيء. كانت دقيقة وأمينه لو كنت في مكانكم، لاتبعت تعليماتها بدقة.»

تنهدت بعمق وقد تكدرت عيناها الفاتحتان، ردت ليلا:

« علينا أن نطيع أوامرنا أيضاً؟» ونهضت لتعود إلى المنزل.

- لحظة، أين كارميلا؟

توقفت ليلا وأجابت الإجابة المعدة سلفاً:

«ماسيمو أخبرنا أنها أصيبت بصداع نصفي وبقيت بالمنزل.»

قال لها فاتا بنبرة أمرة:

- «اسمحي لي أن أنصحك، اذهبي إلى أختك واسألها ماذا حدث بالضبط بمكتب البريد.»

فهمت ليلا وعادت لتجلس، حكّت عن عنف ماسيمو وعن مشاكله المالية. منذ شهر يناير الماضي، ومنولارا تسدد نفقات كارميلا للدائنين مباشرة. بالطبع كانت تعلم وضعهم المالي. لم تكن ليلا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله لحماية أختها، جاني لم يكن لديه الشجاعة ليتحدث مع ذبابة، من يستطيع مواجهة ماسيمو؟ ونصحها بيترو فاتا بما اقترحه على مدير البريد:

«أن ننتظر وتنتبه لما حولها.»

-٢٤- الرئيس فاتا يتأمل

قضى الزوجان فاتا ما تبقى من فترة ما بعد الظهر معاً في صالون السيدة، حدث آثار دهشة لوتشيا عندما دخلت إليهما، فقد انزعجت مارجريتا بشدة لما حكته ليلاً وخشيت على سلامة كارميلا واستمرت في التطريز، بينما كانت تتنهد.

كان بيترو يجلس بجانبها فوق المقعد، يفكر، وكل حين يتبادلان بعض الكلمات المليئة بالمعاني فقط لمن قضيا حياة طويلة معاً:

«أواه

بالضبط!

حقاً يا لها من دنيا!

يالها من حياة. «عالم مختلف» «أشياء تفقد العقل».

كان زواجهما هادئاً ودوداً، إلا أن بيترو لم يشعر أبداً بمشاعر حب جارف تجاه زوجته الطيبة. ظلّ زوجاً وفاقاً لها لخوفه من فقد سمعته كرجل محترم، والتي كان يحرص عليها مثل حرصه على التناغم الخفى للبيت. كان كل منهما يحترم الآخر، وكوّنا معاً عائلة جميلة وكان يشعر بالامتنان الكبير لزوجته لذلك. كانت مارجريتا تبكي في صمت. هدا بيترو من روعها ووعدتها بأن كل الأمور ستسير على ما يرام، بناتا أوراتسيو تتصرفان بشكل مسرحي. هدأت الزوجة ومسحت بيدها فوق وجهه. أخذ يديها وطبع فوقها قبلة طويلة، كان واثقاً أنه عند موته ستسير الأمور بشكل مختلف.

بقي وحده أخيراً، استعاد هدوءه وتناول القهوة، الفنجان الأخير في اليوم ولجأ إلى مكتبه. هناك كان يحتفظ بمجموعة للتسرية، مجموعة سرية من الكتب القديمة

والحديثة كتب إبيروتية وبورنو، كان يحتفظ بها في الأرفف المزدوجة التي صممها مع أوراسيو. كانت تلك الكتب متعته الصامتة الوحيدة، فقد جرب القليل من المغامرات الحقيقية في شبابه، ولم يمر بأية مغامرة بعد الزواج.

أما صديقه الحميم أوراسيو والذي كان بمثابة أخ له، فلم يكن لديه هذه المشكلات. على الرغم من أن والديه أجبراه على ممارسة مهنة المحاماة، فكان يمارسها بشكل متقطع، وبعدم اهتمام لدرجة أنه عندما قرر أن يكف عن ممارستها، لم يلحظ ذلك إلا قليلون في البلدة.

وقد قبل الزواج من أديانا مانجارشينا إرضاء لوالديه، كما فعل بيترو عندما تزوج من ابنة العم، ولكن زواج أوراسيو لم يجعله يتخلى عن أو يقلل من اهتمامه بالنساء وولعه بهن والذي ارتبط عنده بهواية الصيد. كان يتحلى بروح الدعاية الكبيرة وكان يؤكد أنه يركز طاقاته على زيادة عدد الرجال ذوى القرون وتحسين النسل بروكاكولومبا التي يغلب عليها الزواج بين الأقارب. وكان أوراسيو يحسن التصرف في تلك الأحوال، فلم يكن فقط عشيقاً حقيقياً محترماً ولكنه استطاع أيضاً أن يحتفظ بعلاقات مودة سرية مع معظم السيدات المتزوجات، بطلات مغامراته الغاطفية.

لم تكن هناك أسرار بين الاثنين، كان أوراسيو يحكى لبيترو عن نسائه وكانا يخططان معا للاستيلاء على قلب المرأة، من المغالزة إلى الإغراء. كان بيترو يشارك بثقافته الواسعة الراقية، كان كما لو كان يعيش معه تلك القصص من شدة تلاحمهما وغزارة التفاصيل والأحاسيس التي كان صديقه يحكيها له. كان أوراسيو أيضاً رجل ثقافة ومتعدد الاهتمامات. نشأ مدلاً من أمه وتعود أن تلبى كل نزواته وأن يكون دائماً محط الأنظار والاهتمام.

وبفضل العلاقة مع أمراء برولي، كانت عائلة الفالبي تتردد على الطبقة الارستقراطية التي كانت تقضى الإجازة في الجبل وكان أوراسيو محبوباً ومقدراً

نظراً لمنطقه الذكي واللطيف وثقافته المنتقاة. بالإضافة إلى أنه كان يحب الموسيقى وخاصة الأوبرا، وكان يهوى جمع الأشياء النادرة. كان يكرس وقتاً قصيراً وبكثافة لجمع ما يثير حماسه، ثم يتركه لمشروع جديد كما كان يفعل مع النساء منفقاً أمواله وميراثه. لم يكن يهتم بأملكه ولا بعائلته، ولولا حسن إدارة الأم ومن بعدها منولارا لكانوا أفلسوا وضاعت أموالهم مثل كثيرين غيرهم.

يبدو أنه يموت منولارا، سينفرط عقد العائلة وتطفو فوق السطح حماقة أفرادها. أمسك بيترو فاتا بكتاب ونسى روكا كولمبا والعالم بأسره.

-٢٥- ماسيمو ليوني يتصالح مع زوجته
ويتلقى تحذيراً والعائلة تأخذ قراراً مهماً

كانت كارميلا ليوني تترقد في سريرها في أول ما بعد ظهيرة يوم الأربعاء ٢٥ سبتمبر ١٩٦٣، متألّمة ولكن مسرورة بزيارة شقيقتها غير المتوقعة. فليلا التي كان يقاتلها الفضول لمعرفة ما حدث في مكتب البريد، أسرع بالذهاب بعد الغداء مباشرة إلى بيت أختها، بينما كانت أمها تأخذ قسطاً من راحة القيلولة.

وفي البيت وجدت كارميلا فوق الأرض فاقدة الوعي تقريباً، استدعت بسرعة الطبيب منيدكو الذي شخّص الحالة بكسور في العضلات وسحجات في أماكن متفرقة من جسدها. وأوصى بالراحة لمدة أسبوع على الأقل، بقيت الأختان وحدهما، بكت الشقيقتان معاً وتحدثتا طويلاً، وعلى الرغم من كآبة اللقاء إلا أنه قرب بينهما.

وكانت العلاقة بينهما منذ زواج ليللا قد أصبحت فاترة ورسمية؛ فكان زواجهما مختلفي الطباع بشكل كبير، وليلا كانت تشعر بالخجل من الملامح الريفية التي اكتسبتها كارميلا أو ببساطة احتفظت بها. وللمرة الأولى تحدثت معها كارميلا بصراحة عن الوضع المالي شديد التدهور لماسيمو وعن عنفه وأضافت أنها على الرغم من كل شيء تحبه وتحتاج إليه، وتتمنى البقاء في البيت وألا يعلم أحد بما حدث ولا حتى جاني. ثم استغرقت في النوم خائفة القوي. أيقظها الزوج.

وكانت الخادمة قد أخبرته بزيارات بعد الظهر، ودخل الغرفة متردداً. أشارت إليه كارميلا بالجلوس على حافة السرير واعتذرت له لأنها لم تستطع إخفاء الأمر عن ليللا. همهمت وقالت باكية: « حضرت دون سابق انذار.» نكس ماسيمو رأسه وغطاها بذراعيه، رفع كوعيه فوق رأسه، غرز ذقنه في الجزء السفلي من عنقه، وتشبثت يدها بقفاه، وأجهش معها بالبكاء.

سألها كاسراً الصمت: « ماذا حدث؟ »

كانت كارميلا قد رسمت خطة أثناء غفوتها. إذا سألت الأم، سيخبرها بأنهما تشاجرا ولكن الأمور انتهت على خير. وأن مظهرها غير المهندم يعود إلى حزنها على وفاة منولارا. لن يتحدثا عما حدث بمكتب البريد، وقررا أن يتناولوا العشاء ببيت الغاليبي كي لا يثيرا الشكوك.

ساعد ماسيمو كارميلا على الاغتسال وارتداء ملابسها بحب شديد.

وعندما ارتديا ملابسهما، ذهب لياخذ العربة والتي ركنها في المكان المعتاد. بدت له السيارة من بعيد منخفضة عن المعتاد، فكر أنه ربما كان هو الآخر متعباً وأن نظره بدأ يضعف، اقترب أكثر من السيارة كان قد ركنها في اتجاه الحائط في شارع ضيق خلف البيت في الظهيرة بعد أن أخذها إلى الغسيل وكانت في هيئة ممتازة، الآن الإطارات فارغة من الهواء وبها قطع طويل وغائر. دار حول السيارة في صمت وقد شعر بالخوف، لاحظته عجوز يقطن في بدروم بالزقاق المقابل، كان يجلس أمام مسكنه بوجه مكرمش دون أن تبدو عليه أية تغييرات، صامت تماماً ولم يكن الوضع يسمح بأن يسأل عن أية معلومات، فتح ماسيمو باب السيارة وأخذ الورقة الموضوعة فوق المقعد: «لا تتحدث كثيراً والتزم بشئونك» وجدها مكتوبة بالحروف الكبيرة.

وعلى عكس المتوقع، لم تنفعل كارميلا عند رؤية هذا المشهد واكتفت بقولها: نحن مراقبون وذهبا فوراً إلى أمها بسيارتها الصغيرة.

تناولوا جميعاً طعام العشاء بحجرة الطعام الكبيرة، كان ماسيمو قد تناول الطعام مرات قليلة بمنزل الحمويين كي يتجنب مقابلة منولارا. كانت أصونه الأطباق وأدوات المائدة الضخمة ذات الألوان الغامقة الملتصقة بالحوائط، تبدو خيالات عملاقة مخيفة كلها آذان، كانت وأدوات المائدة من أطباق وكؤوس موضوعة في العارضات الزجاجية تهتز مصدرة صوتاً كلما مر أحد بالقرب منها، والضوء الضعيف للمصابيح ذات الفولت المنخفض كان يخلق جوا مليئاً بالظلال السائلة.

كان يشتم رائحة زنخة تنبعث من الحجرات غير المسكونة، كما لو كان شبح يشعر بالإهانة يسكن البيت، يريد أن يعاقب الحاضرين أو يحذرهم. أكلوا قليلاً، ودون شهية. ناقشوا الموقف أثناء تناول العشاء. كان جاني يشعر بالاضطراب وعدم القدرة على التفكير أو اتخاذ أية مبادرة. كانت الأم تفكر فقط في مشاكلها الصحية، فقد أجهدتها زيارات بعد الظهر لدرجة أنها لم تدرك أن كارميلا كانت تسير بصعوبة. كانت ليلاً محبطة، ولكنهم كان يجب عليهم أن يتخذوا قراراً.

التحذير الذي وجهه إلى ماسيمو كما ظن الجميع حدث نتيجة ذهاب كارميلا إلى مكتب البريد ولم يشأ أى منهم أن يتوقف عند تفاصيله. من الواضح أن منو كانت لها علاقات بأشخاص من المافيا، من المحتمل أنها قد أعطت تعليمات لإهانتهم أكثر. كانت تلك طريقتهما في الانتقام منهم لأنهم لم يسمحوا لها بالاستمرار في إدارة ممتلكاتهم بعد وفاة الوالد. كان الأبناء الثلاثة مقتنعين تماماً بذلك ولكن لخطرستهم، لم يجرؤ أى منهم على اقتراح ما كان واضحاً، جلياً للجميع، ألا وهو ضرورة إطاعة أوامرهما وإعادة كتابة الإعلان.

تحدث ماسيمو: «لايهمنى أن يسخر منا الناس، ولكنى لا أريد أن تتمزق إطارات سيارتكم أو يحدث ما هو أسوأ. ليس أمامنا إلا تصحيح إعلانات الحائط ووضع النعي كما أعدته تلك المرأة، كما كتبته وفورا. اتفقوا جميعاً على ذلك.»

-٢٦- تحليل الموقف بمنزل ريسيكو

بعد العشاء، نزع الفيرا فنجان القهوة الفارغ من يد زوجها وسألته: «ما الشيء الهام الذى قد تحتويه خطابات خادمة؟». كانت الفيرا تريد أن تعرف ما يحدث. بدأ جاسبرى الحديث قائلاً:

« ماسيمو ليوني، شخص سيء، عاطل، زير نساء» ثم أضاف: « يُقال أنه قام باغتصاب غسالة في شبابه. ابن وحيد لتاجر أخشاب صغير وقد دفع بشركة أبيه إلى حافة الإفلاس في أعوام قليلة. وقد أنقذ الشركة زوج أخته الذى عينه بوظيفة وهمية بها. كان زواجه بكارميلا الفاليبى ضربة حظ كبيرة بالنسبة له. يشاع في البلد أن اينسريللو كانت تعتبره غير كفء لكارميلا ولم تشأ أبداً الاختلاط به ومعرفته، وقد تزوجا أثناء الصيف بينما كانت اينسريللو تقضى الإجازة مع أبناء شقيقتها. ماسيمو يخون زوجته باستمرار وأكثر من ذلك يضرها.»

قال متكدرًا ومصححاً من نبرة الأسلوب التأديبى الذى يحدث به الفيرا « لا ينبغي ضرب النساء، يقال أن أباه كان يوسعه ضرباً ولكن ما دخل ذلك بضر زوجته..» وبقى في مكانه، مستسلماً كما لو لم يعد قادراً على التصديق.

ومن ناحيتها، كانت الفيرا لديها أخبار جديدة مثيرة: ففي الظهيرة دخلت الأنسة ارتو إلى المكتبة لتحكى للسيدة بيكوريللا أن إحدى زبائنها قد روت أنهم مزقوا إطارات سيارة ليوني الجديدة. وأيضاً هذا الصباح تحدثت السيدة بيكوريللا في حذر مع الأب أرينا عن شخص مهم ظهر في الجنازة ولم تجرؤ على ذكر اسمه وقد خفض القسيس بصره موافقاً على كلامها.

وخمنت الفيرا: «قد تكون للمافيا علاقة بالموضوع؟» لم يكن جاسبرى يود الحديث عن قساوسة أو عن رجال المافيا. وقال مستعيداً نبرة صوته المعتادة:

«لنحلل الموضوع بشكل منطقي كما شرحت لك حتى موت اينسيريللو، لم يكن هناك ما يريب في تصرفات الفاليبي وليوني، على الرغم من غرابة الموقف. الأحداث اليومية بها ما يثير الريبة، هناك شيء لا أفهمه. كانت اينسيريللو تتلقى طرودًا، مجلات وخطابات تتسلمها من مكتب البريد، يمكن فهم هذا في إطار الواجبات التي كانت تضطلع بها، وكسل وخمول أفراد عائلة الفاليبي الذين كانوا لا يرهقون أنفسهم حتى باستلام المراسلات الخاصة بهم، ولكن وصول الخطابات استمر بعد وفاة المحامي الفاليبي وهذا الشيء لا أستطيع تفسيره. كانت كتبًا ومجلات باهظة الثمن من مجلات بورنو، فنون وآثار. من يمكنه قراءة تلك الكتب والجرائد، إن استثنينا اينسيريللو نصف الأمة، فمن غير المحتمل أن تكون السيدة الفاليبي، السيدة البرجوازية التافهة ذات الذكاء المحدود حسب رواية من يعرفها، والتي بالتأكيد ليس لديها اهتمام بالآثار.. إذن من؟ هل استمرت الاشتراكات بسبب الإهمال والكسل وكانت الطرود تظل مغلقة؟ أشك نظرا لتقدير عائلة الفاليبي.»

تدخلت الفيرا في الحديث وهي تنكمش تحت ذراع الزوج:

« وإن كانت المرأتان تقرأن هذه الكتب بصوت عال كما نفعل نحن؟ في جميع الأحوال، كانتا تعيشان في نفس المنزل وليالي الشتاء طويلة... همس جاسبرا مداعباً خصلات شعرها: «علاقة سحاقية..»

اعترضت: «ماذا تقول؟ بين العجوزتين!»

رد جاسبرا وهو يعذبها بنزع خصلة من شعرها: «القصة تأخذ منعطفًا جديدًا ومبعدًا بزيارة كارميلا ليوني لمكتب البريد. كانت اينسيريللو تستلم خطابًا مسجلًا يوم ٢٥ من كل شهر. أتذكر أنها اشتكت ذات مرة لتأخر وصول الخطاب يوماً واحداً فقط عن مواعده وقد دونت اسم الراسل، وهو بنك وانتظر تحريات من زميل.

لكن الخطاب لم يصل اليوم، هناك من ينتظر ذلك الخطاب ويحتاجه، لذا كانت كارميلا تهدد وتتوعد وكانت خائفة جدًا. ماذا تحوى هذه الخطابات؟ وما الذى يهدد عائلة الفاليبي؟ ولماذا؟»

استقامت الفيرا، حررت رأسها من يد الزوج ورفعت كتفها كما لو كانت تريد أن تقول إنها لا تدرى كيف تجيب.

قال لها جاسبري:

«ثم عنصر المافيا؟ كيف يمكن تفسيره؟ الأمر غامض. الفيرا، لنذهب للنوم ولتر ما سيحدث غدًا.» همست وهى تطفئ المصباح: «من يدرى ربما يصل الخطاب متأخرًا عن موعده.»

٢٧- الزوجان فاتا يتحدثان

كان من المعروف في بيت فاتا، أن الرئيس عندما يغلق باب حجرة مكتبه، لا يحب أن يزعجه أحد. كانت قاعدة، تكسرهما دائماً الحفيدة الصغيرة ريتا التي كان الجد يسمح لها بكل ما تريد. وكانت مارجريتا فاتا تحرص على اتباع واحترام عادات الزوج الثابتة، ولكن في تلك الليلة بعد عودتها من زيارة التعزية لأدرينا، اتجهت مباشرة إلى مكتبه، دقت الباب دون تردد وجلست بجوار المدفأة فوق مقعد الفوتيه المقابل للزوج الذي كان يقرأ ويستمتع إلى الموسيقى الكلاسيكية.

سأل بيترو وهو يرفع نظره من الكتاب ويغلقه ببطء:

«مارجريتا ماذا حدث؟»

كانت رواية ايروتيكية، الأخيرة التي سلمتها له منولارا، المستلم البريء لمنشورات دار نشر خاصة، وكانت تحمل له الكتب طاعة واحتراماً لأوامر اورتسيو حتى بعد وفاته. قالت له الزوجة باستحياء:

«أريد أن أخبرك بمطلب لأدرينا وأحدثك عن زيارتي لبيت الفاليسي كما سألتني: كان البيت مليئاً بالأشخاص، الكثير منهم جاء بدافع الفضول ثم للنميمة بعد ذلك ولكن أدرينا في حاجة للصحة، فهي تقريباً وخيدة.. كارميلا غائبة وليلا قاسية مع أمها. أدرينا لا تشعر بالراحة في بيتها، وتحن إلى أيام إقامتها ببيت منو، كانت قد اعتادت عليها وكان لديها كل ما تحتاجه من الراحة. وأثناء الزيارة أخذتني إلى حجرة نومها لتخبرني بشيء على انفراد.

لن تصدق، فكل ما كانت تريد حكايته هو أنه هذا الصباح زارها الأب أرينا لتقديم العزاء وقد أهدته ليلا كتباً من مكتبة أوراتسيو.»

قوس بيترو حاجبيه كما يفعل عادة عندما يشعر بالفضول: الأمر يتعلق بكتب.

استمرت زوجته في الحديث:

« قالت لي أدرينا أن ليلا ذهبت إلى مكتب اورتسيو وأخذت كل كتب دانونسيو ووضعتها في كيس وأهدتها للأب أرينا. كانت أدرينا المسكينة تبكي، كانت تبدو لي واهنة محطمة الأعصاب. وعلى أية حال، يبدو أن اورتسيو كان قد أوصاها بإعطاء هذه الكتب لك بعد وفاته. ولم تسمح لها منو بذلك لأنها كانت تريد الاحتفاظ بالمكتبة كاملة. وكالعادة أطاعتها أدرينا. يظهر أنها كانت الأمنية الأخيرة لاورتسيو. أكنت تعلم شيئاً عن ذلك؟»

أجاب بيترو متردداً: « لا، لا، لم أكن انتظر أية هدية منه فقد كان سخياً معي أثناء حياته»

«أدرينا جعلتني أعدها أن أخبرك بأنها ترغب في أن نتحدث أنت مع الأب أرينا وتطلب منه إعطاءك هذه الكتب وستسمح له باختيار كتب أخرى، لأن تلك الكتب كانت مخصصة لك.»

قال الزوج: «يجب أن أتذكر التحدث مع الأب أرينا في هذا الشأن عندما أراه.»
- «لا، ادرايانا كانت تلح بشدة، ترغب في أن نتحدث معه في أقرب فرصة. الأب أرينا يعيش في الريف ويحضر إلى البلدة مرات قليلة.. من فضلك افعل ما تطلبه منك المسكينة، يكفى ما يشغلها من أفكار.»

أراد بيترو فاتا تغيير الحديث، كانت زوجته تثير أعصابه وسأل:

«ماذا يقال أيضاً؟»

«يبدو أن دون فينشينسو انكونا حضر الجنازة، رآه قليلون ولكن الشائعة سرت وانتشرت.»

كان حضور العجوز القوي، زعيم المافيا لجنازة خادمه من أخبار النميمة التي لم تكن تهم فاتا على الإطلاق وقال: « ربما كانت منولار على صلة به ولكني لا أفهم لماذا يتكلف عناء حضور جنازة خادمه، قد يكون قد فعل ذلك احتراماً لعائلة الفاليبي.»

نهبته مارجرىتا: «ولكنه لم يحضر جنازة أوراسيو.»

لم يرد الزوج وقد زاد إلحاح زوجته من شعوره بالتوتر.

استمرت الزوجة في قص ما حدث مطمئنة إلى المهمة التي أسندت إليها:

«كانت الأنتستان أروتسا تتحدثان في محل الخردوات الحديث عن كارميلا وماسيمو. الجميع يعلم ما حدث، الناس تتحدث كثيرًا. بالإضافة يقال أن إطارات سيارة ماسيمو، قد مزقها مجهولون، هذا الشاب على علاقة بأشخاص مشبوهين. ماريا جوزيه سليتو، والتي تشبه أمها كثيرًا البارونة تشفاليا تطلق أحاديث النميمة باستمرار، كانت تحكى أنه بعد أن أوسع زوجته ضرباً ذهب إلى مكان سيء السمعة.»

ابتسم بيترو، وتضرج وجه زوجته بالحمرة، وكانت متحرجة لم تكن تستطيع نطق كلمة «بيت دعارة» وقالت للجميع أن منولارا، كانت واحدة من هؤلاء. ابتسم بيترو مرة أخرى، ربما كانت مارجرىتا من شدة براءتها لا تعرف كلمة عاهرة. «وربما كانت على علاقة برجال المافيا، لم أسأل، كان يبدو لي الأمر شديد السوء، ولكن قل لي يا بيترو من يكون قد أخبر ماريا جوزيه بكل تلك المعلومات.»

أجاب الزوج بصبر واستسلام.. لسذاجة الزوجة التي تقربها من الغيباء:

«لا أدري، تصرفات المهندس سالفاتورى سليتو، الزوج الخائن لزوجته وغير الملتزم، كانت معروفة للجميع.» أشرك حقيقة، أعلم أنك كنت تفضلين البقاء بالبيت للعب مع الطفلتين بدلاً من الخروج وسماع أحاديث النميمة ولكنه كان أمراً ضرورياً، الآن يجب أن أنتهى من القراءة، لتقابل على العشاء.»

خفض بيترو فاتا عينيه على الكتاب الذى كان يضعه فوق ركبتيه بينما كانت مارجرىتا تنهض من المقعد، أخيراً نجح في إبعادها.

-٢٨- ريتا بارينو تتأمل في الماضي

ريتا بارينو سكوتي، الابنة الوحيدة لموثق العقود بارينو، أرملة، شابة للبروفيسور المعروف سكوتي، أستاذ الأدب الإيطالي بجامعة باليرمو، عادت إلى روكا كولمبا لتعيش مع والديها. امرأة جريئة جذابة، اختارت ألا تتزوج مرة أخرى وكرّست وقتها للفنون وخاصة الموسيقى.

أقامت العديد من العلاقات العاطفية المتزنة، كلها مع رجال متزوجين ومن بينهم اوراتسيو الفاليبي، لم تكن تحاول خطف الرجل من زوجته وكانت مقتنعة أنها تضي سعادة على الحياة الزوجية لعشاقها، وكانت تتأكد من ذلك من خلال استمرار الصداقة بينها وبين الزوجات المخونات، اللاتي كن يترددن على صالونها الموسيقي في الظهيرة وكانهن يشكرنها.

كانت ريتا تحترق أدريانا الفاليبي ومونولارا وكانت تعتبرهما المسئولتين عن النهاية السريعة لقصة حبها مع أوراتسيو، التي كانت دون شك أكثر القصص عمقاً ومرحاً في سنواتها الناضجة.

كان من السهل بالنسبة لهما التمتع بالصحة دون اللجوء إلى الحيل المعتادة، ودون التسبب في أية فضيحة، كانا يتقابلان في الريف في بيت ريتا الريفى بحجة أن اوراتسيو يهتم كثيراً بعلم النباتات وكان يعجبه البقاء في حديقة باريني. كان اوراتسيو عاشقاً كريماً، مفعماً بالحيوية والخيال، يحدّثها قليلاً عن عائلته وكان يبدو أن أدريانا تتقبل مغامرات الزوج وخياناته لها، تقريباً بنوع من الارتياح.

ريتا كانت تشعر بالفضول تجاه شخصية الخادمة السيدة منولارا، في البداية راودتها الشكوك بأن منولارا تحبه سراً، وأن ذلك هو الدافع وراء طاعتها له. فكانت تستطيع التعرف على قطع الخزف القديمة وتعيد ترميمها وكانت تساعده في فهرسة

القطع الأثرية. كان أوراتسيو يسخر من شكوكها، ووضح لها أنه يعرف منولارا منذ دخلت بيتهم للخدمة وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولم تبد أبداً أية غيرة، ولم تطمح إلى ما تعرف جيداً أنه لا يمكن الوصول إليه.

كانت من خدم البيت، تنتمي إليهم لذا كانت مخلصه له ولكل العائلة، كانت تؤدي واجبها فقط.

وقد تأكدت ريتا من ذلك عندما علمت بأن منولارا، أخذت على عاتقها مسئوليات بدلا من اوراتسيو لتترك له الوقت الكافي ليقضيه معها، ربما كانت تخلق لاوراتسيو أسباباً مقنعة للقيام برحلات عمل في إيطاليا، ولم يكن الأمر في الواقع سوى إجازتهما اللذيذة التي يقضيانها معاً.

وكانت منولارا من تترك لها رسائل وهدايا من أوراتسيو بالبوابة، كي لا تثير الشبهات. كانت ريتا ترى منولارا امرأة متعطشة للسلطة نهمة، وطاغية في طاعتها لعائلة الفالبيبي لدرجة أنها أقنعت اوراتسيو وأدريانا بالانضمام إليها في رفضها لزواج كارميلا من ماسيمو ليوني، إنسان تافه وربما لذلك كان مناسباً لابنتهم!

لم تكن تلك العائلة تتخذ قرارات دون موافقة منولارا.

وبعد عودتهما من رحلة سعيدة بشكل خاص، قام بها أوراتسيو بحجة الاشتراك في مؤتمر عن الموسيقى. أراد أوراتسيو دعوة ريتا مع والديها إلى بيته لمشاهدة إناء أيوني مهرب من حفائر «بوسكو ليتوريو» في جيلا. كان حدثاً بيت الفالبيبي. فقد كانت منولارا لا تسمح بإقامة دعوات ليلا بحجة أنها تشعر بالإرهاق ولا يمكنها إقامة موائد، بينما كانت تبذل قصارى جهدها، وتتفنن في تنظيم حفلات في الريف في الصيف، وحفلات الاستقبال المعتادة في الظهيرة التي كانت تقام لصديقات أدريانا.

لم يدع أوراتسيو ريتا أبداً لزيارة مكتبه الذي أعاد ترميمه بنفقات باهظة كان يتباهى بذكرها، ولم يظهر لها مجموعاته. كانت الدعوة تمثل مناسبة عظيمة.

تبادلوا أطراف حديث ممتع على مائدة الطعام، كان الطعام ممتازاً وكانت منولارا تخدمهم كما ينبغي في صمت. بعد الانتهاء من تناول الطعام، دعا أوراتسيو ريتا لزيارة مكتبه بعد تناول القهوة بينما أدريانا. كانت ستصحب والديها إلى الصالون.. وفي تلك اللحظة عادت الخادمة السيدة إلى حجرة الطعام تحمل فناجين القهوة فوق الصينية الفضية، التي ألقت بها فوق المنضدة بجانب أدريانا بغضب شديد أرجف كل الفناجين فوق أطباق البورسلين الصغيرة. قالت منولارا: لن أخدم تلك العاهرة! ثم انصرفت وأغلقت الباب وراء ظهرها. وجموا جميعاً من الدهشة، وأثبتت أدريانا سرعة بديهة فقالت « معذرة لا أدري ما أصابها، لقد احترمتني دائماً ولا أدري لماذا تهينني الآن أمام ضيوفي. صمت أوراتسيو. وحاول الجميع التظاهر بأن شيئاً لم يحدث، وبعد قليل استأذنت عائلة باريني ولم تزر ريتا مكتب أوراتسيو. كانت ريتا واثقة من أن منولارا كانت تعنيها بكلماتها. وتأكدت من ذلك في اليوم التالي عندما أرسل إليها أوراتسيو خطاب وداع!

« حبيبتي ريتا، أدرك أن السعادة العائلية والتي بالنسبة لي مصدر سعادة وحبور، تهددها قصة حينا الغالي، مما يدفعني لاتخاذ قرار صعب. الوداع يا ملهمتي، مع عرفاني الدائم.. اوراتسيو.»

رأته بعد ذلك بأيام قليلة بحفل في عاصمة المقاطعة بصحبة أدريانا. وكانت أدريانا هي من اقتربت منها لتعذر لها عن تصرف الخادمة قائلة « إنها مخلصة جداً.. ولكنها تتجاوز حدودها في بعض الأحيان.. كانت لديها بعض المشاكل.. ويبدو أنها غضبت مني، أشعر بالخجل والأسف جداً، أسالك المعذرة مرة أخرى» ظل أوراتسيو بجوار زوجته صامتاً لا يبدو عليه أى تعبير.

كرهت ريتا أدريانا، شخصية مزيفة عديمة المشاعر لم تكن تلك الزوجة التافهة، كما كان يصفها أوراتسيو الغبي، بل كانت حية تتمتع في المدينة بسمعة امرأة فاضلة، لقب لا تستحقه. أما بالنسبة لمنولارا، فقد أخطأت أيضاً في فهمها فكانت امرأة تدافع عن منطقة نفوذها. لم تكن لتتنازل عن السلطة دون مقاومة. وغالباً

خشيت أن ينتهى الأمر بانفصال الزوجين مما يدمر مكانتها ببيت الفاليبى، المكانة التى لم تكن لتحفظ بها إلا والعائلة متحدة، لذا انحازت إلى الزوجة ومعها مارستا تسلطهما على أوراسيو الضعيف.

ومنذ ذلك الوقت طرأ على اوراسيو تغيير جذري، كان يظهر فقط في الاحتفاليات الموسيقية وليس في الحفلات... كان يخرج مع عدد محدود من الأصدقاء الرجال وكان يحبس نفسه بالبيت، يكرس كل وقته لهواية اقتناء وجمع التحف.

كان يشاع بالبلدة أن تصرفه هذا كان سببه المرض الذى أدى إلى وفاته بعد ذلك بأعوام قليلة.

عندما تزلت أدريانا، اختارت أن تعيش مع منولارا ببيتها، ريتا فهتت أخيراً لعبتهما. لم تكن أدريانا تعجب بالرجال كثيراً ويبدو أن الخادمة كانت ترضى رغبات سيدتها لتحقيق مصلحتها أو لهوى في نفسها. لم يكن لدى ريتا أى شك أن المرأتين ارتبطتا بعلاقة سحاقية من قبل وكان ذلك حل اللغز.

كانتا تظهريان بمظهر ضحيتين لأوراسيو: الأولى ضحية خياناته الزوجية، والثانية للمسئوليات التى أنقل كاهلها بها، وهما في الواقع قد أخرجتاه من الحياة العائلية وكانتا تعيشان في علاقة تكافل شاذة.

كانت المسكينتان تخشيان أن يدمر أوراسيو وريتا تلك العلاقة الخفية بقصر الفاليبى. الفتاتان الشريرتان، لو كانتا تعلمان أنها على الرغم من حبها لأوراسيو لم تكن لتضحى بحريتها أبداً من أجل رجل.

أخفت ريتا عن الآخرين نظريتها والاحتقار الشديد الذى تكنه لهاتين المرأتين. الآن بعد موت منولارا كانت تشمئز من سماع عبارات المدح والثناء عليها وأن يتحدث عنها الناس باحترام وإعجاب. كانت تود البحث في ماضيها لتكتشف اهتماماتها الخاصة. وكانت لتفعل نفس الشيء عند موت أدريانا.

٢٩- الصالون الموسيقي في بيت باريني بعد الظهيرة لم يستمعوا إلى الموسيقى وإنما تحدثوا عن منولار

كانت صالونات باريني تزدهم ليس فقط بالسيدات، وإنما أيضاً بأزواجهن وهي ظاهرة غير مألوفة. كان الرجال في الغالب يصطحبون زوجاتهم ثم يعودون لأخذهن بعد الظهيرة عند نهاية الصالون الموسيقي، حدث جديد في المناسبات الاجتماعية، ابتدعته ريتا باريني التي كانت لا تزال تحتفظ بلقب عائلتها.

كانت السيدات يحاولن الالتزام بالقواعد المنظمة لهذه اللقاءات ولكنهن لم يكن يستطعن. لم يكن الرجال يبدون أية نية في الانصراف فضلاً عن أن كل الضيوف لم يكونوا يهتمون بالموسيقى. كانوا يتجمعون في حلقات لمجموعات صغيرة أو كبيرة حسب أهمية الأخبار وما تحويه من نميمة عن أحداث غير عادية حدثت بمنزل الفاليبي.

كانوا يشبهون طفيليات الأميبا، التي تذوب ثم تتشكل عند استشعار أول فرصة للنميمة اللاذعة أو الأحاديث المشابهة للنميمة. على الرغم من أن الأحداث المروية لم تكن مسلية، بيد أنها كانت تتمتع بروح المرح، فقد كان أهالي روكاكولومبا يشعرون بجفاء يصل إلى حد البغض تجاه عائلة الفاليبي التي استغلت إدارتها لأملاك أمراء بريولي، لتحقيق ثروة باقتناء إقطاعات بأسعار زهيدة، ثم تعالت عليهم.

كانت متعة النميمة المتأصلة فيهم تتغلب على متعة الاستماع إلى موسيقى «فاجنر»، التي أصبحت مجرد خلفية موسيقية لأحاديثهم. لمح البعض كارميلا ليوني تهبط من السيارة في الظهيرة أمام بيتها وهي ترتعش وتتحرك بصعوبة وقد لوثها القيء. كان ماسيمو يسندها وقد سندها إلى باب البيت بوجه غاضب. ماذا حدث لها؟

البارونة تشفاليا التي نادراً ما تزور صالونات البلدة والتي تظاهرت في بادئ الأمر بالترفع عن رواية مثل تلك الحكايات السيئة، الآن تتباهى أمام جمع غفير بأنها عرفت من مصادر موثوق بها أن ماسيمو ليوني ضرب زوجته كارميلا، وقد

وجد بها الطبيب منديكو بعض الكسور في الضلوع، أغفلت البارونة ذكر «المصدر الموثوق به» ألا وهو بوابة بيتها انزا ميلتيللو التي عرفت بتلك الأخبار عن طريق زوج الكواء بيت ميندكو والتي بدورها، نجحت في معرفتها باستراق السمع على حديث الطبيب منديكو و أخته السيدة دي برما، وحكت كل شيء لزوجها عندما ذهب ليصطحبها إلى البيت.

قالت السيدة ميمى بوماريتو متعجبة وقد ألهت دون قصد بقية الضيوف عن البارونة: «منولارا كانت مثل كاسندرا في التنبؤ بالمستقبل! فقد تنبأت بكل ذلك، لقد حكمت خادمتي لى أنها كانت ضد زواج كارميلا لأنها كانت تعلم بعنف ماسيمو ليوني حتى مع أمه التي صفعها، كانت محقه في رفضها له!

كانت منولارا تود فقط الخير لعائلة الفاليبي لو كانوا استمعوا إليها....»

الضيوف وقد سحرتهم هذه المعلومة، أهملوا توجيه أسئلة أخرى إلى البارونة. شعرت البارونة بالإهانة ولم تشأ الشاء على تعليق المدرسة بوماريتو، سيدة من أصول متواضعة كانت تعتقد بسذاجة أنها تستطيع تثقيف نفسها بالتردد على صالونات بعد الظهرية ببيت بارينو تلك الصالونات التي يتم تنظيمها كما يعلم الجميع لاستعراض فضيات موثق العقود وليس حباً في الموسيقى.

حرصت البارونة على سلب النصر المبالغت الذي حققته بوماريتو وقالت بازدراء: «لا يجب تصديق ما يقوله الحثالة، والخدم وما يقررون إخبارنا به فليسوا أهلاً للثقة. بالتأكيد ماسيمو ليوني كسر ثلاثة ضلوع لكارميلا المسكينة ولكن لم يكن لخادمة أن تستغل الثقة التي منحها إياها الفاليبي وتتدخل في أمر زواج ابنة سادتها، فهذا قرار رب الأسرة، اوراتسيو ولكن كما هو معروف كان ضعيف الشخصية أمام بعض النساء وكان القرار النهائي دائماً للخادمة.»

بعد أن أحست البارونة بالسعادة وقد أصابت هدفين بعبارة رصينة، نظرت بسرعة إلى ميمى بوماريتو التي تضرع وجهها بالحمرة بعد أن شعرت بالتحرج

منصاعة للدرس الذى لفتته لها البارونة فى الذكاء الاجتماعى والرقي، ثم صوبت عينها إلى وجه ريتا بارينو عشيقة سالفاتورى سيلنتيو زوج ابنتها منذ فترة قصيرة، والسبب فى الشقاق والألم بيت الابنة ماريا جوزيه.

استمروا فى اغتياب عائلة الفاليبي، والتحدث عن غطرستهم، وضعف الرجال بدء من النهم الجنسى للمحامى جاني.

رمت البارونة قبل انصرافها، بسهمها الأخير مباشرة نحو ريتا: « من المعروف أنه فى العائلات التى يكون الرجال فيها ضعاف الشخصية، فإن خادمة مثل منولارا يمكنها أن تصبح السيدة الآمرة. فى الحقيقة اوراتسيو عاش دائماً تحت سيطرة أمه ومن بعدها منولارا، على الأقل منولارا أنقذت العائلة وحافظت على وضعها الاجتماعى وكانت مخلصة وأمينة، ولم تأكله حيا كما فعلت صديقاته اللاتي حصلن على هدايا ورحلات كما يقال! ومرة أخرى جذبت البارونة الاهتمام إليها، شحب وجه ريتا بشكل واضح ونظرت إليها نظرة نارية ردت عليها البارونة بنصف ابتسامة مستمتعة بضيقها، وانصرفت إلى مجموعة أخرى من الضيوف.»

هنا المدعوون أصحاب البيت على نجاح الظهيرة الموسيقية، وعندما بقيت ريتا وحدها مع والديها، شكت من صداع شديد وذهبت إلى غرفتها.

ذهبت الأم إلى المطبخ لترى إن كانت الخادما قد غسلن وجففن كل أدوات المائدة الفضية ثم لتعد أدوات الطعام وتضعها بدولاب الحائط وتغلقه بالمفتاح.

بقى موثى العقود بارينو وحده.. فقد لاحظ الإهانات التى لحقت بابنته من كلام البارونة اللادع وكان يفكر فى طريقة للانتقام منها، بينما كان يتمشى فى الردهة بخطوات واسعة ثقيلة ورأسه منكس ويداه معقودتان بعصبية خلف ظهره ولم يلاحظ نظرات الخدم التى كانت تتسلى بمشاهدته وتدهش لحركاته وكى ينسى ما حدث، ذهب إلى النادي.

-٣٠- الرجال يتحدثون عن الاعمال في نادى عن أرتيا دى إيطاليا

كسب بيتروسانساردوا، السمسار الذى أصبح حديثاً صاحب شركة إنشاءات، مباراة البوكر وكان يقدم الشراب لزملائه الخاسرين. وكانوا محاطين بأعضاء آخرين يثرثرون حول مصائب عائلة الفاليبي.

كان المحامى العجوز ايتورى مانسيللو يصرح بثقة وبشكل مسرحى أن ريسيكو، شخص سىء من الشيوعيين، قد قدم بالفعل بلاغاً ضد كارميلا، وأن أركان الاتهام متوفرة: سيؤدى ذلك إلى الدمار الحقيقى لسمعة العائلة.

«أفراد عائلة الفاليبي مجانيين، عم يبحثون في مراسلات تلك الخادمة؟ نحن أتراب اوراتسيو نعلم جميعاً أنه كان يطلب بعض المجلات الإباحية من باريس باشتراك خمس سنوات، يدفعها مقدماً، ويرسل منولارا إلى مكتب البريد لاستلامها وتسليمها إلى منزل فاتا من خوفه أن تكتشف المرحومة والدته الأمر. كان يمكن لكارميلا أن تتسلم تلك المجلات إذا كان الاشتراك لا يزال سارياً، أتمنى أن أصبح ذبابة لأرى وجوه أبناء الفاليبي عند فتح تلك الخطابات الحقيقية، إن الأبناء لم يقنعوا بالميراث الذى تركه لهم المسكين اوراتسيو ولم يثقوا بإدارة منولارا لأملاكهم والتى حسب ما شاهدت كانت أمينة.»

شرب كأسه الصغير من الخمر، واستأذن قائلاً «أراكم بعد قليل ثم نهض تاركاً المنضدة ومنتجها إلى صالة أخرى من النادي.»

بيترو سناساردا كان صديقاً لعائلة ليوني، لذا كان يدافع عن تصرف عائلة الفاليبي: «منولارا كانت لا تزال تدير ممتلكات الدوطة لأدريانا الفاليبي والأبناء محقين في سعيهم لمعرفة إن كانت ممتلكات العائلة ستؤول إليهم وليس لأبناء شقيقة منولارا. وإن كانت كارميلا قد تصرفت بتهور في مكتب البريد، فتصرفها له ما يبرره.. كم

القلق والأفكار التي تدور برأسها جعلها تبالغ، هكذا النساء، ضعيفات عقل، يحدث للكثيرات. ولكن زوجة ماسيمو ليوني كانت محقة في الذهاب إلى مكتب البريد وفي السؤال والتحري. فقد كانت تلك الخادمة تتصرف في ممتلكات العائلة، وإن كانت الآن في رحمة الله، فهي لم تعطهم كل نصيبهم وإلا فسروا لي كيف تأتى لها امتلاك شقة واستضافة سيدتها مجاناً. كانت ابنة فقراء معدمين وتعيش بمرتب خادمة ونعلم جميعاً أن آل الفاليبي لم يتميزوا أبداً بالكرم مع من يعملون لديهم، قال ذلك وهو ينظر حوله ثم.. عصر كتفيه وبسط ذراعيه وأردف:

أيها السادة: « على هذا النحو والحساب غير صحيح»

قال موثق العقود فينشينسو:

« بيترو، لقد نسيت قصة بيع الأراضي ببوليرى لقد حصلت منولارا على نسبتها الخمسة بالمائة وهي النسبة التي تستحقها كوسيط في البيع. فقد نصحت الأخوان الفاليبي بعدم البيع وبالاتظار لمدة عام. وقد كسب « اوراتسيو وفيشينسو كثيراً جداً بعد اتباع نصيحتها ففي خلال العام، تحولت هكتارات كثيرة من الأراضي الزراعية في بوليرى إلى أراضى بناء. بعد ذلك أسند أوراتسيو إدارة كل أملاكه إليها. على عكس فيشينسو الذي ركب الغرور ولم يشأ ترك الأمر لها وتشاجر مع أخيه، فلولا منولارا، لباع الأخوان تلك الأرض التي أصبحت ذهباً للعائلة فيما بعد فقد كتبت عقود البيع والتقسيم وأعرف جيداً.»

لم يكن سانساردا مقتنعاً: « كانت مجرد خادمة وبعض المعلومات لا يمكن أن تصل إليها، كانت محظوظة. ثم من يجزم بأنهم كانوا غازمين على بيع أرض بوليرى ولم يرغبوا في الانتظار، من يمكنه الوثوق بتصرفات عائلة الفاليبي.»

لم يستسلم فاتسانوا: « أؤكد لك ذلك، كانوا غارقين في الديون وكان فينشينسو الفاليبي في أمس الحاجة إلى النقود، وأوراتسيو كما نعلم جميعاً، كان يجيد فقط إنفاق الأموال. وقد كلفنى الأخوان بكتابة عقد البيع الابتدائي مقابل عشرين مليون

ليرة وهو مبلغ ضخم في الخمسينات. وذات يوم استدعاني أوراتسيو بمنزله. أتذكر جيداً ذلك اللقاء وكانت منولارا حاضرة بالمكتب، كانت تلمع بعض الآنية، التي اشتراها اوراتسيو، فخار قديم كان يضيع أمواله في شرائه، وبقيت منولارا بالحجرة مما بدا لي في غاية الغرابة. أقسم لكم، لم أر أوراتسيو أبداً يتكلم بذلك التصميم والثبات، أخبرني أن البيع لن يتم، وأن عليّ إخبار المشتريين بذلك، لم يكن يريد عروضاً أخرى حتى يضعف الثمن وكانت تلك تراقبه من بعيد بنظرات خاطفة.»

لم يستسلم سانساردا: «ولكن إن كانت بوليري والأراضي حولها تحولت إلى أراضي بناء، فما دخل منولارا بذلك؟ لا يمكن أن تخبرني أنها كان لها دخل في ذلك أو أنه بسبب صداقاتها في البلدية أو المقاطعة؟ كيف تسنى لها أن تعرفي؟ لا أعتقد أنها كانت لديها مصادر تخبرها بذلك ومن هم؟ فكما تعرف زوجاتنا بالأخبار من الخادومات، تفعل الخادومات نفس الشيء مع سيداتهن، ولكن تلك المعلومات لا تعرفها زوجاتنا أو الخدم الآخرون. كانت محظوظة، محظوظة جداً وحصلت على عمولة كبيرة من عائلة الفاليبي في صفقه البيع دون أن تستحق تلك العمولة.»

كان موثق العقود باريني يستمع باهتمام وفي تلك اللحظة تدخل قائلاً:

«تذكروا أن المدينة الجديدة كان ينبغي أن تشيد في الناحية الأخرى من الجبل في «بايامونتي. لم يتوقع أحد أن تشيد في بوليري، لا أحد على الإطلاق. وقد دهشت لذلك وخسرت أموالاً وقد اشترت بالفعل أراضي في بايامونتي وبقيت لزراعة الشعير والأرز.»

قال ابيتروما نسويلا: «تبا لذلك! ليظهر تعاطفه مع الاستثمار المتهور الذي قام به بارينو الذي لم يلتفت إليه واختتم بسرعة: «تلك المرأة كان لديها من يحميها

و ينصحتها جيداً وبالتأكيد ليس الخدم الآخرون.

المهندس بوميثاشي، مستشار المقاطعة وشخصية سياسية بارز من حزب اليمين،
قليل الكلام ومستمتع جيد قال:

« تضيعون وقتكم في التخمين، كانت محظوظة، أحياناً يحدث..»

كان المحامي مانسيللو، قد عاد لتوه من صالة اللعب وانضم إلى المحادثة ضاحكاً:
« محظوظة منولارا ومحظوظ جداً اوراتسيو. عقب تلك الصفقة الموفقة، كان يثق
فيها تماماً ولم تفعل ما يجعله يندم على ذلك، ولم يحدث له ما حدث مع فينشينسو،
الذي باع كل إرثه مقابل أموال قليلة. ففي ديسمبر ١٩٥٠، قبل صدور قانون
الإصلاح الزراعي وكى تتجنب منولارا استقطاع أراضي عائلة الفاليبي، جعلتني أعمل
مثل البغل لحل منازعات قديمة وحديثة لإرث مشترك مع أفراد آخرين من العائلة،
كى يتمكنوا من عمل عقود هبة، وبيع صوري، عقود بيع صحيحة قانونياً، استطاعت
دائماً أن تحتفظ لعائلة الفاليبي بأفضل الأراضي فقد كانت تعرف أراضيهم شبراً، شبراً
مثل خبير. بترارى كان يبيع لأولئك المساكين الفلاحين الذين كانوا يشترون قراريط
قليلة معتقدين أنهم أصبحوا بالفعل أصحاب أرض زراعية وأنهم سينسون عرق
العمل والجوع.»

كان الآخرون يستمعون إليه غير مصدقين، لم يكونوا ليتخيلوا أن منولارا على هذا
القدر من الكفاءة وتحمل المسؤولية.

قال سانسا زدا: «لا أصدق بالتأكيد تخلط بينها وبين أشخاص آخرين.»

كان مانسيللو لا يستسلم بسهولة:

«ماذا تقول؟ أنا عجوز حقاً، ولكن لم أفقد عقلي بعد! فلنسأل أنجلو فاتسانو...
لقد قمت بكتابة العديد من العقود لعائلة الفاليبي في ذلك الوقت هل صحيح ما
أقوله أم لا؟»

أرخبى موثق العقود فاتسانو جفنيه وأخفض رأسه مرتين بوجه غامض ففهم
الجميع.

أشعل حماسه تأكيد انجيلو فاتسانو، واصل إيتوري مانسيللو الكلام بصوت عال: «أوراتسيو كان يعيش حياة عازب خالي البال، كان يكرر ذلك دائماً لي ويسخر من نفسه. كان يقول إن منولارا عفريته في استثمار الأموال كانت تقوم بكل شيء في البيت، في الريف، وفي استثمار الأموال.

كان يضايقه فقط حتمية تدخله في بعض المواقف عندما كان يتعين عليه الحفاظ على المظاهر والتصرف وكأنه من يتخذ القرارات، ففي بعض الأحيان يحتاج الأمر إلى رجل، طبقة معينة من الناس لا تقبل أن تتعامل مع أنثى أمية.» كان يهتم أوراتسيو فقط الحصول على الأموال للتسلية، وشراء أشياء لا فائدة منها. ولإنفاقها على نفسه وعلى النساء، ملايين أنفقها على من يسمين بنات العائلات، أكثر مما كلفته العاهرات!»

قطع مانسيللو حديثه، فقد أدرك وجود جوفاني بارنيو والذي بقي جامداً لم يبد على وجهه أي تعبير، فقد كان رجلاً مترزناً ثم ابتعد عن مجلسهم واقترب من منضدة لعب أخرى عندما تأكدوا أن موثق العقود باينو لم يسمع حديثهم، استمروا في الضحك والسخرية حول نفس الموضوع حتى أن فاتسانو حكى: «أوراتسيو كان يؤكد أن الحياة لا معنى لها دون نساء، والأموال التي تنفقها من أجلهن ليست ضائعة، من سخرية القدر أنه استطاع التمتع بالنساء بفضل عمل خادمة بل وعانس.»

اتخذ، الحديث نبرة لاذعة عن الخدمات الخاصة التي تقوم بها بعض الخادמות الشابات لأسيادها حقاً، أدرف مانسيللو: «يمكن التأكيد أن منولارا قدمت لاوراتسيو ولعائلة الفالبيبي كلها خدمات خاصة بل من نوع نادر، كانت حماراً يخرج نقوداً وفي الحقيقة، لو كانت في الفراش بنفس البراعة التي كانت عليها في أعمال البيت والإدارة لكان أوراتسيو من أسعد الرجال حظاً، ولكن المرء لا يمكنه الحصول على كل شيء في هذه الحياة وكنت أحسده على منولارا.»

قال فاتسانو

«خادمة ماهرة، مخلصه وأمينه لا يوجد مثلها.»

عاد الموثق بارنيو إلى الصالة، كان يتظاهر بمتابعة اللعب بالمنضدة القريبة ولكنه

في الواقع كان منصتا لحديثهم بينما كان يفكر في ابنته الحبيبة وفي الأم الذي سببته لها منولارا. اقترب من المجموعة وقال:

«أنثى تجيد العمل، نعم ولكن أمينة لا أعتقد، بالتأكيد رجل ذو مكانه لن يذهب إلى جنازة خادمة أيا كانت، لجنازة عشيقة ربما.. وبعد أن قال ذلك، استأذن منهم بتحية تصبحون على خير وأدار قدمه وخرج من المنتدى محيياً من يقابله من الأعضاء في الطريق بأدب دون التوقف للحديث معهم كالمعتاد وإنما عاد إلى بيته مباشرة.

بهت الحاضرون من المزحة الصريحة لرجل معروف بالتسامح واللياقة ثم عادوا إلى ثرثرتهم بحبور، وقد شعروا بالحرية في الحديث والنميمة أكثر عن مغامرات ريتا بارينو، تفرع الحديث وتشعب إلى الأحاديث التقليدية المملة ذات التلميحات الصريحة عن مغامرات الأرامل داخل الإطار الأخلاقي واحترام التقاليد وبالطريقة اللائقة. وعن تصرفات بارينو، وتسامح الوالدين معها بشكل تعدي حدود اللياقة الاجتماعية.

وفي ساعة متأخرة، ترك الموثق فاتسانو النادي بصحبة المهندس بومياتشي، وقطعا سويا جزءاً من الطريق سيرا على الأقدام كانا صامتين. وعند مفرق الطريق وعند تحية كل منهما للآخر، قال له بومياتشي: « لو كنت صديقاً لعائلة الفاليبي، لقلت لهم بأن يعتنوا بأمورهم، وألا يفكروا في أشياء قد تجلب لهم المصائب. وإذا كنت صديقاً لبارينو، لنصحته بأن يتحدث قليلا، لقد تحدث كثيرا هذا المساء، وعليه أن يحترس لما يقوله. ونظراً لأنني صديقك ياعزيز انجيلنيو فإنني أقول لك إنه من الأفضل عدم الحديث بالخير أو بالشر عن بعض الرجالين.»

صافحه فاتسانو مصافحة طويلة، ضغط فيها على يده وعاد إلى بيته راضياً بالثقة التي أظهرها له المهندس بومياتشي، الرجل الذي يترقى في السياسة الاقليمية، لذا فهو صديق من المهم الاحتفاظ بصداقته.

خلال الليلة بين الاربعاء ٢٥ الخميس ٢٦ سبتمبر، تعرضت حديقة منزل بارينو الريفى لخسائر كبيرة على يد مجهولين.

شاءت المصادفة أن تكون السيدة ريتا أول من يكتشف ذلك، عندما ذهبت في صباح يوم الخميس الصباح، عندما ذهبت بزهور البصل لزراعتها في الربيع القادم. وجدت تخريباً كاملاً بالحديقة. نباتات وشجيرات اجتزت جذورها، كانت أحواض النباتات قد امتلأت بالقاذورات فقد أزيلت النباتات أولاً بالفأس، بشكل دمر الزهور الجميلة الموجودة بالأحواض ثم غطيت بالحجارة والجبس، تهشمت الآنية الفخارية الجميلة، وجذت النباتات المزدهرة من جذورها ثم هرست بالأقدام، في حين شوهدت ضربات البلطة الأشجار الناضجة وجرحت جذوعها، قلبت التماثيل والمقاعد الحجرية فوق الأرض وقد قطعت رؤوس التماثيل. حوض الحوريات ذو المياه الرائقة الشفافة مصدر فخر ريتا، كان مملوءاً بالوحل الطرى ذي الرائحة الكريهة، الأسماك الصغيرة الملونة طافية فوق الطمي، ميتة.

وذات الأحجام الكبيرة ممزقة البطن متدلّية الأحشاء وقد وضعت بعناية في صف فوق أحجار البراكين التي تمثل مقاعد حول الحوض. أقسم الفلاح، حارس الفيلا بحياة أولاده ورحمة أبيه أنه لا يعلم شيئاً. ففي الليلة السابقة كان قد روى الحديقة وتركها معطّرة، مزدهرة وكأنها الجنة لم يسمع أية ضجة، أو صوت أثناء الليل وهذا ما أكدته أيضاً زوجته وأولاده.

في ذلك الصباح، تغيب عن الحديقة وذهب ليعزق في أرض بعيدة بينما زوجته التي كانت في الغالب تبقى في البيت ذهبت إلى البلدة لزيارة أمها المحتضرة. شاء الحظ العاثر أن يحدث ذلك في أثناء غيابه مع عائلته، حضر أولئك الأوغاد ودمروا الحديقة بهذا الشكل. وهم في أغلب الظن من الأولاد المتشردين الذين يصلون إلى روكا كولمبا بسهولة من الطريق السريع ويتجولون في الأراضي الزراعية، أردف وهو يقلّب كفيه من الحسرة أن أكثر ما يؤلمه أن السيدة ريتا اكتشفت ذلك الدمار قبله ولم يتسع له الوقت لتنظيف الحديقة وإزالة آثار الدمار والأفنان المجترزة، والنباتات المنزوعة، و الأسماك كريهة الرائحة، كي يجنب السيدة ريتا البتى يحبها كثيراً مثل ابنته، الحزن عند رؤية حديقته المحبوبة على هذا النحو.

-٣١- الخميس ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣

الأب ارينا يقابل الرئيس فاتا في الميدان ويتناولان جرانيتا

كان الأب ارينا يخرج من مكتبة بيكوريل و يرتقى الطريق، محملاً بالكتب ويتصبب عرقاً.

هبّت رياح الخريف التي لا تزال حارة، فبعثرت خصلات شعره ولم تنعشه. كان سعيداً بأنه انتهى مما ينبغي عمله سريعاً ليعود إلى الريف في الصباح. كانت رغبته في الرحيل عن روكاكولومبا تستعر ويستشعر لذة قراءة الكتب التي استبدلها بالكتب المهداة له من أدريانا الفاليبي. كان يرى نفسه جالسا في حديقة الصغيرة، وفي الخلفية زهور الخريف، تشكل الخلفية الرائعة ليربح بصره كل حين أثناء القراءة.

هزه صوت الرئيس فاتا قائلاً:

«تحياتنا أب ارينا»

أجاب الأب أرينا

«تحياتي يا حضرة الرئيس

أضاف الأب ارينا بنبهة احترام وحسم لمن لا يتوقع رفض طلبه:

«هل أستطيع دعوة سيادتكم إلى شراب؟»

وجد الأب ارينا نفسه جالسا إلى منضدة ببار إيطاليا بصحبة بيترو فاتا الذي يعرفه منذ سنوات عديدة ولم يكن بينهما أية حميمية، ونحى جانبا أمل اللحاق بحافلة الصباح.

بمجرد ابتعاد النادل بالطلب، شرح بيترو فاتا له سبب الدعوة:

«أعتذر عن طفلي، ولكنني علمت بأن لديكم كتباً لدانونسيو، اختارتها ليلا الفاليبي من مكتبة ارواتسيو. أخبرت أدريانا زوجتي أن ارواتسيو كان يود إعطاء

هذه الكتب لي، بصراحة لا أدري لماذا فهي كتب لكاتب قديم، وقد قرأتها كلها عند صدورها وليس لدى نية إعادة قراءتها. ولكن أدريانا مصممة على ذلك وأريد إرضاءها. هل يزعجكم استبدالها بكتب أخرى؟»

شعر الأب ارينا بالاضطراب. غمغم بكلمات مضطربة، توقفت الجرائيتا بحلقة، وكادت تسيل على ذقنه، أحتاج إلى شرب رشفة مياة، لم يكن في إمكانه إيجاد إجابة تجنيه الخجل من الإفصاح عن أنه قد استبدل هدية السيدة الفاليبي بالكتب الموجودة في الكيس الذي يكاد يغطيه طرف رداؤه الكهنوتي والملقى عند قدميه. خفض عينيه ونظر اليه، وتمنى أن ينحسر في ذلك الكيس، أن يسحق ويتحول إلى ورقة لا يلاحظها أحد ويهرب من مخالاب الرئيس الناعمة.

ظن بيترو فاتا أن القسيس لا يريد التنازل عن هذه الكتب. فقد ارتكب الأب ارينا الكثير من المغامرات أثناء شبابه، ربما كان يود معرفة دانونسيو منذ وقت طويل وطلبه هذا يحرمه من الفرصة الوحيدة للحصول على هذه الكتب بطريقة بريئة.

ضم شفثيه لإخفاء ابتسامة ساخرة، ثم قال: «لايساور سيادتك القلق، لتحفظ بهذه الكتب فهي مهداة لسيادتك. ولكن هل تسمح لي بتصفحها سريعا؟ كان اوراتسيو يدون أحيانا في بعض الكتب بعض الملاحظات على النصوص، أعدك بإعادتها خلال الغد.»

عندئذ رفع بصره بنظرة كلب مطارد، شرح الأب أرينا متلعثما بعزة نفس وتحفظ أنه أيضا لا يعجبه دانونسيو وأن كتب أوراتسيو معروضة للبيع بمكتبة بيكوريليا بقسم الكتب المستعملة.

كان يحب القراءة كثيرا ولكنه لم يكن يستطيع شراء الكتب الجديدة وكانت السيدة بيكوريليا تسمح له باستبدال الكتب التي قرأها بكتب جديدة تعجبه. أضاف بحرج كبير: «انه لا يريد ان يجرح السيدة الفاليبي ويثق في حصافة بيترو فاتا. ابتسما، وقد اتضح الامر وأصبحا شريكين فيه.

كان المحامى مانسيلو قد دخل لتوه إلى البار بصحبة زوجته. وقد لمحهما في تلك اللحظة الهامة، أساء فهم تصرفهما، اقترب من منصتهما وقال بصوت مرح: «أراهن أنكما تتحدثان عن إعلان الوفاة الثاني لمنولارا، إنها حقاً مسرحية!» الأب أرينا وبيترفاتا، رداً في نفس الوقت بالتعبير الشائع بين الصقليين: جعداً جبهتيهما، وزما شفتيهما المغلقتين إلى الخارج قليلاً.

أطلعهما مانسيلو على الموقف: إعلان الحائط تم ترقيعه بإضافة بعض عبارات الثناء البليغة عن منولارا وإعلان وفيات آخر، ظهر في جريدة «جورنال سيشيليا» وضع يديه فوق المنضدة الصغيرة، منتظراً أن يتم دعوته للجلوس معهم، ولكن نداء زوجته أجبره على اللحاق بها وقد شعر الأب أرينا وبيترفاتا بالارتياح لذلك.

بعد أن بقيا وحدهما، شربا في صمت وبرشقات كبيرة بطيئة كل كأس المياه، قال بيترفاتا:

«هناك أشياء ليست على ما يرام بمنزل الفاليبي، أيها الأب، وذلك الأمر يقلقني، أنا أيضاً كنت أشعر بالموودة لمنولارا وأريد أن أتحدث معك عنها، بمنزلي، هذا المكان مزدحم بالناس. هل يمكننى دعوة سيادتك إلى تناول الغداء؟»

كان الأب أرينا يريد الهروب من البلدة، لذا لجأ إلى كذبة، وقال إن لديه بالفعل ارتباطاً ولكنه اضطر للموافقة على زيارة فاتا يوم الاثنين القادم في الرابعة ظهراً.

افترق الرجلان واتخذ الأب أرينا طريقه بقلب واجم مهموم. وتعهد ألا يشتري الجريدة ولم ينضم إلى جمع الفضوليين الذين كانوا يقرأون ويعلقون بصوت عال على التصحيحات الملصقة فوق الإعلان القديم.

وعلى العكس ذهب بيترفاتا مباشرة إلى مكتبة بيكوريلو وهو يأمل ألا يجد في تلك الساعة من النهار، ابنة عم زوجته. إلا أنها كانت هناك، ثرثرة سخيفة كالعادة.

كانا يعلمان أن النفور بينهما متبادل، ولكن في حين كان يحرص على تجنبها كانت روزاليا بيكوريلو تتحين الفرص للدخول معه في أحاديث ومناقشات سخيفة مليئة بالتمليحات.

وعده بأن تجد الكتب بمجرد أن ترتبها الموظفة فقد كانوا في مجموعة من الكتب المستعملة في المخزن. قال بيترو: «أستطيع أن أنتظر، أشرك ونهارك سعيد». وكان على وشك الانصراف. ولكن بيكوريلاً أوقفته بـ «انتظر يا بيترو، ماذا يحدث في بيت أدريانا أسمع أشياءً مقلقة؟.. يبدو الأمر مسرحية هزلية ولكن لا أود أن تتحول إلى تراجيديا.» قريبة زوجته تعامله بقدر من عدم الكلفة، لا تبررها القرابة البعيدة. تضايق بيترو وقال بعصبية «تقرئين كثيراً عن المأسى ليس في الأمر أى ظل للتراجيديا الأمر يتعلق فقط بموت امرأة في منتصف العمر.»

تعجبت وقد شعرت السيدة بيكوريلاً بالإهانة فرفعت صوتها:

«أنت من يقول هذا!... وهل هذا ما حدث أيضاً مع كارميلا والتحذير الذي تلقاه ماسيمو، والرجال ذو المكانة الذين حضروا الجنازة، بل يتحدثون عن شكوك حول وفاة منولارا وتعتقد أنني أبالغ!»

ألقى إليها بيترو فاتاً بنظرة باردة، رفع قبعته وخرج مردداً: «نهارك سعيد مرة أخرى.»

عاد إلى بيته، وقد اختار السلم الذي لا يرتاده الكثيرون كي يتجنب مقابلات أخرى.

التفت السيدة بيكوريلاً نحو الفيرا ريسيكو وقالت لها:

«لا تشغلي بالك بالبحث عن تلك الكتب الآن، يمكنك البحث عنها يوم الاثنين، ذلك المغرور زوج ابنة عمى يمكنه الانتظار، لولا زوجته لما تعامل معه أحد من روكاكولمبا من شدة غطرسته.»

-٣٢- روكا كولمبا متحيرة من إعلانات وفاة منولارا

دهش أهالي روكا كولمبا ولكن ليس لمدة طويلة، عندها أدركوا أن إعلان الحائط عن وفاة ماريا روزاليا انسريللو قد حدث به بعض التصحيحات.

وقد ألصقت أسفل بيانات الراحلة، قصاصة من الورق، كتب فيها: «مديرة أملاك وعاملة بمنزل الفاليبي. بكل الأسى تمنعها عائلة الفاليبي وتعبر رعن خالص الحزن لمصابهم الأليم وخسارتهم الفادحة.» وشريط آخر صغير في أسفل الإعلان: «عاشت بمنزل العائلة الفاليبي منذ سن الثالثة عشرة، خدمت بإخلاص العائلة التي تبيها بحرارة.»

نشر الإعلان أيضاً بجريدة «جورنال دي سيشيليا»، بشكل كامل تضمن أيضاً تاريخ مراسم الجنازة والذي أصبح تاريخاً فائتاً.

ظن القليلون الذين لا يعرفون الفاليبي ومنولارا أن الأمر يتعلق بخادمة محبوبة جداً من سادتها الذين لم يتفقوا على نص النعي بسبب اضطرابهم عند وفاتها، لذا أرادوا تعديله بشكل رسمي وإن بدا غريباً.

أما من كانوا يعرفونهم، ولهم علاقة مباشرة مع عائلة الفاليبي، فكانت دهشتهم مضاعفة.

فلم يتوقعوا نعيًا آخر وإضافة كلمات مدح أخرى إلى الراحلة بعد مشاهدتهم أثناء الجنازة وزيارات العزاء وإنما إعلان تحذف منه بعض كلمات المدح والثناء أي عكس ما حدث.

وكان السؤال الأول الذي طرحه أهل روكا كولمبا: لماذا كل هذه الإعلانات وكان تفسير الأمر في غاية البساطة أبناء الفاليبي أصيبوا بالجنون، وكان السؤال الثاني: ما الذي أفقدهم رشدهم؟

وعن هذا السؤال البسيط المخذد لم ينجحوا في إيجاد إجابة منطقية مقنعة.

وكان رد فعل الأصدقاء والمعارف كما هو متوقع، الذهاب إلى بيت الفاليبي مستغلين العرف الذي يقضى بأن زيارات التعزية فقط يمكن القيام بها دون دعوة وأحيانا دون إخطار. استقبلت أدريانا الفاليبي التعزية بالعرفان والأدب المعهود. كانت تبدو حزينة شاردة تجهش بالبكاء بسهولة وبكثرة. كانت الزيارات متعددة لدرجة أنه لم يتسن لأحد الفرصة لسؤالها عن سبب تكرار إعلانات وفاة منولارا.

في الحقيقة لم يكن لقاء أدريانا الهدف من تلك الزيارات، وإنما مقابلة الأبناء ومحاولة فهم دوافعهم من خلال تصرفاتهم أو من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة الملتوية غير المباشرة التي تُسأل في مثل هذه الظروف.

ويبدو أن الأبناء قد خمنوا ذلك، فجانى عاد مسرعاً إلى كاتنيا، وكارميلا ظلت مع الأم لفترة قصيرة قبل أن تعود إلى البيت لشعورها بصداق نصفى ولكن الجميع كانوا يعلمون أنها لا تزال تعاني من ضرب الزوج.

أما ليلا فقد كانت مشغولة جداً باستقبال، وتوديع الأشخاص العديدين الذين توافقوا على بيتهم ونجحت دائما في تجنب الأسئلة المباشرة عن إعلانات الوفاة إلى أن حضرت ابنتا الخالة أرتوا فجأة في ساعة الغداء.

ماريلا وتاننيا ارتوا عجوزان عانسان ترتبطان بصلة قرابة بعائلة الفاليبي. لم تكونا ثريتين فقد تزوج جدهم من خادمة وبسبب هذه المخالفة للتقاليد حرم من الميراث. كانتا تعيشان من إيراد محل الخردوات الذي تملكانه، وكانتا محبويتين في البلدة لطيبة قلبيهما ولأنهما لا يتحدثان بسوء عن أحد وتساعدان الجميع.

وكانتا تتمتعان بخصلة أخرى محببة في كل البلدة، على الرغم من أنهما لا يتحدثان بسوء عن أحد ولا تحبان النميمة، غير أنهما لا تحفظان أى سر.

كانتا تكررآن كل ما يقال لهما وتحكيان كل ما تشاهدانه. ليس فقط دون مبالغة أو تجميل ولكن أيضا دون أية تعليقات سلبية، كانتا تلغراف البلدة اللاسلكي.

ماريلا طلبت من أدريانا أن تطلعها على تطريز معين، وذهبت المرأتان إلى صالون العمل. بقيت ليلا وحدها مع تانينا أرتوا التي سألتها بصراحتها المعهودة: «يجب أن تخبريني لماذا غيرتم إعلان الوفاة، لقد سألتى الكثيرون عن ذلك في المحل، أريد أن أجيب بالحقيقة وإلا سيظن الناس بكم سوء».

وكانت ليلا قد جهزت مع جاني تفسيراً يقال للناس وانتهزت فرصة عدم وجود كارميلا لإذاعته: «الذى تقرأونه ليس الإعلان بعد تغييره، وإنما هى النسخة الحقيقية لإعلان الوفاة. يؤسفنى قول ذلك ولكن الخطأ، خطأ ماسيمو، فقد عرض أن يقوم بنشر الإعلان الذى أعددناه سوياً. تعلمين جيداً أن أمى كانت متعلقة جداً بمنو وأمام إصرار أمى قمنا بكتابة خبر الوفاة كما أرادت منيو. لست أدرى كيف ولماذا ولكن الإعلانات التى ظهرت يوم الثلاثاء لم تكن كاملة، ماسيمو نسى بعض العبارات، أو ربما لم يقرأ جيداً المسودة التى أعدتها. لا أدرى بالضبط ولكن الحقيقة أن أمى استاءت جداً وقررنا أن إرضاء والدتنا أهم لدينا من انتقادات الناس، أخيراً سيقراً الناس النص الحقيقى الكامل.»

أما ماسيمو وكارميلا فقد حكيا الأمر بطريقة مختلفة بعض الشيء» لا أحد يدرى كيف ولكن سواء عامل الطباعة، أو التحرير بجريدة «جورنال سيشيليا» حذف بعض الكلمات من النص الأسمى وقد اعترض ماسيمو على ذلك، شارحاً الألم الذى سببه الحذف لحماته، لذا قررا تصحيح الإعلان على نفقتهما.»

الآنستان أرتوا بذلتا كل جهدهما لنشر القصة كما حكتها ليلا ولكنهما وجدتا أشخاصاً قليلين مستعدين لتصديقها، أما حكاية ماسيمو وكارميلا، فقد كذبها عامل الطباعة.

-٣٣- ليلا تحاول فهم ما يحدث

تذكر أحداث الماضي وتقتنع بأن منولارا كانت محقة

وفي صباح الخميس ٢٦ سبتمبر تحدثت ليلا مع زوجها محادثة تليفونية طويلة، وكان الزوج غاضبا لنشر الإعلان الثاني بجريدة «جورنال دي سيشيليا». سألتها جان ماريا عن تفسير معقول لما حدث، وكان ذلك مستحيلا لأنه لا يوجد. أجهشت ليلا بالبكاء، وحكت لزوجها عن حضور رئيس المافيا للجنائز، وخذش سيارة ماسيمو، الرسالة التي تحمل بوضوح طابع المافيا والتي ترجعها إلى رفضهم نشر النعي كما أرادته منولارا.

اعترفت بالخوف كما لو كانت منولارا قد تحولت إلى روح شريرة تحلق فوق عائلتها، ولن تهدأ حتى ينفذوا كل أوامرها، كانت مقتنعة أنهم يراقبونها في البلدة، وكانت تخشى على حياتها وحيات ابنتها. أمرها الزوج أن تعود للبيت في اليوم التالي.

التأكد من العودة إلى روما، هدأت من روعها وجعلتها تتحمل بصبر عبء زيارات التعزية. وفي تلك الليلة بعد أن أصبحت وحدها، بدأت في إعداد الحقيبة واستطاعت أن تتأمل بهدوء. لم تكن هناك أية إشارات أو تحذيرات أخرى، وكادت تشعر بالخجل من تصرفها الهستيري في الصباح والذي عزته إلى كرهها لروكاوكولمبا ولعائلتها.

كانت ليلا تعود إلى البلدة بسعادة لزيارات قصيرة، أثناء حياة أبيها، قرار الأم أن تنتقل للعيش بمنزل الخادمة جعلت زياراتها غير محتملة، وكان هذا أيضا بسبب منو، التي ساءت علاقتها بها بعد وفاة والدها.

بدأ الامر عندما مرض أبوها. صمم والديها ومنو على عدم استدعاء ممرضة، وأن تقوم منو بتمريضه. وافق الدكتور ميندكو على هذا الحل ومنو التي كانت قد مرضت أمها من قبل ثم جدتها تحملت هذا العبء وأظهرت أنها ممرضة ممتازة.

كانت ليلا قد عادت إلى روكاوكولمبا قبل موت أبيها بأيام قليلة وسرعان ما شعرت بالتغير في سلوك منولارا، على الرغم من عدم إهمالها لواجباتها، كانت في الغالب

غائبة عن حجرة اوراتسيو خلال النهار، عند وجود أقاربه بجواره وكانت تظل بجواره في الليل، كانت تقول إنها ينبغي أن تراعى الأرض والأعمال الأخرى ولكن حدث أنه عند موت أوراتسيو، كانت منو خارج المنزل، غابت في أشد اللحظات حاجة إليها، وعند عودتها عبرت عن ألمها بشكل متحفظ ثم غرقت في أعمال المنزل والتحضير للجنازة.

وذات ليلة، بعد وفاة أبيها بأيام قليلة، كانت العائلة مجتمعة لتناول طعام العشاء، ماعدا ماسيمو الذي كان خارج البلدة.

لم توافق منو على زواج كارميلا وعندما كان ماسيمو يزور حمويه، كانت منو تحبس نفسها في حجرة الخدم، وكانت ترفض تقديم الطعام في المرات النادرة التي تناول فيها ماسيمو طعام العشاء ببيتهم، تاركة هذه المهمة لسانتا، الخادمة الأخرى. وعلى الرغم من أن ليلا أيضا لم تكن راضية عن هذا الزواج إلا أنها كانت تعتبر تصرف فرض الرأي من جانب منو غير مقبول وأيضا خضوع والديها لها، مسامحتها لها على التصرف بهذا الشكل.

وفي تلك الليلة قامت منو بالخدمة وتقديم الطعام، كما في الأيام الخوالي وفي نهاية العشاء وضعت طبق الفاكهة في منتصف المائدة، ثم أحضرت أحد المقاعد المستندة إلى الحائط وجلست معهم. كانت هذه عاداتها منذ أن بدأت في إدارة أموالهم فكل حين كانت تجلس معهم لمناقشة أحد الأمور الهامة.

«أنا من خدم عائلة الفالبيبي، وعندما دخلت إلى بيتكم، وعدت السيدة ليلا رحمة الله عليها أن أخدم ابنها اوراتسيو طوال العمر وقد حافظت على الوعد وأديت واجبي. الآن أنا متعبة وعظامي تؤلمني، وحان الوقت لأستريح. أخبركم أنني لا أريد الاستمرار في العمل.» رفعت يديها من فوق المائدة ووضعتها فوق مريبتها البيضاء، يداها صغيرتان مشربتان بحمرة الشمس والغريب أنهما رقيقتان خاليتان من أية نتوءات جلدية غليظة.

نظرت بعينها السوداوين إلى كل منهم، توقفت برهة عند كل واحد، دون أن تشي بأى إحساس، بل بقيت ثابتة في انتظار إشارة منهم.

ولم يحدث، فأردفت منو قائلة: «لقد اشترت بيتا بالقرب من هنا من حجرى نوم وقد أثنته بالكامل وبه تدفئة مركزية وتكييف هواء. سأظل بخدمتكم لمدة شهر آخر لأساعدكم في تقسيم ميراث والدكم وإن أردتم يمكنى إدارته لكم دون مقابل ثم سأترك قصر الفاليبى وأذهب إلى بيتي.»

«ماذا تقولين يامتو، أتركين الآن؟» الآن بعد أن رحل أوراتسيو؟» كان صوت أدريانا خافتا، ضعيفا، والدموع تتساقط فوق قشر الفاكهة في طبقها.

قال جاني بنبرة سلطوية في محاولة مزرية لتأكيد دوره الجديد كرب للعائلة:

«لا يبدو لى أن الوقت مناسب للحديث عن تغيرات مفاجئة وكبيرة.»

«بل على العكس، بعد مرور أسبوعين من زيارات التعزية سيعود كل منكم إلى بيته وحياته وسيبقى كل شيء كما كان. ولكن ينبغي أن تدرکوا أن الأوضاع تغيرت بالنسبة لأمكم. هذا البيت واسع جداً، ولا يوجد به تدفئة مركزية ويجب إنفاق أموال طائلة لجعله مريحاً أنا وأمكم نشيخ يوماً، بعد يوم، سيأتى اليوم الذى لن أستطيع خدمتها كما تعودت وكما تستحق.»

صمت الجميع. فقد كانت إجابة منو لا تسمح بالمناقشة.

وعند هذه اللحظة، رفعت الأم عينين مستعظفتين وسألت: «منو، من سيعيش معك؟»

أجابت منو وقد خففت صوتها: «لا أحد، فليست لى عائلة فى روكا كولمبا.»

ردت أدريانا:

«هل أستطيع العيش معك فى بيتك؟ لن أزعجك، أنا لا أستطيع أن أعيش وحدى وأنت تعلمين ذلك.» التفت الأبناء ونظروا إليها دهشين، بينما كانت دموعها تتساقط بغزارة.

بقيت منو جامدة ولكنها لم تتأخر في الرد: «إن وافقتم جميعا، لا مانع عندي، ولكن الشروط ينبغي أن تكون واضحة، سأخدمها كما كنت أفعل دائما في بيتي ولكن جلسات لعب الورق والزيارات ستكون في بيت الفاليبي، سأقوم بتنظيف الصالون وغرف النوم لكم عندما تأتون إلى روكاكولمبا ولكن للنوم والطعام ستظل في بيتي ضيفة مكرمة.»

كانت كارميلا أول من تحدث: «حقيقة لا أفهم ماذا أصابك، يامنو. تقولين ذلك الآن... قد توفي والدي منذ وقت قصير ألا تستطيعين الانتظار لأيام قليلة؟ لم أتحدث مع ماسيمو في ذلك الأمر، أعلم أنك لا تريدين رؤيته ولكنه زوجي، ولا أستطيع اتخاذ قرارات بدونه. يمكن أن تنتقل أُمي لتعيش معي في بيتي، أو ربما يمكن إيجاد حل آخر.»

وانخرطت في البكاء، مخبئة وجهها بفوطة المائدة.

بقي جاني وليليا صامتين، كان يقطع الصمت فقط أنين الأم، ونحيب كارميلا الخافت المكتوم بفوطة المائدة.

ارتفع صوت منو بازدراء: «غبية! وقد خاطبتها بأنت، كما لو كانت لا تزال طفلة» غبية وكنت غبية عندما وافقت على الزواج من صياد الدوطة.

ألا تفهمين أن حلاً مثل هذا، يحفظ ماء وجهه أمام البلدة كلها لأن أمك تستطيع استقباله عندما تريد بقصر الفاليبي؟ يمكنه أيضا النوم في هذا المنزل.»

تحتم على ليليا التدخل: «هل يمكن أن نؤجل هذا النقاش على الأقل إلى مساء الغد؟» أتخيل أن أبي كان يتمنى ألا نصل إلى الشجار، ثم إن أُمي تبكي.»

أجابت منولارا:

«أنتم على حق! للغد إذن، ولكن ليكن واضحا أنني سأعمل لمدة شهر واحد فقط وأنتظر إجابة سريعة.» نهضت منو عند قول ذلك، وبدأت في رفع الأطباق من المائدة في صمت.

وفي تلك الليلة، تشاجر الأبناء للمرة الأولى مشاجرة عنيفة مع أمهم، وقد عرضت كارميلا أن تستضيفها في بيتها، بينما اقترح الآخرون بقاءها بقصر الفالبي والعثور على خادمة أخرى فقد حان الوقت للتخلص من منو التي ستصبح طاغية حقيقة الآن، بعد وفاة الأب الذي كان يمكنه السيطرة عليها. أكدت ليلا لأنها أن زوجها الذي يبغض تدخل منو في شئون العائلة، وطريقتها الفجة في الحديث باللهجة، والألفة الزائدة إزاء العائلة، لن يسمح بأن تعلم ابنته أن جدتها تعيش في بيت الخادمة وغالبًا سيمنعها من اصطحاب الطفلة معها إلى روكا كولمبا. أما أدريانا الفالبي، فقد بدت سعيدة بالذهاب للعيش في بيت منو آيا كان وفي أي وضع ولم تعتبر ذلك التصرف مخزيًا أو شاذًا.

استمر الجدل بين الأم والأبناء في الأيام التالية دون الوصول إلى اتفاق، استمرت منو في العمل في صمت ولم تعد للحديث في ذلك الأمر.

وأثناء ذلك أخبرها الأخوة الثلاثة أنهم سيديرون ميراثهم بأنفسهم دون الحاجة إلى مساعدتها. أجابت بأنهم مخطئون وباستعدادها لمساعدتهم إن احتاجوا إليها.

وهكذا انتقلت في نهاية الشهر السيدة أدريانا للعيش في شقة منو المتواضعة رغم اعتراض جاني وليلا اللذين باعدا بين زيارتهما، ولم تعد ليلا بعد ذلك إلى روكا كولمبا. وأصبحت الجدة ترى حفيدتها فقط في روما عندما تذهب إليها أثناء الصيف. كارميلا على العكس منهما كفت عن الاعتراض على إقامة أمها مع منولارا لأن ذلك كان مريحًا لماسيو الذي خشى من تحمل عبء إقامة حماته معه.

قابل الإخوة الثلاثة، نظرًا لعدم خبرتهم، العديد من المشكلات في إدارة أملاكهم. واضطروا كارهين لطلب المساعدة من منولارا وعندما ساعدتهم في حل مشكلاتهم، كررت عرضها بالإدارة وأمام رفضهم أبلغتهم أنها لن تساعدهم مرة أخرى مما أثار حفيظتهم وأشعرهم بالإهانة. طلبوا من أمهم أن تعفى منو من إدارة أملاكها، إلا إنها رفضت مما وتر العلاقات بينهم.

بعد قداس الذكرى الأولى لموت أبيهم، والتي أقيمت في روكا كولوبا، طلبت منو مقابلتهم على انفراد. وقدمت اقتراحًا أدهشهم:»

إن السيدة ليلا وأباكم رحمة الله عليهما، ليحزنان كثيرًا، لو علما بندرة زيارتكم واتصالاتكم التليفونية لكم: يجب أن تحترموا أمكم أكثر من ذلك.

يؤمنى أن أرى تباعدكم وانصرافكم عن والدتكم وأفهم أن ذلك بسببي، بسبب حريقكم معي. لا أطلب منكم المصالحة لأننى مقتنعة بحسن تصرفي وأنتم أيضًا، وقد تحدثنا في ذلك كثيرًا. ولكن السيدة أدريانا تعيسة، لأنها لا ترى أبناءها كثيرًا ولا يعجبني ذلك. وأود أن نتحدث ليلاً وجانى معها في التليفون أسبوعياً ويزرنها مرة في الشهر بينما تزورها كارميلا أربع مرات شهرياً.

«لقد استثمرت أموالى جيداً ولدي دخل جيد. لذا أعرض عليكم الآن: سأعطى لكل منكم نصف مليون ليرة كل شهر، ولكن يجب أن تحضروا إلى منزلى لتأخذوها، ستكون النقود جاهزة في يوم ٢٥ من كل شهر وإن لم تزوروا أمكم كما اتفقنا، ستفقدون المبالغ.»

قبل الإخوة الثلاثة الاتفاق. وعاشت أدريانا سعيدة بمنزل منو وكان أهل البلدة يمتدحون ليلا، الابنة المحبة التى تزور أمها كل شهر، ولاتتغيب أبداً عن زيارتها.

أقرت ليلا، رغم إهانات منو إلا أنها بشكل عام كانت محقة في القول بعدم خبرتهم في إدارة ميراثهم من أبيهم وفي رفضها لزواج كارميلا. الآن بعد وفاة منولارا، تشعر ليلا بخسارة المبلغ الذى كانت تأخذه شهرياً، بل تشعر بالوحدة، الأخ والأخت مختلفان عنها وقد اختارا أسلوباً للحياة يختلف تماماً عن أسلوبها.

الأم كانت حاضرة معها بجسدها أثناء فترة الطفولة والمراهقة، إلا أنها كانت بعيدة عنها بمشاعرها، أم في غاية الأنانية. عانت في طفولتها من تفضيل أمها الواضح والصارخ لجانى ولكن الآن فهمت أن ذلك كان عبثاً إضافياً لشقيقها ضحية حب أمه

الخانق. وكارميلا كانت أنانية، تافهة مثل أمها وبعد الزواج انحدر وضعها الاجتماعي.

بث أبوها فيها حب الفن ولكنه لم يكن موجوداً عند الحاجة إليه. وقد أهمل كثيراً أيضاً جاني وكارميلا. عاش والداها تحت سقف واحد حياتين مختلفتين، فكان كل منهما يعطى الأولوية لاحتياجاته قبل الطرف الآخر والأبناء. وعلى الرغم من خيانات الأب المتكررة إلا أنه يمكن القول أن زواج والديها كان زواجاً ناجحاً: لا تتذكر ليلاً لحظة عاطفة بين الأبوين أو نحو الأبناء، كما لا تتذكر كذلك حدوث شجار أو نزاع.

لقد عملت منو كثيراً لحفظ التوازن والاستقرار المادي للعائلة. ربماً يجب أن يشعروا بالامتنان لها على ذلك وبينما كانت تفكر في رحلة العودة إلى روما، نامت هادئة.

-٣٤- الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣

البريد يحمل أخباراً جديدة تبث الأمل في نفوس أفراد عائلة الفاليبى

كانت الساعة الثامنة صباحاً، السيدة الفاليبى وليللا، كانتا تتناولان القهوة في غرفة نوم السيدة قبل أن تستعد ليللا للعودة إلى روما. يمثل وداع الوالدين دائماً لحظة صعبة، ولكن في تلك المرة بدا الأمر سهلاً وخالياً من الانفعال، بل لم يخل من شعور بالراحة، فقد أنهكت أحداث الأسبوع الأم والابنة تماماً. دخلت سانتا إلى الحجرة قلقة: فهناك ساعى بريد يطلب التوقيع لتسليم خطاب مسجل. نزلت ليللا وعادت إلى الأم ومعها خطاب. كان العنوان مكتوباً على الآلة الكاتبة وكان قد أرسل من عاصمة الإقليم. فتحته ليللا بنفاد صبر، كان مؤرخاً بتاريخ اليوم السابق ٢٦ سبتمبر. الخطاب كان مكتوباً بخط منو، الأحرف الكبيرة ولم يكن مذيلاً بإمضاء.

قرأته ليللا بصوت عال:

لم تفعلوا كما قلت لكم، ولكن الآن وقد نشرتم الإعلان بجريدة «جورنال دى سيشيليا» كما أريد، فأنا أسامحكم، بشرط أن تفعلوا ما أقوله لكم.

«أذهبوا إلى مكتب والدكم، بالمكتبة. خلف موسوعة «تريكانى» هناك رف سرى. ارفعوا مجلدات الموسوعة، سترون نافذة كبيرة افتحوها، في الخلف هناك ثلاثة أرفف، ستجدون ثلاث علب مغلقة، لا تفتحوها، تحتوى على مزهريات قديمة أريد أن تحملوها بالسيارة اليوم أو غداً إلى متحف الإقليم الأثري، واحذروا أن تكسروها. قودوا السيارة ببطء. إن كسرت تلك الآنية، ستكون كارثة.

وفي المتحف، اطلبوا مقابلة الدكتور بالميري، الذى ينتظركم. وسيكون فى انتظاركم. أخبروه أنكم من طرف منولارا وعرفوه بأنفسكم واطلبوا منه شهادة أثرية للمزهريات، وأخبروه بأنكم الثلاثة المالكون لها. لا تبحثوا ولا تلمسوا أشياء أخرى بالبيت.

بعد الحصول على الشهادة، انتظروا خطاباً آخر مني، وتذكروا تنفيذ ما أقوله لكم.
وضعت ليلاً الخطاب فوق المنضدة وقالت:

«لنذهب إلى المكتب». نهضت المرأتان. لم تكن هناك حاجة لكلمة أخرى، سارتا بعد أن عبرتا غرف الصالون، صالة البلياردو، والردهات والغرف الفاصلة وصلتا إلى المكتب من الباب الداخلى متدثرتين بروبين مذيلين، كانتا تتحركان بخفة ورشاقة فوق الأرضية الموزاييك التي يعلوها الغبار، تفتحان الغرف المظلمة ذات النوافذ المغلقة بالمتاريس والتي غدت مهجورة ثم تغلقان الحجرات خلفهما بحرص، تضيئان وتطفئان المصابيح الكهربائية لكل مقصورة، الواحدة تلو الأخرى أثناء سيرهما إلى حجرة المكتب، كانت إحداهما تضيء حجرة والأخرى تطفئ مصابيح الحجرة السابقة، بإيقاع ووقفات زمنية وكأنه رقصة باليه دون موسيقى.
أخيراً بلغتا المكتب وهناك توقفتا.

سألت السيدة الفاليبي وهي في حالة تأهب:
«الآن ماذا سنفعل؟»

تفحصتها الابنة باستهانة فأماها التي كانت تشكو دائماً من التعب، والأم لأى تغيير في نظامها اليومي الصارم والخامل تبدو مستعدة للعمل والمشاركة.
أجابت الابنة: «لا أريد أن أفتح الشيش، فالناس قد ترانا، سترفع الكتب ولنرى إن كان الأمر كما قالت.»

كانت ليلاً قد أُلقت بمجلدات من الكتب فوق الأرض، عندما دخلت لاختيار كتب لإهدائها إلى الأب أرينا، بينما ظلت حجرة المكتب الفخمة كما هي مليئة بالغبار ولكن منظمة، كانت تنبعث منها تلك الرائحة الخاصة التي تفوح بالمكان المغلق، ذلك المزيج من تراكم الأتربة، مع الرطوبة، رائحة العفونة الخفيفة للأوراق التي التهمتتها حشرة العتة، رائحة الحجرات غير المسكونة لمدة طويلة كما لو كانت تريد معاقبة أصحابها الذين اعتنوا بها ذات يوم ثم هجروها.

كانت ليلا قد سعدت فوق السلم الأنيق ذى العجلات، كانت ترفع المجلدات الثقيلة المجلدة بالجلد وتناولها للأم التي كانت تأخذها الواحد تلو الآخر وتكومها على الأرض فوق بعضها، مكونة أعمدة من نفس الارتفاع.

بعد أن رفعت المجلد الأخير، نزلت ليلا إلى الأرض، مسحت يديها المملوءة بالغبار في جانبيها، ووقفت أمام الأرفف.

اقتربت منها الأم، وظلتا واقفتين الواحدة بجوار الأخرى وقد تبعثر الروبين من الحركة غير المعتادة، فانسابت فوق الجسدين المتماثلين في تناغم، وتموج فاتن بينما كانتا تنظران إلى المكتبة.

ثم قالت ليلا: «لنفتح»! وأدارات مقبض الباب السري الذي انفتح محدثاً صريراً.

كانت هناك ثمانية صناديق متماثلة، مرصوفة بالترتيب في مخبئها، ملفوفة بالورق، مربوطة جيداً بلفات عديدة من خيط الدوبارة الغليظ، كانت جاهزة للنقل إلى المتحف.

أصاب المرأتين إحساس بالرفاهية والراحة وهما ينظران إلى الصناديق، مبهوتين.

قالت السيدة الفاليبي:

« سترين، سيمضي كل شيء على ما يرام»

أجابت الابنة:

«أتمنى ذلك» وأضافت:

« يجب الاتصال بجاني، يمكنني حملهم إلى المتحف ولكن يجب أن يصحبنى أحد رجلى العائلة، الصناديق هشة. لنترك كل شيء في مكانه الآن ونغلق الباب بالمفتاح.»

عادتا أدراجهما بنفس الطريق عبر البيت، بقلوب فرحة. عندما اقتربتا من غرفة النوم، سمعتا صرخات سانتا الفجة، التي ذهبت لأخذ صينية القهوة ولم تجدهما

فبحثت عنهما في كل مكان دون جدوى، ولم تتخيل أنهما ذهبتا إلى حجرة مكتب المحامي. كانت سائتا قد خشيت أن تكون السيدة قد فقدت الوعي أو حدثت مصائب أخرى، بحثت عنهما في كل الحجرات التي تسكنها العائلة، بل نزلت أيضا إلى البوابة، وفي الفناء الداخلي، والمخازن، تناديهما بأعلى صوتها. اضطررتا لتحمل مشهد مسرحي للمرأة التي فقدت أعصابها وأصيبت بالتوتر وارتجت فوق مقعد السيدة طالبة رشفة مياه. بعد ان بللت ريقها، لامتهما كما لو كانتا زميلتين لها من نفس طبقتها لأنها أصيبت بالفزع بسببهما. أحجمت ليلا عن تعنيفها، وتذكيرها بأن ذلك ليس الأسلوب المناسب لمعاملة سادتها، وقد قررت أن تفعل ذلك في الوقت المناسب: ينبغي رفت سائتا، تعتقد أن من حقها التصرف مثل منو. ولكنها على العكس تركتها تنفس عن غضبها وشرحت لها أنهما ذهبتا إلى أحد الصالونات في آخر المنزل لأخذ بعض الأشياء التي تحتاجها في روما.

عندما بقيتا وحيدتين، اتصلت ليلا بالزوج والأخوين. وبنفس الجدية والاقتصاد في الحديث نظموا نقل الآنية إلى المتحف في الصباح. كانوا سعداء وواثقين، وإن كانوا يحسون بالحيرة من عناية منو وحضورها في حياتهم. ظلت السيدة الفالبيسي سعيدة هادئة طوال اليوم. وعند وداع ليلا ونقل الآنية قالت: «منو تحميننا من السماء، ينبغي أن نفعل ما تقوله لنا.. تذكروا أنها في السماء تفكر في مصلحتنا.»

وفي خضم ذلك الاضطراب، لم يفكر أي فرد من عائلة الفالبيسي في فتح أحد الصناديق لرؤية محتواها، أو تساءل عن مصدر تلك القطع والذي بالتأكيد غير شريف وغير قانوني. ولم تحل مشكلتهم الأساسية في معرفة مصدر الدخل الشهري، بل ما حدث كان تعقيدا آخر ذا طبيعة مشكوك فيها. لم يمر بخاطر أي من الفالبيسي، يكفي أن منو اتصلت بهم، لا يهم كيف ولماذا، ولم يكن لديهم شك في عودة الأموال السائلة مرة أخرى إلى أيديهم.

تضاعفت زيارات التعزية بعد تصحيحات إعلانات الوفاة. وجد أهالي روكاكولومبيا عائلة الفالبيسي هادئة، تستقبلهم بترحاب، وحدث ولا حرج عن عبارات الشاء والمدح

التي كان يقولها الأبناء عن منو: إنسانة غير عادية، كرسَتْ نفسها لهم تماماً، كانت بالنسبة لهم أمًا ثانية. كانت حتى تشجعهم على الدراسة، كانت تحب التعلم واستطاعت الحصول على قدر من الثقافة- من المفهوم طبعاً أنه بالقدر الذي يمكن لخادمة أن تتعلمه- كانت تتبع الأب في ولعه باقتناء التحف. ذهل الزائرون من ذلك التحول المفاجيء، وحرصوا على إبلاغ الآخرين أن الجنون تمكن من عائلة الفاليبى، وأن منولارا لم تعد ملعونة بل غدت ملاكهم الحارس وسيدة الثقافة.

استقبل الدكتور بالميرى ليلا وجانى بحفاوة. ووعده بفحص فحوى الصناديق بسرعة ودون إبطاء مضيفاً: « بلغوا تحياتى إلى السيد منولارا، الخبير الشهير الذى ثقف نفسه ذاتياً فى مجال فن الخزف اليونانى.»

لم يعد هناك ما يدهش أولاد الفاليبى ولا فكرة أن الدكتور بالميرى الأثرى بالمتحف، يعتقد أن خادمتهم رجل والأكثر من ذلك خبير فى الفن. ليلا وجانى مطيعون لأوامر منولارا واثقون بأنهما مراقبان لم يطرف لهما رمش، ابتسما وحيياً وانصرفا.

٣٥- ليلا الفاليسى وذكرياتها اللطيفة مع منولارا

كانت ليلا تركب الطائرة المتوجهة إلى روما. لم يكن مما يعجبها أن تتذكر أيام صباها في روكاكولومبا. ولكن داهمتها في ذلك اليوم بعض من صور الطفولة، كانت تظن أنها نسيتها أو ربما نحتها فقط عن الذاكرة.

كانت تلك الفترة هي فترة نزول الحلفاء أثناء الحرب عام ١٩٤٣. وكانت العائلة قد تفرقت في بعض أملاكها النائية، في الوديان العالية بالداخل. كانت ليلا تشاهد وهي مستندة على ساق والدها صور أحد كتب الفن، والذي كانا يقرأانه معاً، وهما جالسان تحت أكمة ياسمين ورافة وكانت هي سعيدة أن استحوذت على انتباه أبيها بالكامل. أحسبت بأن أحداً ما يراقبها فرفعت عينها. كانت منو تحت الشجرة أيضاً ومعها أشغال الإبرة؛ كانت تراقبهما برقة معجبة بما ترى، ويدهاها مسترخيتان في حجرها تاركة الكرة الخشبية التي كانت تضعها داخل الجورب الذي ترتقه. ابتسمت ليلا لها فانغلقت شفتا منو المكتنزان البارزتان على ابتسامة اتفاق وتفاهم.

كانت تلك الفترة من الفترات المحببة على وجه خاص بالنسبة لليلا رغم طبيعة الأحداث التي كانت سبباً فيها. كانوا يعيشون في بيت ريفي مختبئ بين الأشجار بالقرب من جدول ماء. كانوا قد لجأوا لهذا البيت مع الأبوين والجددة، خشية حدوث ما هو أسوأ، ولم يصحبوا معهم من الخدم سوى دون باولينو السائق ومنو. لم يكن الأبناء على وعى بحدوث غزو للجزيرة، مع أنهم كانوا يعرفون أن الحرب مستمرة، مستمتعين بإجازاتهم الريفية التي كانت تبدو لهم خالدة لا نهاية لها. كانت منو قد اقترحت على الأب أن يعوض غياب الأولاد عن المدرسة بتعليمهم ما يمكن أن يسمح به الريف لهم، وهكذا كان اوراتسيو، عندما تخلد الأم والزوجة للراحة، يصطحب أطفاله إلى الحقول بصحبة منو، ولم تكن ليلا في وقت من الأوقات أقرب إلى أبيها من تلك الفترة.

وخطرت على بالها ذكرى أخرى جميلة: كانوا تحت شجرة خروب ضخمة، والأب أمسك بالأوراق المتدلّية ويثنيها منطلقاً منها إلى درس في علم النبات. فشرح الرحلة الطويلة للحاء النبات، ومعجزة حبوب اللقاح، ويعترف على الطفيليات التي تصيب أوراق الشجر. كانت منو تنصت إلى الدرس بكل تركيز، وكانت في الغالب أثناء الدروس تنشغل بجمع الحصى، والتوت والحيوانات الصغيرة تحملها إلى أبيها كما لو كانت هي الأخرى تلميذة. كان هو يتلقاها واحدة واحدة منها بكل رقة بين أصابعه الجميلة، التي كانت ليلاً تحبها جداً، ثم يقدم عنها شرحاً ساحراً فاتناً. كانت منو تنصت ثم تقدم هي الأخرى مساهمتها التي استقتها من خبرتها في الحقول، وأحياناً ما كانت تصح له معلوماته. كانت تعرف الخصائص الطبية للأعشاب خير معرفة، وكانت تعرف الجرعات المضادة للدغات الحيوانات، وعاداتها أثناء فصول السنة المختلفة.

ومضت في ذهن ليلاً لمحة من ذكرى ذلك اليوم: كان أبوها ومنو يفحصان قرون الخروب الطويلة وكانا يضحكان معاً، وهما يتبادلان النظرات.

وأحست ليلاً بأنها تشاركهما وأنها مستثارة بشيء قوى كانت لاتفهمه على أية حال. ولكن سرعان ما أصبحت منو معلمتهم الوحيدة في الدروس الريفية، بعد أن استولت على الأب مغامرة غرامية مع سيدة كانت هي الأخرى هاربة من الحرب في مكان قريب منهم، ففقد اهتمامه بالدروس. كانت تصبحهم هي في جميع الحقول ثم تتوقف فجأة وتصدر إشارة تعنى الأمر بالصمت: فقد كانت ترى طائراً غريباً على الشجر، أو أرنباً مذعوراً، أو حجراً له شكل غير مألوف، أو جسيماً مهجوراً. كانت تلاحظ كل شيء قبلهم. وكانت تشرح حياة الحيوانات، كما تفهمها، وتأثير التشذيب على الأشجار، وعجائب تلقيح النباتات التي تحول الكمثرى إلى خوخ، وكيف تتحول يرقة الدودة إلى فراشة. كانت ليلاً تستمتع، كان يبدو لها أن العالم كله في تحول رائع، وكانت تشعر بالحرية: كانت منو تعد الوجبات اللذيذة بالقليل الذي كانت تستطيع العثور عليه في زمن الحرب مثل سندوتشات العجة بالبصل والزيتون، والسردين المملح بالزيت والليمون، وكانوا يأكلون هذه الأطعمة تحت الأشجار. وإذا

كانوا وحدهم كانت تخلع في ساعات الحر القانظة الجوارب السميقة التي كانت ترتديها في الصيف وفي الشتاء، ومضى حافية القدمين وتمدد على الأرض شاخصة بصرها إلى السماء في سعادة. وعندما كانت تهب ريح قوية كانت تفك كعكة الشعر خلف العنق. عندئذ كان الشعر ينسدل سائبا، كانت منو تقول: «قالشعر ينتصر على الريح في النهاية»، وكان الشعر ينتفخ كما لو أنه قد تحرر من سجن التسريحة التي كانوا يصففون بها شعرهم، ثم يتحول إلى خصلات متموجة غزيرة كأنها عرف الفرس يسقط على الأكتاف. كانت جميلة تقريبا. وعندما انقضت فترة التهجير عادوا إلى البلد. كانت الجدة في حالة صحية سيئة، كما كانت هناك مشاكل مالية. استأنفت ليلا الحياة الرتيبة القاهرة التي اتسمت بها طفولتها. كانوا قليلا ما يرون أباهم، الذي كان طيلة الوقت مأخوذا باهتماماته خارج العائلة. وكانت الأم تقضى الظهيرة كلها تلعب الورق. كانت أوقاتا عصبية، وكان التغيير يمضي دائما نحو ما هو أسوأ. كان الحديث المتداول في البيت عن ضرورة بيع بعض الممتلكات حتى ينفقوا من ثمنها حفاظاً على الحياة. وتقرر أيضاً أن تهتم منو بالمطبخ لتقليص عدد العاملين بالمنزل. أراد الوالدان أيضاً تشغيل فتاة تحمل مؤهلات حتى ترعى الأولاد. فالألفة مع منو، التي تتحدث بالعامية فقط، قد منعهم من تعلم اللغة الإيطالية الفصحى، وكانت ليلا على وشك أن تصبح في سن الزواج، وكانت الجدة، وكذلك الوالدان، يخشيان على الفتاتين أن تعتادا السوقية من كثرة مخالطتهما للمرأة، التي كانت تعتنى بكل صغيرة وكبيرة في حياتهم، وترعاهم دراسيا على طريقتهما. ومن الواضح أن منو لم تكن على علم بهذه الهواجس، فحزنت جداً لهذا القرار الذي يعتبر تدخلا لا مبرر له في اختصاصاتها، وصرحت بذلك، ولكن عائلة الفاليبي لم تراجع عن قرارها. كانت ليلا تتذكر أن تلك الفتاة، والتي كانت أيضا ثقيلة الظل، قد تم الاستغناء عنها، توفيراً في المرتبات، وهكذا لم يتبق من الخدم سوى اثنين: دون بولينو ومنو، تساعدان بين الحين والآخر خادمتان بنصف يومية. عادت منو لتصبح مسنولة عن الأطفال. اختلفت عما كانت عليه: كانت تخدمهم بدقة عالية ولكن ليلا أحست أنها ابتعدت عنهم، تكاد تتحول إلى عدو لهم. بعد وفاة الجدة بقليل

كانت هي التي تولت إدارة الأراضي الزراعية. مثقلة بالعمل و التفكير أصبحت صارمة قاسية، تفرض إرادتها على البيت والأسرة، وتعطى الأولوية لطلبات الأم، ورغبات الأب ونزواته، فيما كان الأولاد هم آخر من يخطر على تفكيرها. ومنذ ذلك الوقت أصبح لديها شيء غامض لا يمكن التكهّن به. شيئاً فشيئاً أصبحت خادمة- سيدة، يتوجه إليها الوالدان والأبناء طلباً للمال، مع أنها كانت لا تزال تفخر بدورها كمديرة منزل بارعة، وتقوم على خدمتهم كالمعتاد. لم تكن تريد أن تتعلم ليلاً الطهي أو القيام بالأعمال التي تعجب الفتيات مثل التطريز. كانت هي التي تفعل كل شيء. لم تكن تأخذ إجازات سوى أسبوعى الصيف اللذين كانت تقضيهما مع ابني شقيقتها، وكانت تحافظ على التواصل الطيب معهم، وكانت تملئ خطاباتها لهما على ليلاً. كانت لحظة راحتها تحل بعد الظهر، ما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة. كانت تنسحب إلى غرفتها أو المكتب المجاور لمكتب المحامي، لكي تنهى حساباتها، ولم يكن أحد يجروّ على إزعاجها، حتى هو كان يستأذن حتى يستطيع أن يدخل مكتبه خلال هاتين الساعتين، ولم تكن تعطيه الإذن دائماً. لم يكن لدى ليلاً ذكريات أخرى ممتعة. كانت على وعى مؤلم بمغامرات أبيها الغرامية خارج نطاق الزوجية، والتي لم يكن يبدو أنها تزعج أمها. كانت الحياة في روكاكولومبا خانقة، وقد باعت عائلات كثيرة بيوتها الريفية وانتقلوا للحياة في المدينة. كانت ليلاً قد بادلت جراحاً من لومبارديا الحب بكل حماس، وتزوجت صغيرة جداً، سعيدة بترك عائلة بلا روح وبلد بلا مستقبل. ووافقت منو على هذا الاختيار، طالما أنها سوف تواصل دراساتها الجامعية، وحفزت والديها على إقامة حفل زفاف كبير لها.

في المساء، وصلت ليلاً أخيراً المنزل، وروت لزوجها أحداث الأسبوع غير العادية. كان حادث الآتية هو الأهم لما أظهره من نظام معقد للتفتيش والفحص حول سلوك الفالبيبي، الذي خططت له منو بمساعدة مجهولين، وتم تنفيذه بواسطة أشخاص متعددين. ربما كان ذلك الإعلان في الصحيفة عبارة عن رسالة مشفرة ليس إلا. لم تكن دوافع مثل هذه الآلية المعقدة واضحة، لا والغرض منها: كان ضرورياً معرفة المزيد عن منولارا، فقررا أن يتصلا بابن شقيقتها تليفونيا.

الأحد ٢٩ سبتمبر ١٩٦٣

٣٦- التقت ليلا الفاليبي وزوجها جيرلانندو مع مانكوزو ابن اخت منولارا

قالت ليلا موجهة كلامها لزوجها «إنه يشبهنا» كانت تتجه نحو مجموعة الكراسي في غرفة الفندق حيث كانت تنتظر السيد مانكوزو. قامتة متوسطة وبشرته داكنة، يختار ملابسه بدقة: سترة مبرعات صغيرة من الصوف، حذاء رياضى جميل، ساعة معصم أنيقة. انشغل في قراءة الصحيفة ريثما يصلان. بعد المجاملات الأولية قدمت له ليلا التعازى الواجبة؛ شعرت بالتححرر، فلم تعد بعد قادرة على تلقى التعازى.

أجاب: «ينبغى أن أعزيك أنا يا سيدة ليلا. فقد كانت الخالة روزاليا تحبكم أنتم كأولادها، بينما كانت تحبنا نحن كأبناء اخوة، ومن المؤكد أن هذا الحب كان يقابل بالمثل. هى على أى حال عاشت دائماً فى بيتكم وكانت لا تقضى معنا سوى أسبوعى إجازة كل عام... لم تكن ليلا تتوقع مثل هذه المقدمة، وأدرك مانكوزو هذا فخلج عندما أحس أنه تحدث بشكل غير لائق. «شكرا، ولكن الآن أود أن تحكى لى عن خالتك.. فقد كانت شخصية غير عادية ومتحفظة، وخاصة فيما يتعلق بحياتها الخاصة، أود أن أفهمها بشكل أفضل.» وكانت ليلا غير قادرة على إضافة المزيد. «معك حق، وليس من السهل تعريفها، لا شك أنها كانت موهوبة ثقافة وذكاء على نحو متشابك ومعقد. كنا فى البيت نضحك من غموضها؛ والذى كان يعمل فى سلاح قوات الأمن، كان يرى أنها لو كانت ولدت ذكراً لأصبحت زعيمة مافيا، وكان يسميها بالمرأة الصامتة.»

كان جيرلانندو مانكوزو يتكلم بلغة إيطالية جميلة يتميز بها سكان البر الإيطالي، بلدغة فى الرأء، لكنه قال الكلمات الأخيرة بلهجة صقلية قح. ألمح جان ماريا إلى ذلك ببراعة. «لسوء الحظ نحن ولدنا ونعيش دائماً فى الشمال، أنا لا أعرف صقلية، ومع ذلك كان علينا الاحتفاظ باللهجة للتواصل مع خالتنا روزاليا، التى كانت ترفض بعناد أن نتكلم الإيطالية الفصحى. أعتقد أنها ربما كانت تخجل من أنها لم تتعلم ومن

معرفتها المحدودة بلغة الحديث الراقية». ومرة أخرى يدرك مانكوزو أنه يتحدث بشكل غير لائق، بإعطاء الانطباع بأن لهجة صقلية غير راقية، فأضاف، متوجهاً إلى ليللا: «اسمحي لي أن أقول لك يا سيدتي أن لكتتك الصقلية تبدو لطيفة محببة في ثانيا لغتك الإيطالية السليمة». كانت ليللا تكره أي شيء له صلة بالجنوب، ولهذا ابتسمت ودخلت فوراً في هذا الموضوع الذي كان قريباً إلى قلبها: «لابد أنك تعرف بالتأكيد أن خالتك كانت تدير أملاك العائلة حتى وفاة الوالد، ثم واصلت إدارة شركة الأم. وقد تركنا رحيلها المفاجئ في حالة اضطراب حول مختلف جوانب الإدارة، توفيت قبل الأوان فلم يكن لديها الوقت الكافي لترتيب أعمالنا وأعمالها... وربما تركت لك بعض التدابير أو السجلات أو الوصية؟». «كانت خالتي تناقش أعمالها معي، حيث إنني أكبر أولاد اختها، ولكنها لم تترك معي شيئاً لكم، ولا هي أرادت أن تترك وصية على حد علمي. ولم أكن أتوقع منها ذلك، فقد خصصت لنا في الماضي هبات كبيرة وكانت في غاية السخاء معنا. ولم نكن ننتظر منها ميراثاً. سوف يذهب كل ما كانت تملكه إلى عائلة الفاليبي، أنا واثق من هذا. لقد ناقشنا ذلك في أغسطس، خلال زيارتها الأخيرة. أعربت عن سرورها لتنظيمها كل شيء مع البنك. وكانت كلماتها الأخيرة: 'ساموت مطمئنة لأنني فعلت واجبي تجاه الأحياء والأموات'. كان بعيدة النظر ولابد أنها نظمت كل شيء حتى تتجنب ضرائب التركات. ولذلك فإن تركتها يا سيدتي سوف تؤول كلها إليكم يا آل الفاليبي. «عجزت ليللا عن الكلام. وتدخل زوجها: «إن آل الفاليبي يجهلون ذلك، كانوا يتلقون من خالتك مبالغ مالية كل شهر، كانوا يتسلمونها عن طريق البريد، وربما تكون قد ضاعت أو سرقت. ألا يبدو لك ذلك معقولاً؟». «نعم، هذا هو السلوك النموذجي لخالتي. كانت تفعل ذلك معنا نحن أيضاً، حتى بدأنا نعمل ولم نعد نعد بحاجة للمساعدة. وكان عيبيها الوحيد أنها تريد أن تفعل كل شيء بنفسها، وأن تحافظ بعناد على أسرار حياتها ومدخراتها. كان اللغز بالنسبة لنا كيف أنها استطاعت أن تعول أمي وجدتي منذ أن كانت تجمع اللوز من الحقول. وأعرف أنها عندما كبرت تعلمت كيف تدير الأملاك بطريقة رشيدة، وكانت مقتصدة ويقف الحظ إلى جوارها في استثماراتها

على نحو فريد. كانت أمي تحكي أنها عندما كانت لم تزل طفلة كانت تنجح في مضاعفة النقود كأنها أسماك الإنجيل. هل تصدق أنها في فترة ما بعد الحرب مباشرة ساعدتنا على شراء بيتنا الأول، عندما أهدتنا قدرًا كبيرًا من المال؟ «من أين جاءت هذه الأموال؟» أم تسألوا يوما من أين جاءت؟ «سألت ليلا همسا. قامت بعمليات حسابية عقلية: في ذلك الوقت كانت منو مجرد خادمة راتبها تافه. جدتها كانت لا تزال على قيد الحياة وكانت هي شخصيا التي ترعى إدارة الممتلكات؛ فهل كانت منو تخدعها وتسرق الأسرة؟ «معك كل الحق، ووالدي كان أحد رجال الأمن، وكان رجلا مستقيماً جداً. كان متردداً في قبول هديتها وعبر صراحة عن هواجسه، وقد ناقشنا هذا الأمر طويلاً في بيتنا. بل إنه وصل إلى نتيجة مؤداها أنها سرقت هذه الأموال من أسرته. أذكر أنه قرر أن يكتب إليها لكي يستوثق من مصدرها؛ كانت المراسلات بيننا وبين خالتي كثيفة، على الرغم من أنها تحتاج إلى من يكتب لها. تعرفين هذا جيدا يا سيدة بوللا، فلا زلت أحتفظ بالخطابات المكتوبة بخطك الجميل المتناسق والتي أملتتها عليك الخالة.» ابتسم مانكوزو، ثم أضاف «كان ردها فوراً. هي أموالها وحسب. قبل الحرب، قدمت السيدة الفاليبي لها هدية وأتيحت لها فرصة استثمارها في الخارج. كانت تفهم هواجس زوج شقيقتها، فلم تشعر بالإهانة تجاهها، هذه المرة، ولكن لم تسمح بمزيد من الشكوك حول أمانتها. كانت تفضل أن تتوقف عن مساعدة أختها على أن تتعرض لمثل تلك الإهانة بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين لم نوجه إليها أية أسئلة أخرى. مرة واحدة، خلال إحدى زياراتها، كانت تريد أن تذهب للحديث إلى مدير بنكها في فاريزي، ثم في سويسرا. صحبتها أخي، وافترض أنها كانت تحتفظ بأموالها هناك بمشورة من أسرتها، ولا يوجد أي تفسير آخر. كانت خالتي فلاحه مسكينة ومن المؤكد أنكم باعتباركم مديرين لأموالكم أمراء برولي لديكم دراية أوثق بمثل هذا النوع من الاستثمار. استعلموا من البنك، فقد كنت أعتقد دائماً أن مدخراتها يتم استثمارها جنباً إلى جنب مع أموالكم.» غمغمت ليلا: «لا أعرف، لقد تزوجت صغيرة جداً، ولهذا ليس لدى علم كاف باستثمارات العائلة في تلك الأوقات.» لم تكن تريد أن تكشف جهل وغفلة عائلة

الفاليبي لابن أخت الخادمة. «اسمحي لي أن أقطعك» أضاف جيرولاندو مانكوزو، «أذكر أيضا أن خالتي حققت بعض المكاسب من بيع أحد أملاككم، نسبة مئوية من السعر. كانت سعيدة جداً بهذا، ولكنني أكثر ثقة في أنها في إدارتها للأصول الخاصة بكم كانت تتحرى الدقة الشديدة والأمانة، فقد كانت هذه هي طبيعتها. لا أستطيع أن أقول لك شيئاً آخر» أضاف، وقد غلب عليه الخجل من أنه تحدث على نحو طيب أكثر من اللازم عن خالته. «في نظرنا لم يكن بها عيب، فيما إعادة الاقتصاد.» تدخل جان ماريا بوللا، فقد لاحظ تفاد صبر مانكوزو. كان يخشى أنه سيضع حداً للقاء بسرعة: «ولكن هل تعتقد أنها كانت شديدة الحساسية، أنا لم ألاحظ ذلك فقد كانت مع زوجتي محبة ودودة دائماً.» «كانت حساسة جداً! على الرغم من كونها فخورة بدورها كخادمة في بيت كبير من بيوت صقلية مثل بيت زوجتك، فعلينا الاعتراف بأنها كانت واعية بأنها تفتقر إلى اللياقة ولم تحظ بتعليم مدرسي. كانت تخاف أن يهزأ بها الناس، وكانت تفضل البقاء في المنزل للقيام بعمليات تنظيف كبيرة وبالطهي؛ بدلاً من المشاركة في حياتنا الاجتماعية. لم تكن تذهب سوى إلى البقال عند ناصية الشارع لشراء بعض الاحتياجات. وذات يوم ظنت أن البقال كان يسخر منها لطريقتها في الكلام، فأجبرتنا على عدم التعامل معه. كانت لا تتزحزح عن قراراتها. كنا صغاراً، ولكن كلماتها حفرت في ذهني: 'لخيركم يجب عليكم القيام بما أمركم به، حتى التحية لا ينبغي إلقاءها عليه عندما تمرّون أمامه، ولا تشتروا منه بعد ذلك أبداً. إنها مسألة تخص شرف العائلة: لقد أساء لخالتيكم.'» كانت ليللا تستمع إليه بانتباه، فقد كانت هذه هي منوال التي تعرفها. وأضاف جيرولاندو مانكوزو: «لا أريد أن أعطيك الانطباع بأنها كانت ضيقة الأفق وتسيطر عليها الرغبة في الانتقام. فقد كانت تتسم بالسخاء والإيثار. وكانت أيضاً مثقفة ثقافة عالية، في المواضيع التي تهمها. في السنوات الأخيرة، أظن أنه كان لديها مزيد من الوقت، فكانت تقرأ كثيراً، وكانت تهتم على نحو خاص بالأدب الحديث. وأنتم تعرفون بلا شك عشقها للخزف اليوناني، وربما وجهها إلى ذلك المحامي الفاليبي.» «لماذا لم تحضروا جنازتها؟» سألت ليللا، التي كانت تريد أن تخبره بأمر المزهرات اليونانية.

«لم تكن خالتنا تسمح لنا بزيارتها في صقلية. قلنا لها وداعا في أمان تام في أغسطس. طلبت منا أن نقسم على عدم الذهاب إلى روكاكولومبا ولا حتى لحضور الجنازة، كانت واثقة من أنكم سوف تقومون بالواجب، وهو ما حدث بالفعل، وتدين لكم أسرة مانكوزو بالامتنان لهذا. أبلغنا عن وفاتها القس الذي كان يكتب لها رسائلها. «أود أن أقول لك شيئا أخيرا، ولى رجاء عندك أن تعيده على مسامح إخوتك، إذا ارتأيت ذلك مناسباً. كانت الخالة تتحدث وتكتب كثيرا عنكم: ألعاب، شقاوة، ولكن أيضا نقاط القوة ونقاط الضعف. كانت تحلم ببنجاحكم وتشكو في بعض الأحيان، عندما لا تستذكرون دروسكم بالحماس الواجب، ولكنها كانت تذكر ذلك دائما بالمودعة والاعتزاز. كانت تفعل الشيء نفسه معنا، كانت تحثنا على الاستذكار وعلى تحسين مستوانا: كانت مستبدة في الخير. ثم كتبت أقل عنكم. كنا نظن أنكم ذهبتُم إلى مدرسة داخلية وأخذنا نسأل عنكم باستمرار، بالنسبة لنا كنتم جزءا من عائلتنا الصقلية. كانت خالتنا تتحایل على أسئلتنا. ذات يوم سألتها لماذا. وردت بأن امرأة أخرى هي التي تعتني بكم وأنها عادت لتكون مجرد خادمة، وكان الحديث عنك يؤلمها، ولكنها ظلت دائما تحبكم. أفهم أنها كانت امرأة غير متعلمة، ولكن المشورة والدعم اللذين قدمتهما لنا عن بعد ساعدانا كثيرا في مرحلة الصبا والشباب، ولذا لم أستطع أن أستوعب أبدا سر هذا التغير في عملها: فهل تفسرين لي السبب؟» أوضحت له ليللا أن والديها قاما بتشغيل أنسة متعلمة تتحدث الإيطالية الفصحى جيدا، وهي العادة مع البنات عندما يبلغن سنا معينة. وقال جيرلانديو مانكوزو «أفهم، لقد سبب لها هذا ألما كبيرا، ولكنها بطبيعة الحال تجاوزته، لأنها تابعت خدمتكم بتفان.»

الاثنين ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣

٣٧ المزهريات تعود إلى روكاكولومبا

في ظهر يوم الاثنين ٣٠ سبتمبر كان ليلا وجاني في طريق عودتهما إلى روكاكولومبا. كانا قد وضعا في حقيبة السيارة بعناية الصناديق الثمانية التي تحتوى على المزهريات اليونانية، بعد أن سبحاها من المتحف. كانا قد اتفقا على أن يفتحا المظروف الذي يحتوى على شهادة المنشأ في بيت الفاليبي في حضور كارميلا وماسيمو، والأم كذلك. كانت ليلا قد هرولت من روما حاملا سمعت أنها أصبحت جاهزة، وكانت في حالة مزاجية جيدة. وروت لجاني، الذي ذهب لاصطحابها من المحطة، عن لقاءها مع جيرلانندو مانكوزو: «أتعرف، ربما أسأنا تقدير منو. لقد كانت تحبنا، وكانت بعيدة النظر، وقد ربت أبناء أختها تربية جيدة. أما فيما يتعلق بالمزهريات، فالحقيقة أنه لأمر مدهش أنها تعلمت الكثير عن الفن اليوناني، لابد أن أبي قد علمها الكثير، ولكن حتى هذا يدهشني، بصراحة لم أكن أتصور أنها عليمة بهذه الأمور لهذه الدرجة». وافقها جاني على هذا. وأضافت ليلا: «أنا لا أستطيع أن أتخيل أبي ومنو معا في حجرة المكتب يقرآن، ويبحثان، ويصنفان التحف... كانا مختلفين جداً. أبي، مع كل عيوبه، كان لا يزال رجلاً متميزاً وثقافاً، بل ومغروراً قليلاً، بينما، كانت منو الفقيرة خشنة الحديث والملبس عديمة الأناقة في كل شيء». ورد عليها جاني «لا أدري ما إذا كان بوسعى أن أوافقك الرأي، بعد انتهاء أول لقاء قالت لي أنا شيئاً عنها أدهشني، فقد قالت: 'هي جميلة القوام مثيرة الوجه. كان بوسعها أن تكون امرأة جميلة لو اهتمت بنفسها قليلا، ولكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ.'» ابتسمت ليلا وامتنعت عن الرد. وكان كل شيء تقوله أنا هو ذهب مصفى عند جاني الذي كان يعشق زوجته ويخضع لها عكس أبيها. «ماذا سنفعل بالمزهريات؟» فقالت «هي ثمانية. هل نقسمها بواقع اثنتين لكل واحد، بما في ذلك أمي؟» بشيء من الحرج قال جاني: «أعتقد حقاً أنه سيكون من الخطأ تقسيمها، خاصة إذا كانت تشكل معا مجموعة تحف. إذا كنت لا تمنعين في ذلك، أود أن احتفظ بها كلها، فأنا، آخر سلالة الفاليبي ونستطيع أن نضعها

في المنزل الجديد، تخليدا لذكرى الأب، في لوحة محمية تحت الزجاج، فما رأيك؟» امتعضت ليلا، فها هي تحس مرة أخرى بمخلب زوجة شقيقها. كان من الأفضل تأجيل اتخاذ القرارات؛ حتى بعد أن قال لها إنه سيكون مستعدا لشراء حصة عدلائه أيضا، بسعر يتفق عليه. مجموعة من المزهريات اليونانية كان من شأنها، بالتأكيد، أن تعطى لمسة أناقة راقية لصالوناتهم. ابتسمت مرة أخرى، جال بخاطرها أن ماسيمو ربما أجرى الحديث نفسه مع كارميلا. «سوف نناقش هذا معا في المنزل مع أمي؛ فقد تكون المزهريات مريعة، أو مقلدة، من يدري؟ وقال جاني متعجبا: «كفى هراء، ليس لدى أي شك في أنها سوف تكون رائعة، ما يقلقني هو مصدرها، أي أن تكون من أملاك منو، لعلها اشترتها من لص الآثار ذلك، وربما كانت مسروقة. ينبغي أن نستشير محاميا.» اعترضت ليلا بشدة: «استبعد أن تشتري منو شيئا من اللصوص، فقد كانت تتحلى بالأمانة.» «لم تكوني تتحدثين عنها بمثل هذه الطيبة في الأسبوع الماضي، فقد كنت تتهمينها بسلب إرث أبيك.» «اخرس، أنت دائم الهراء. لقد كنا جميعا الأسبوع الماضي في حالة اضطراب، وهي بالقطع لم تترك الأمور كما كان ينبغي لها أن تكون.» قالت ليلا، ولكي تتجنب الشجار مع شقيقها لم تتبادل معه إلا القليل من الكلمات خلال الفترة المتبقية من الرحلة. قبل أن يجتازا التقاطع للوصول إلى روكاكولومبا قالت: «أنا متأكدة من أن منو سوف ترسل رسالة أخرى تحتوي على التوجيهات التي توصلنا إلى المال. من يدري مقدار الجهد المبذول لترتيب هذه الرسائل، وكان يكفيها أن تترك وصية أو تكتب كل شيء في وثيقة واحدة.» «أنا أعتقد أنها فعلت ذلك لتضعنا على المحك، فلم تكن تثق بنا.» «ماذا تقصد؟» لم تكن ليلا تتحمل نبرة زوجة شقيقها المدعية.

«أقول إننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء في إدارة ميراث أبي، وكان من الأجدر بنا أن نتبع نصائح منو. الأموال سوف تدار من قبل البنك، وهذه المرة سيكون من الأنسب تركها وأخذ الفوائد كما كنا نفعل كل شهر في السنوات الأخيرة.» وقالت ليلا بحنق «أنت تفكر فقط في أبحاثك الجامعية وإرضاء زوجتك، أما أنا فأريد أن أهتم بشئوني وحدي.» «أزعجتها فكرة الميراث الخفى الموقوف. وفي تلك الأثناء كانت السيارة تدلف إلى روكاكولومبا.

٣٨ وفي الأثناء كان يتم تنفيذ رغبات منولارا الأخيرة في كاتانيا، وفي زيوريخ، وفي باليرمو.

في الوقت نفسه كان الدكتور بالميرى قد بعث ببرقية إلى بنك في زيوريخ، حسب طلب «مينولارا». غريب هذا الطلب، ولكن ينبغي الوفاء به: ففى النهاية كان «السيد منولارا» قد أهدى المتحف بعض العملات السيراكوزية التى كانت فى حكم القطع المفقودة من مجموعة المتحف، بل وتنازل عن بعض قطع الآثار القديمة إلى المدير وإلى الدكتور بالميرى نفسه. «تم تسليم الشهادة. وتم سحب المزهريات يوم الثلاثاء، الساعة ١٠،٣٠» كان هذا ما كتبه فى البرقية.

تلقى الدكتور ستوتز، الموظف بمصرف زيوريخ، البرقية فى صباح اليوم نفسه وعلى الفور نزع من درج بطاقات «الاستثمارات الخارجية المتميزة» الملف الذى كتبت عليه عبارة «تركة منولارا». كانت تحتوى على وصية ماريا روزاليا اينسريللو وخمسة مغلفات كبيرة، أربعة منها ما تزال مغلقة، ومكتوب عليها على التوالى:

(أ) النص الكامل للنعى الذى نشر فى اليوم التالى للوفاة.

(ب) النص المعدل للنعى المنشور فى غضون يومين بعد الوفاة.

(ج) النص الكامل للنعى المنشور فى غضون أربعة أيام من الموت، بعد الجنازة.

(د) النص الكامل أو المعدل للنعى المنشور بعد أربعة أيام من الوفاة.

(هـ) لم ينشر أى نعى.

تناول المغلف (ج) وهو الوحيد الذى كان مفتوحاً. كان المغلف يتضمن صفحة الوفيات فى عدد الخميس ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣ من صحيفة «جيورنال دى سيشليا»، الذى نشر نعى ماريا روزاليا اينزريللو. وقد تم إبراز والتخطيط تحت الأحرف الأولى من عبارة «تعلن أسرة ألفالبيى عن مصابها الأليم وخسارتها الفادحة» وأعيدت كتابتها على الهامش مكونة عبارة: «إلى الفالبيى» باللغة الإيطالية.

أخذ الدكتور ستوتز الصفحة واحتفظ بها في يده، ووجه تفكيره نحو العميلة التي كان يتواصل معها طيلة عقود من السنين من خلال إعلانات الوفيات الزائفة، وهو نظام بسيط وآمن. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستخدمها متابعة سلوك ورثتها المحتملين لكي يقرر ما إذا كانوا جديرين بالميراث، باستخدام نظام عبقرى اخترعه الدكتور ستوتز بكل دقة مع العميلة خلال اجتماعهما السنوى المعتاد في أغسطس في كاتانيا. لو كان هؤلاء السادة من عائلة الفاليبي، المجهولين له، قد نشروا النعى فوراً، وعلى النحو المنصوص عليه في المغلف، لكانوا قد وفروا كثيراً من الجهد ولحصلوا فوراً على تركة المتوفاة.

ولكن على الدكتور ستوتز ومعاونيه الآن أن ينفذوا بدقة، وبالتفصيل، التدابير المتفق عليها مع العميلة. تحقق من الوثائق مرة أخرى ثم اتصل هاتفياً بمراسله في باليرمو، وكان محامياً من الثقة. وكان لدى ذلك المحامى نسخة طبق الأصل من المغلف (ج). فتحه وأخرج منه مظروفاً أصغر، أصفر اللون، كتب عليه: «رسالة يتم تسليمها باليد إلى ورثة الفاليبي عندما يصدر المتحف الشهادة». فتحها بحذر تجنباً لإتلاف محتواها. كانت بداخلها ورقة بيضاء. كانت رسالة مكتوبة بخط اليد بحروف كبيرة على طريقة أولئك الذين لا يعرفون الكتابة بطريقة أخرى. أضاف المحامى التاريخ عليها ووضعها في مظروف موجه مسبقاً إلى عائلة الفاليبي. أعطى الرسالة بعد ذلك إلى معاون له موثوق به، وكلفه بالذهاب إلى روكاكولومبا وتسليمها شخصياً إلى منزل الفاليبي في صباح اليوم التالي.

٣٩. دون باولينو انونتسياتا يحضر وصول المزهريات إلى بيت الفاليبي دون أن يفهم.

عند ظهر اليوم هاتفت ليلا أختها. توقفا في استراحة عند منتصف الطريق، كان من المفروض أن يصلا عند الساعة الواحدة، ليجدا ماسيمو أمام الجراج لتفريغ المزهريات من السيارة بعيداً عن عيون المتطفلين. أوصوه بأن يعمل بطريقة لا يحس بها أحد.

كان دون باولينو انونتسياتا، كما سبق القول، يعيش في غرفتين متاخمتين للجراج في قصر الفاليبي كانتا ذات يوم مقرا لإقامة الحوذي. كان يوماً بارداً من أواخر شهر سبتمبر وقد اشتدت حدة الآلام الروماتيزمية في ركبتى دون باولينو. كان يجلس على الأريكة القديمة وقد غطى ساقيه ببطانية. كان إناء الحساء يغلى وتتقافز منه الفقاعات بمرح ملاً الغرفة بالبخار الساخن اللذيذ الذى يفوح برائحة الكرب الطازج والبطاطس والطماطم. حفزت هذه الروائح شهية دون باولينو فراح يقدر مع نفسه أن دونا ميمما سوف تعد المائدة للغداء في غضون نصف ساعة.

أزعجته جلبة شديدة بجوار باب القصر. نادى زوجته وراحا ينصتان، وكان صوت ماسيمو ليوني: ربما كان يحاول فتح باب الجراج والذى كان عسير الفتح طوال عمر دون باولينو منذ أن تكونت لديه ذاكرة. دفعه الإحساس القديم بالواجب إلى أن ينزع عن نفسه البطانية وينهض عن الكرسي بسرعة، وهو يلعن في سره الشيخوخة التى هدت قواه إلى هذه الدرجة، ثم خرج إلى الشارع ليرى ما يحدث ويقدم يد العون.

كان ماسيمو يبذل كل ما بوسعه حتى يفتح الباب المستعصي، فيشد المقبض، ويركل الأبواب، ويلكم الأقفال، ويدير المفتاح الحديدي يمينا ويسارا ويدخله بقوة كأنه مفك، ويعالج الألواح الخشبية التى وضعت لتقوية الجزء السفلي، باختصار بدا كأنه محكوم عليه بالأشغال الشاقة. تظاهر بأنه لا يعرف دون باولينو، ورفض عرضه

بالمساعدة. لكنه دون باولينو الذى لم يتراجع طريقة معالجة الأفعال، ولكن نصائحه لم تكن موضع ترحيب. بل إنه طلب إليه أن يعود أدرجه إلى بيته ليتناول الحساء ويهتم بشئونه ولا يتدخل فى شئون غيره.

فيما بعد حكى دون باولينو إلى صهره دون فيتو مليتيللو، فى بوابة قصر تشفاليا: «أحسست بواجب مراقبة ما يحدث فى جراج عائلة الفاليبى بدافع واجب احترام ذكرى المحامى اوراتسيو بعد أن انفتح الباب إثر عدة ضربات أخرى وخصوصاً بعد أن عاملنى ذلك الرجل معاملة فظة.» وهكذا تخفى الفضول المتطفل لدون باولينو انونسياتا فى زى الإخلاص لموظف قديم، لتبرير سلوكه، فى ظهيرة ذلك اليوم المشؤوم.

وكان الاتفاق يسود بيت انونسياتا لأن الزوج والزوجة أصبحا يفكران بنفس الطريقة بعد سنوات عديدة من الزواج لم يكونا بحاجة للكلام، فهما متفاهمان حتى دون النظر فى الوجه. فما أن أخبر دون باولينو السيدة ميمما بسلوك ماسيمو ليونى العدوانى حتى شرع الزوجان فى العمل دون اتفاق صريح. تناولت السيدة ميمما سلة الرفا وأطفأت النار تحت الإناء وأخبرت زوجها أنها سوف تظل جالسة عند باب البيت تخطط حتى آخر الليل لو لزم الأمر، وسوف تراقب كل سيارة تمر من أمام البيت. كان على باولينو أن يقطع الأمل فى التهام صحن من الحساء الساخن فى تلك الظهيرة، فهذه المرأة لن تتحرك من مكانها أبداً.

شرع دون باولينو من فوره إلى الحركة فى جميع الاتجاهات. نقل المقاعد من أماكنها بعيداً عن الجدار الملاصق للجراج، ونزع لوحة «عذراء سيراكوزا» الشهيرة بـ «عذراء الدموع» والتى ينزف قلبها الكبير بقطرة دم ضخمة، ثم مرر يده بلطف على ملاط الجدار حيث كانت اللوحة معلقة لتوها.

وكان هناك، فى الجدار، ثقب صغير، به عدسة: عين سحرية بدائية صغيرة يتجسس من خلالها على ما يدور داخل الجراج. وكان هذا النظام قد اخترعه الحوذى السابق عليه لكى يراقب العربات والجياد والصبى الذى ينام فى الاسطبل، قبل أن تتحول

إلى جراج لسيارة السيد. أبقى عليه دون باولينو مفتوحاً وشغلاً باعتباره نظام أمان ضد السرقة، رغم أن السرقات في روكوكولمبا لم تكن كثيرة، ولكن من يدري متى يصل اللصوص، وكان عند سماعه لأى صوت في الجراج يتأهب فوراً لمراقبة ما يحدث. وبالطبع لم ير أحداً من اللصوص طوال هذه المدة، ولكنه، قبل سنوات كان يحضر من خلالها مع زوجته بعض اللقاءات التي كانت تقشعر لها الأبدان بين المحامى جاني والطباخة بينا فاساللو: كان كلاهما قد جاوز الأربعين ولكنهما كانا في منتهى القوة، حتى أنهما أفسدا له غطاء السيارة الذي كانا يتدافعان فوقه.

والآن يتساءل دون باولينو ماذا عساه يشاهد غير هذا في الجراج، فيما كان يعد كل ما يلزم للاستقرار في مكانه ومشاهدة كل ما يجرى مهما طال الوقت. أعد نفسه مقعداً مريحاً رافعاً قاعدته بالوسائد والأغطية، ووضع إلى جواره صندوقاً خشبياً كمسند القدمين، وملأ كوباً من الماء البارد العذب، ووضع إلى جوار المقعد ومعه رغيف من الخبز وبعض الجبن، حتى إذا جاع أكل وشرب، ثم اتخذ موضعه، والعين اليمنى ملتصقة بثقب الباب، وأنفه يكاد ينسحق في جص الجدار المتصدع، والعصا ملك يمينه.

ظل ماسيمو حبيس الجراج واقفاً بالقرب من كوة الباب. كان كلما سمع صوت سيارة تمر بالشارع، الأمر الذي كان نادر الحدوث في ذلك الزقاق، يطل من الكوة برأسه، يتلفت ذات اليمين مرة وأخرى ذات اليسار، تحت بصر دوناً ميماً المتيقظة والتي كانت ترفو كمية كبيرة من الملابس في السلة دون أدنى تنويه إلى أنها تعترض دخول البيت: ولهذا قرر ماسيمو أن يكون أكثر حرصاً ولا يخرج برأسه من الجراج وظل مستندا إلى الباب مرهفاً السمع. من داخل البيت حيث كان في وضع المراقبة هنا دون باولينو نفسه على ذكاء زوجته. «أحسنت يا ميماً. لقد أخفت ماسيمو ليونى بأربع خرق قديمة ترفيها.»

اقترب هدير سيارة جاني معلنة وصولها. فتح ماسيمو الباب سريعاً، فدخلت السيارة ببطء. تسللت السيدة ميماً إلى داخل البيت وهي تمسك الجورب والإبرة

بيدها لكي تعطى الإشارة المتفق عليها إلى زوجها، رغم أنه لم يكن بحاجة إليها، لأنه كان متمرساً في موضع المراقبة وعينه ملتصقة بفتحة التجسس.

أما الأحداث التي تلت ذلك فقد رواها دون باولينو في المساء على مائدة العشاء مع أصهاره دون فيتو والسيدة انزا ميليتلو: «ما أن دخلت السيارة حتى التصق ماسيمو ليوني بصندوق أمتعتها يحاول فتحه، فشد المقبض، وأداره كأنها يحاول تحطيمه وهو يصرخ فيه «افتح افتح» بينما كان البروفيسور جاني والسيدة ليلا ينزلان من السيارة هادئين تماما، كأنهما فعلا ذلك عن قصد لإثارة أعصابه. رمقه البروفيسور بنظرة مثل تلك التي كانت السيدة ليلا الكبيرة تطلقها، وقال له: «ليست هناك عجلة، لن نفر بالكنز، فإذا واصلت بهذه الطريقة سوف تضربها وتحطمها تحطيماً». أما هو فقد بدأ يلعن وانتحى جانباً تاركاً لهما فسحة لكي يفتحا صندوق الأمتعة والأبواب الخلفية.

وفي الوقت نفسه، نزلت السيدة أدريانا، والسيدة كارميلا من الدرج الداخلي، الذي يؤدي إلى مدخل المبنى بالقرب من مدخل المطبخ وهما تسألان آلاف الأسئلة: 'ماذا قالوا لكم؟ كل شيء سليم؟ هل كنتما حذرين أثناء السفر؟'. وقال البروفيسور: 'المظروف في جيبى، سوف نقرأه في وقت لاحق'. فصمتوا جميعاً. «انهمكوا جميعاً في العمل، وأحدثوا ربكة كبيرة. وكانت هناك أربعة صناديق كبيرة مكتملة في صندوق الأمتعة، وأربعة في المقعد الخلفي، مختفية تحت بعض الأغطية. حملها بعض الرجال، واحداً تلو الآخر، ونقلوها إلى المنزل. كانوا يتعاملون معها بمنتهى الحرص. كانت تبدو لي ثقيلة، من خلال تعبيرات التجهم على وجوه من كان يهم بحملها. وباختصار، يبدو أن كنوزاً كانت في داخل تلك الصناديق.

قالت السيدة ليلا إنها سوف تصعد لتفتحها بحرص، وبقيت السيدتان الأخريتان في الجراج تشاهدان. «وفي لحظة معينة صاحت السيدة أدريانا بسعادة: 'منو تفكر فينا دائماً، والآن سوف تكافؤن!'. عندها ردت ابنتها 'اسكتي يا أمي، فلم نقرأ التقييم بعد، لنصعد إلى المكتب، ولكن أحداً لم يتحرك. «كان لا يزال هناك

صندوقان لم يتم نقلهما. وبينما كان البروفيسور يقترب من صندوق أمتعة السيارة اعترضته أخته كارميلا وزوجها دون إشارة اتفاق فيما بينهما، واضعين أمامه مانعا حقيقيا. قال له ماسيمو ليوني: 'افتح المظروف، الآن، قلت لك'. كان يعرق بغزارة ويهدد، وكان مخيفا. وكانت زوجته تقف مستقيمة إلى جواره كأنها جندي حراسة. وبدأت السيدة أدريانا تصرخ: 'لا تتشاجروا، لا تتشاجروا، فسوف تتحطم، سوف تتحطم'، قالت وغطت وجهها بيديها. «كان البروفيسور غاضبا حقاً، فلم يعر صهره نظرة، وأمر أخته أن تقول لزوجها إلا يعترض طريقه، فهذه شئون تخص عائلة الفالبي، وهذا الموقف لا يعجبه. وراح يبعدة عن طريقه. دفعه ماسيمو ليوني وهو يصرخ فيه: «اقرأها أيها البائس!» ربما يخيفني ذلك الوحش! صمت البروفيسور وانتفض وتناول من جيب بنطاله مظروفاً وفتحته وأخرج منه ورقة، قرأها وحده. ثم قال: 'إنها مقلدة'.

كان شاحباً فازداد شحوباً، ثم حانت نهاية العالم. بدأت السيدة كارميلا تكيل السباب والشتائم ضد منولارا، لكن ما ذنبها هذه الفقيرة المسكينة؟، لصة، غشاشة، جاهلة... لقد اهتمتها بكل الموبقات وقد جن جنونها، بينما ظل الباقون ينظرون إليها صامتين صمت التماثيل. وباختصار، كان المشهد كأنه سينما». «ولكن ألم تحس بالتعب وأنت واقف هناك تنظر من ذلك الثقب؟» سألت السيدة انزا زوج أختها. ردت أختها: «كان يريد أن يرى كل شيء، لم يكن هناك أى أمل في إبعاده عن الجدار.. أنا أيضا كنت أريد أن أتفرج على الجراج، ولكنه لم يترك لى هذه الفرصة، فاستمتع بكل شيء وحده، حتى ألم العظام لم يكن يحس به». وقال دون باولينو: «انتظر، فالحلو لم يأت بعد». «أخذ ماسيمو ليوني الورقة من يده وقرأها، ثم رفع عينيه واستدار ناحية الجراج، وكأنها تلبسته روح شريرة. اتسعت عيناه حتى بدت مثل عيون الأخطبوط، وجحظت كأنها تريد أن تخرج من مقلتيه. ودون أن ينبس بكلمة راح يكيل اللكمات لرأسه، بقوة جعلتني أسمع صوتها، وواصل على هذا الحال في صمت. كان الآخرون يطلبون منه أن يتوقف، ولكن لا أحد منهم كانت لديه الشجاعة للاقترب من ذلك الشيطان، الذي راح الآن يسب منولارا، مواصلا

لَكمَ نفسه، في البداية في الرأس ثم في العنق وإلى أسفل الصدر. «عند نقطة معينة صاحت السيدة أدريانا: 'توقف، أنت تؤذي نفسك!'. نظر إليها وأجابها: 'لا أسمح لنفسي بأن أنهال على زوجتي بالعصا، فهي سبب كل ويلاتي، ولكنني أستطيع أن أفعل بنفسى ما أشاء'. وتابع لكم نفسه كمجنون: وبدأت النساء يصحن ضد منولارا، واقترب البروفيسور من أمه، صامتا، وأستطيع أن أقول إنه كان خائفا أن يشتبك مع صهره في شجار، فالتزم الصمت. في تلك الأثناء كانت السيدة ليلا قد هبطت بعد أن سمعت هذه الجلبة وشاركتهم هي الأخرى في توجيه اللعنات للمسكينة منولارا، وكأنها نهاية العالم. ثم أخذت هي وأخوها الصناديق المتبقية وانصرف باقي أعضاء عائلة الفالبيبي، وظل ماسيمو ليوني وحيدا في الجراج يضرب نفسه، وقد انتفخ كله متورما. في النهاية أعطى ركلة إلى سيارة صهره وصعد إلى المنزل بخطوات واسعة، من يدرى ماذا سيحدث فوق...»

سألت السيدة انزا: «وبعد ذلك؟»

ردت الأخت: «وكيف لنا أن نعرف؟» حسب الأصوات كانوا يتقاتلون فيما بينهم، وسمعنا أصوات أشياء تتحطم ولكن لم نفهم جيدا. لقد بقينا في بيتنا وكانت الأصوات تأتينا من الجانب الآخر للقصر، كان الخروج يبدو لنا صعبًا. إذا كنت تريد أن تعرفي ماذا حدث فاسمعيه من الآخرين؛ فهذه القصة لن تموت قبل أن تعرف بها البلد كلها».

ثم تابعا تناول الخضراوات المسلوقة باستمتاع، فقد كانت أول وجبة ساخنة اليوم. «أتساءل ماذا يمكن أن يكون داخل هذه الصناديق... ترى ما رأيك أنت يا باولينو؟» كانت السيدة إنزا تريد أن تعرف المزيد. «الله وحده يعلم، ولماذا هذا الموقف الصعب مع منولارا المسكينة.. لقد كانوا حتى الأمس يتحدثون عنها بالخير. لابد أن أفكر في هذا الأمر.» غمس باولينو قطعة كبيرة من الخبز في مرق الخضار، ثم قذف بها إلى فمه وبدأ يعضها ببطء مستطعما إياها في صمت.

٤٠. عائلة ماسكولو تتناول المكرونة متعجنة

لم يتذمر أحد من عائلة ماسكولو لتناوله المكرونة متعجنة، والصنف الثاني بارداً في ذلك اليوم الثلاثين من شهر سبتمبر.

كان المهندس الزراعي انجيلو ماسكولو، ابناً غير شرعى للمرحوم المحامى تشيشو الفاليبي، الذى ساعده في شراء منزل بجوار قصره، أمام بلكونة حجرة المكتب. وكانت كل عائلة ماسكولو تشعر بالعرفان والامتنان لعائلة الفاليبي. لم تشارك في أحاديث النميمة الأخيرة، وكانوا لايهتمون إلا بشئونهم، آباءً وأبناءً وأحفاداً صغاراً.

ولكن في ذلك اليوم لم يستطيعوا تفادى فضول معرفة شئون الآخرين.

ظلوا جميعا واقفين على أقدامهم خلف الستائر الخفيفة لنوافذ حجرة الطعام يشاهدون ويسمعون المعارك الضارية التى نشبت ببيت الفاليبي.

كانت ليلا قد ذهبت مباشرة إلى حجرة المكتب وفتحت شيش النوافذ ليدخل الهواء، ولترى جيداً.

عندما رفعوا التحف من فوق البيانو ووضعوا فوقه المزهريات، كان المكان المناسب لرؤيتها وتأمل منظرها.

كانت تتعجل متعة فتح الصناديق، واحداً تلو الآخر، كانت واثقة من قدرتها على إقناع الآخرين بتركهم لها: يجب أن تصبر ولا تتعجل.

فتحت صندوقين. كانا يحيويان جرتين بديعتين، ذاتى لون أسود لامع، الأشكال الحمراء كانت مرسومة بالتفصيل وفي غاية الأنافة، وأوراق الشجر التى كانت تزين حواشيتها رقيقة وتامة. فتحت صندوقين آخرين، وتعجبت أكثر، وجدت زلعتين مطابقتين لزلعتى الصندوق الأول، بالتأكيد الأمر يتعلق بمجموعة هامة جداً. شدت الستارة الدانتيل.

عندما سمعت جلبة غير واضحة صادرة من السلم الداخلى، فكرت فوراً في أن الأم قد وقعت والأسوأ أن يكون أحد الصناديق قد أفلت من يد جاني، أو ماسيمو وانكسر ما به من فخار. نزلت مسرعة. وصلت إلى الجراج، فهمت، وشعرت بالحنق الشديد من تصرف ماسيمو الذى أراد الانصراف. أخذت صندوقاً وحملته إلى الطابق العلوى، قلدها جاني وحمل الصندوق الآخر.

من العجيب أنهما كانا يحملان الصندوقين بنفس الحرص الذى كانا يحملان به الصناديق السابقة، على الرغم من معرفتهم بأن القطع مقلدة، بيد أنهما وضعاهما فوق المنضدة بالصالة وليس فى حجرة المكتب. لحقت بهما الأم وكارميلا. ارتمت كارميلا فوق الأريكة الكبيرة أمام المدفأة، تنتحب وتطلب العون، فماسيمو سيقبلها لمزحة منولارا الأخيرة.

كانت الأم جالسة عند قدميها، تمسك جسدها بشرود، مرددة أنها لا تفهم ماذا حدث، ربما فى المتحف قد أخطأوا أو أن أحدهم خدع منولارا.

ظل جاني وليللا واقفين يقرآن الخطاب باشمئزاز؛ فالخطاب لا يؤكد فقط أنها قطع مقلدة ولكن يصرح أيضاً ببيعها والسماح بخروجها من البلاد على هذا الأساس.

قال البروفيسور: «يا للسخرية، يصرحون لنا بتصدير القطع المقلدة.»

لم ترد ليللا، كانت متكدرة الوجه. سألتها الأخ: «أين وجدتهم؟» أشارت بحركة واهنة إلى الرف.

أردف: «من يدري إن كان هناك المزيد منها، فلترى.» اقترب من الحائط الطويل المغطى بالكتب.

نهضت كارميلا، ولحقت به.

«تلك المجنونة، كانت تبدد أموالنا بعد وفاة أبي على شراء قطع مقلدة.... لم تكن تفهم شيئاً، انظرى، من يدري كم منها هنا، كانت تظن أنها تستثمر الأموال جيداً إلا أن كلها مقلدة.» كان جاني يتحدث، واثناء ذلك يفتح الأدراج السفلية بالمكتبة دون

ان يغلقها، ويخرج صناديق حاوية لقطع أخرى من الخزف، أشياء من كل الأنواع، قطع من رخام من كالتجروني، وأشياء أخرى كثيرة.

كارميلا وقد مسها الجنون، كانت تفتح كل الأدرج ، أيضاً أدرج الخزائن متعددة الأدرج، ادرج المناضد، كانت تقلب الاوراق، الأشياء، ملفوفة، مكومة فوق الرفوف، والأرضية، والمقاعد.

كانت ليلا واقفة، تراقبها ثم انضمت إلى حركات الأخت العبثية، كما لو كانت بحاجة إلى تنفيس الطاقة المنبثقة.

هكذا وجدهما ماسيمو، أشبه باثنتين من الأريينوثس*، بعد تفريغ الأرفف السفلية، تركا درف المكتبة مفتوحة على مصراعها، فقد شنت الشقيقتان هجوماً على المكتبة: أفرغتا محتويات الارفف بإلقاء الكتب فوق الأرضية، لاكتشاف أرفف أخرى سرية تحوى الكثير من المزهريات الأخرى، بعضها شبيه بالملقده، والأخرى مختلفة عنها، أنية أخرى، قنينات، مصابيح زيتية، صور، وبطاقات، أطباق، تحف، كلها مرتبة بدقة ومفهرسة.

كان جاني قد تنحى جانباً، واقف بجوار أمه. كان ينظر اليهما ذاهلاً. بقى ماسيمو أيضاً واقفاً يراقبهما. تعرف على المزهريات المقلدة، كانت فوق البيانو، في غاية الجمال. تعجب قائلاً:

«تلك النفايات هي المزهريات التي كانت العاهرة تعتبرها ثروة لها ولعائلة الفالبي، يالكم من حمقى ويالها من فاجرة قحبة. خدعتها مجموعة كبيرة من المزيفين، وضيعت أموالنا. تستغفلوننى منذ عشر سنوات، كنت أعتقد أنكم أفضل من الآخرين، وأنتم لستم إلا مجموعة من المخبولين. ما الذى دفعنى لمصاهرة تلك العائلة البلهاء؟ تستحقون أن تعرف صقلية كلها مدى حماقتكم....نشرتم النعى بالجريدة، وأنا أحرق مثلكم لأنى أطعتكم.» التقط أحد التماثيل البرونزية الصغيرة من فوق المنضدة الصغيرة بجانبه، وألقى بها فوق الأرض، ثم أسقط منفضى سجاثر، ومزهريه صغيرة، وظل واقفاً منهكاً، ودهشاً من جرأته.

* الأريينوثس إله الانتقام عند اليونانيين

كان رد الفعل على تصرفه غير محدود، وما برح يثير دهشة أهالي البلدة الذين أمدتهم عائلة ماسكولو، بعد أن تخلت عن تحفظها، برواية مفصلة عما حدث.

ليلا والتي انهمكت بالبحث في أحد الأدراج. عند سماع الضجة التي أثارها سقوط التمثال، نهضت بسرعة كبيرة، انقضت على البيانو، أمسكت بإحدى المزهريات وأسقطتها أمامها بعيداً عن قدميها. تحطمت المزهرية. أمسكت بأخرى وألقت بها فوق الأولى. قلدها كارميلا، وانضم أيضاً جاني إلى هوس التخريب لتطهير الذات.

كان صخب تكسير القطع الفخارية يختلط بالشتائم التي انهال بها ماسيمو عليهم جميعاً، وخاصة على منولارا. أخذوا جميعاً في الصراخ والسباب ضدها في جحيم مستعر من الجلبة. وكإحدى الارينس(الهة الانتقام) ، ارتقت ليلا سلم المكتبة، وجعلت تنزع كتب الأب القديمة، ترميها بعنف فكانت الكتب تقع متهالكة الأوراق، وقد دمرت أغلفتها بالكامل. فتحت أيضاً أرففاً أخرى سرية من المكتبة مليئة بالمزهريات التي تحطمت إلى قطع صغيرة.

اقترب منها جاني. ناولته مزهرية شبيهة بتلك المزهريات فوق البيانو وقالت:

« هاهى الخبيرة والمحبة للفنون.. انظر إلى هذه ليست إلا نسخة أخرى مقلدة، نسخة من المزهريات التي حملناها إلى المتحف.»

أمسك بها جاني وغمغم: «منو كانت تكرهنا جداً، جداً. هذا يشرح كل شيء...» كانت عيناه تفيضان بالدموع، كتم نحيبه الذي كان يبلى حلقه، وترك المزهرية تقع على الأرض. بعد ذلك أخذ يبكي دون تحفظ، واقفاً بجانب السلم، كان يأخذ كل ما تناوله ليلا ويكسره، وقد أحاطت به مقتنيات أبيه التي تحولت إلى شظايا.

جعلهم صراخ كارميلا يلتفتون إليها. كان ماسيمو يطبق بيده حول عنقها ويهزها كما لو كانت دمية، صارخاً فيها بكل أنواع السباب. أسرع جاني لإنقاذ أخته، وتشابك الاثنان بالأيدي. أصيب ماسيمو بالاصابة الأكبر، عضه في ذراعه، بينما امتلأت ساقا وذراعا جاني بالبقع الزرقاء. وفي خضم ذلك الهرج، دق الأب ارينا جرس الباب.

٤١- الأب أرينا في ظهيرة مليئة بالزيارات

كان الأب أرينا قد اتفق مع السيدة الفالبيى أن يمر بيיתה ويتناول معها القهوة بعد الغداء عندما يخلو البيت من الزيارات، وبذا يمكنهما الثرثرة وحدهما. وقد دق جرس قصر الفالبيى في تمام الساعة الثانية وبعد انتظار طويل، فتحت ليلا الباب الصغير الكائن داخل إحدى ضلعتى الباب الكبير، كانت تبدو دهشة من الزيارة.

فتحت له مهملة الهندام، مرتبة الثوب، شعرها منتفش، كانت تبدو متعبة ومحبطة، لم تدعه إلى الدخول من البوابة، بل دفعته إلى الانصراف قائلة إن أمها ترقد بالفراش لأنها ليست على ما يرام. كان واضحاً أنها لم تكن ترحب بزيارته. وكانت تتعجل خروجه وإغلاق الباب في وجهه، لدرجة أن أحد الخطابات التي كانت تمسك بها في يدها وقع منها وانتهى فوق الرصيف.

تناول الأب أرينا الخطاب ودسه في جيبه، آخذاً على نفسه عهداً بأن يعيده في صباح اليوم التالي. واصل سيره وقد نزل بزقاق جوتسي، الممتد بمحاذاة قصر الفالبيى، كان يفكر أن لديه ساعتين من الوقت عليه أن يشغلها بأى شكل قبل الذهاب إلى بيت فاتا الذى ينتظره في الساعة الرابعة.

«الأب أرينا، ماذا تفعل سيادتك في الطريق بهذه الساعة؟ تفضل، تفضل لتناول القهوة معنا!» قبل القسيس بشعور من العرفان دعوة المهندس الزراعى انجيلو ماسكولو، كان واثقاً أنه سيمضى وقتاً طيباً مع أولئك الأشخاص الطيبين الجادين في عملهم والبسطاء ولكن الأمور لم تمض كما تمنى.

وأثناء تناول القهوة، كان القسيس يستمع، في بادئ الأمر غير مصدق، ثم حانق، يائس، فرواية عائلة ماسكولو لما شاهدته، وسمعته جعلته يفقد الرغبة في تذوق بسكويت اللوز الذى قدمته له السيدة. كان كل فرد من عائلة ماسكولو يحكى للأب أرينا ما رآه وسمعه، وشيئاً فشيئاً، رسمت حكاياتهم لوحة مأساوية، قبيحة

وغامضة. السيدة أدريانا كما أقر الأربعة، كانت شاهداً صامتاً على تدمير مريب لحجرة مكتب الزوج أثناء المشاجرة العائلية.

أطلوا معا من النافذة التي شاهدت من خلالها عائلة ماسكولو ما حدث لتحقيق من وصف المشهد داخل حجرة المكتب، ولكن شيش النافذة كان مغلقاً، ولم تكن هناك علامة للحياة داخل الحجرة، كما لو أن شيئاً لم يحدث. أراد الأب أرينا أن ينصرف ويتمشى وحده ليفكر ولكن ذلك لم يتسن له: فالسيدة ماسكولو كانت بحاجة للحديث عما بداخلها والنصح حول كيفية التصرف.

لاحظ الأب أرينا قلق المهندس الزراعي وزوجته، كانا لا يعرفان إن كان الأمر يستلزم إبلاغ صديق أو قريب لعائلة الفاليبي، شخص ثقة ولبق أو حتى الذهاب بأنفسهم للاطمئنان بأن السيدة الفاليبي ليست بحاجة إلى مساعدة أو الاتصال بالطبيب ميندكو، وفي الغالب ابن المهندس، وزوجته، على الرغم من حسن أخلاقهما، إلا أنهما لن يستطيعا مقاومة التحدث عن الأحداث الغريبة التي شاهدها من النافذة.

كان يخشى جداً من انتشار أخبار ما حدث ببيت الفاليبي في البلدة كلها، قبل حلول الظلام، وفي محاولة يائسة لإنقاذ القليل المتبقى من الثقة والاحترام لهذه العائلة بروكاكولمبا، أكد الأب أرينا لعائلة ماسكولو أنه سيخبر فوراً الرئيس فاتا بما حدث وأوصاهم بحفظ السر.

اصطحب انجيلو ماسكولو القسيس إلى باب الخروج كان يريد التحدث معه وحدهما: «أبتاه، أود أن أخبر حضرتك ببعض الأشياء التي أعرفها أنا فقط والتي شغلت تفكيرى كثيراً. في السنوات الأخيرة من حياة المحامى أوراتسيو، كان يقضى وقتاً طويلاً بالمنزل وكان يقضى النهار بحجرة المكتب. وكان يصل بعض الأشخاص ليلاً بعربة تجرها الخيول كانت وجوها غير معروفة. كانوا يقفون أسفل القصر، وينتظرون، ثم تفتح منولارا النافذة وتدلى حبلًا مربوطاً به سلة.

كما لو كانت تشتري متطلبات المنزل. وكانت سلال ثقيلة تصعد مليئة بأشياء تغطيها أجولة الآن أتساءل عن محتوى تلك السلال.. أعتقد الآن أنها لا بد أن تكون أشياء مسروقة من المقابر أو من الحفائر الأثرية، تلك الأشياء التي حطموها في هذه الظهيرة.

ربما كان يجب أن أتحدث في ذلك مع المحامي لأقنعه ألا يقوم بشراء تلك الأشياء ربما تعرض الأبناء الآن للتهديد أو الابتزاز وحطموها كل شيء خوفاً. «طمأنه القسيس بأن المحامي اوراتسيو كان عنيدا ولم يكن ليتبع نصائح المهندس الزراعي ماسكولو، لذا فقد أحسن صنعا بعدم الحديث معه عن أي شيء».

أضاف ماسكولو: «حدث شيء آخر آنذاك، من المخرج الحديث عنه، أسالك الغفران. لا يعلم أحد من أبنائي شيئا عما سأحكيه، هم شباب طيبون ولكن قد تفلت منهم كلمة، وأنا لا أريد أن ألحق أذى بعائلة الفالبيبي، أقول ذلك لحضرتك فقط يا أبت. أنا أعانى من الأرق وكنت آتى إلى حجرة الطعام أثناء الليل لقراءة الجريدة، كي لا أوقظ زوجتي. وفي ليالى الصيف، كان المحامي يترك شيش النوافذ مفتوحاً، وكنت أطل من الشرفة لأستمع إلى الموسيقى الجميلة التي كانت تصدر دائما من حجرة مكتبه، كان لديه جراموفون رائع. أقسم لك أنني من خلال الستارة البيضاء لمحت جسد امرأة معه فوق الأريكة أمام المدفأة ترتدى ملابس قليلة، هل تفهم؟ لم أفهم كيف تسنى لها الدخول إلى المنزل مع وجود السيدة أدريانا ومع ذلك فقد رأيته، كانت دائما نفس المرأة، ذات الشعر الغامق الطويل، كانت جميلة وكانت تأتى إليه حتى السنوات الأخيرة من حياته. لم أكن أتصور أنه قادر على تصرف مثل ذلك، ربما حتى أباه رحمة الله عليه، لم يكن ليفعل ذلك.. حقيقة أنه كان أيضاً في شيخوخته يذهب إلى بيت الدعارة دائما، بيد أنه على الأقل لم يحضرهن إلى المنزل.» جاءت إجابة الأب أرينا فوروية وحاسمة: «عزيزي انجيلو لا يمكنك الجزم. فقط قسيس. يمكنه أن يعرف كل ضعف النفس وخطايا الجسد، دون أن أخون سر الاعتراف، أقول هذا لك أنت فقط لا يدهشنى ما تحكيه لى عن المحامي اوراتسيو.

.. كما يقول المثل شجرة الكمثرى لا تثمر إلا كمثرى ودخول هذا النوع من النساء داخل البيوت الخاصة خفية أثناء الليل والنهار من الأمور التي حدثت كثيراً.. و لحسن الحظ لم ينفضح أمرهم في البلدة وما رأيته ليس مدهشاً أو غير عادي في بيت الفاليبي، هذا وغيره يعلمه القساوسة أثناء الاعتراف فليرحم الله المحامي جاني وابنه أوراتسيو. حسناً فعلت بأن صمت، لو علمت بذلك السيدة ادريانا، لتألمت كثيراً. فضلا عن منولارا، لو كانت حية، لاهتز كيائها، فقد كانت تحرص جداً على سمعة عائلة الفاليبي. سأتحدث مع الرئيس فاتا عن ذلك دون ذكر أسماء وحضرتك ينبغي أن تنسى أن الأرق قد أصابك يوماً ما.

انسل الأب أرينا من بينهم وانصرف تاركاً انجيلو ماسكولو راضياً لأنه تحدث إلى القسيس وحكى له عن وساوسه دون أن يشير إلى بعض شكوكه حول هوية المرأة التي لمحها في مكتب المحامي، فكان الأمر سيجعله مثاراً للسخرية. كان يشعر بالخجل من أفكاره الشريرة، مسكينة منولارا، طلب منها المغفرة لأنه اتهمها بالخطيئة وارتكاب الآثام. كان القسيس محقاً فعائلة الفاليبي الأب والابن كانا يحبان العاهرات، ومن يدرى ربما وصل الأمر بالمحامي أوراتسيو بجعل منولارا تصطحب واحدة منهن إلى مكتبه.

عندما عاد إلى بيته قال لزوجته:

«ماريا، أخبرك بشيئين، تذكريهما: عائلة الفاليبي لن تقدر أبدا التضحيات التي قامت بها تلك الخادمة المخلصة منولارا ولا المر الذي تجرعت من أجلهم، والأب أرينا يزداد حكمه مع السنين!».»

وأثناء ذلك كان الأب أرينا يسير على غير هدى في طرقات البلدة، التي خلت تقريبا من الناس في تلك الساعة، كان متكدراً، محبطاً، لم يكن على ما يرام

كان ضوء الشمس الذي يغطي البصر يتبدل مع ظل العمارات و يصيبه بالدوخة. التقى فجأة الطبيب ميندكو، عائدا من زيارة طيبة طارئة والذي دعاه إلى بيته، قبل

الأب أرينا الدعوى وتبعه مثل حمل صغير سار وراءه بين سلام البلدة في صمت،
وحزن وقنوط شديد.

جلسا في صالون منزل ميندكو، ارتشفا سوياً بعضاً من الخمر الخفيف، وشيئاً،
فشيئاً، استفاق القسيس وتحدث الرجلان طويلاً.

كان من السهل بالنسبة للقسيس التحدث معه عن مخاوفه وهواجسه عن عائلة
الفاليبي. كانا بشكل أو آخر زميلين، أحدهما يعالج النفوس والآخر الأجساد وتقابلا
مرات عديدة، كل منهما كان مشغولاً بأداء واجبه، عند رأس سرير أحد المحتضرين.
كانا يعرفان كل أسرار البلدة وإن لم يبح أى منهما بها للآخر. الآن وقد شعرا بالتشوق
والقلق لمعرفة الحقيقة عن عائلة الفاليبي ومنولار، كانا يتحدثان بسرعة وحرية،
يتأملان القصة التي تطورت أمام أعينهم في العتمة الآمنة بصالون بيت ميندكو. كان
الطبيب قد أعطى تفسيراً لما رواه ماسكولو. كانت منولارا تستلم التحف المسروقة
من حفارى المقابر تنفيذا لأوامر أوراتسيو، جامع التحف النهم.

«كان أوراتسيو ذا أهواء جامحة، لا يقف عند حد عندما يرغب في شيء. ربما كان
يستغل منولارا كوسيط في عملية شراء قطع أثرية، كثيرون يفعلون ذلك، خاصة منذ
أن بدأت هيئة الآثار بالحفر في منطقة كاسل. لا أعتقد أنه كان يملك الكثير منها أو
أنها كانت ذات قيمة كبيرة، والا لتباهى بها أمام الجميع، ولكنى لا أفهم لماذا حطمها
الأبناء... كان هناك العديد من الأشياء في مكتبه وكان بعضها جميلاً. أما بالنسبة
للنساء، فكان على عكس والده، لم يكن يعجبه هذا النوع من النساء، كان يعجبه
أكثر المتزوجات، لذا لا أفهم من تستطيع الذهاب إلى بيته في الليل. سيادتك ماذا
تظن؟» أمام هذه الكلمات، كاد الأب أرينا أن يصاب بالأغياء مرة أخرى. ولاذ بالصمت.

الطبيب ميندكو، وقد نسي وجود القسيس، اتجه بناظره ناحية الشرفة، تابع
تطريز الستارة الكتان التي كانت تطيرها الرياح، ثم غمغم بصوت منخفض: «ألا أن
كانت هذه المرأة هي...»

أكمل الأب أرينا العبارة: «منولارا» كان هو أيضاً يهمس كما لو كان يتلو صلاة استغفار. «فعلاً»، قالها الطبيب ميندكو وقد ركز عينيه فوق زهور السرخس المزروعة أمام ستارة البلكون ثم أضاف وهو يتحدث بينه وبين نفسه. «منولارا، بعد سنوات كثيرة قد تدهشني».

غمغم القسيس: «أما أنا فلا تدهشني».

انتفض الطبيب ميندكو أمام هذه الكلمات، أقام ظهره فوق المقعد، وأسند يديه على ذراعي المقعد، وحدث إلى وجه الأب أريانا، كما لم يكن يتوقع أن يجده أمامه قابعا في المقعد بجواره. كرر مسح جبهته التي تعرقت بالمنديل عدة مرات. فقد هزت كلمات القسيس كيانه، الآن يشعر أنه على وشك أن يفقد الوعي، يجتاحه إعصار من الأفكار المتشابكة التي تعصف بعقله.

سأله الأب أرينا وكان أيضاً منزعجاً:

«أيها الطبيب، هناك ما يسوؤك؟»

قال الطبيب:

«لا، شكراً، كل ما في الأمر أني أصبحت عجوزاً وبعض الأشياء أفهمها ببطء، فعقلي لم يعد يعمل كما في الماضي، ثم أضاف بنبرة جادة، مشدداً على مقاطع الكلمات «منولارا لا تكف عن إثارة دهشتي»

رجع إلى النظر خارج الشرفة، كانت الستارة قد ارتفعت واستطاع الطبيب أن يرى ما وراء نباتات البلكونة والسور الحديدي المعشوق، مرتفعات البلدة والجبال. حدث ببصره في السماء التي كادت أن يطغى عليها اللون الأبيض من شدة وهج شمس الخريف.

تجراً الأب أرينا وقال متلعثماً:

«أخبرني أيها الطبيب، فلتفعل وكأنك في جلسة اعتراف.» كان أرينا يشعر أن أمامه نفساً تتعذب مثله.

كان الطبيب يكرر:

« لا فالأمر شديد الصعوبة، ثم عاد ونظر إلى القسيس ووجه إليها سؤالاً:

«فلننس أمر المقدسات ونتذكر أننا بشر، رجلان، إذا تحدثت مع سيادتك عن افتراض ارتكاب جريمة، أو ربما جرمتين، هل تحفظ السر؟»

كانت الإجابة جاهزة: «إن كان الأمر يتعلق بمينولارا، فبكل تأكيد نعم!».»

وبصعوبة في البداية، عاد الطبيب ميندكو للحديث، كف عن التعرق وبدا هادئاً:

«حسناً، سيادتك تعلم أن أوراتسيو الفاليبي مثل منولارا، كان مريضاً بالسرطان. ولم يكن ليطول به العمر على أية حال. كان يخشى أن يتعذب. لم أنجح في تخفيف عنه آلام المرض عنه، فالمورفين يؤخذ في حدود معينة، كان سيتعذب طويلاً وسيعاني من احتضار مؤلم لو لم يميت كما مات في اعتقادي مقتولاً.

ليس لدي أدلة، فقط تشريح الجثة يمكن أن يثبت ذلك وهو من الأمور التي استبعدتها.» نظر مباشرة في عين القسيس ثم عاود الحديث، يوم وفاة أوراتسيو، كانت منولارا في الريف، دليل إثبات تام. كانت تقوم بتمريضه، وقد تركت لها حقن مورفين ومواد أخرى يمكنها أن تكون مميتة قاتلة إذا أخطأت الجرعة. كانت تعلم ذلك تماماً، الأمر يتعلق بجريمة ما يسمى اليوم أيضاً بالقتل الرحيم. « تناول رشفة مياه ثم أردف:» لم أفكر وقتها في ذلك، صدقني، كانت السيدة الفاليبي مصابة بنوبة هيسترية وكان ينبغي أن أعتنى بها، ثم إنني لم أتخيل أبداً أن إخلاص منولارا لأوراتسيو يصل بها إلى قتله.»

خادمة مطيعة، مخلصة لن تفعل ذلك. ولكن امرأة محبة وبيادها حبيها حباً بحب، يمكنها أيضاً أن تقتل الرجل الذي تحبه.» أسند ظهره إلى المقعد وسأل:

أب أرينا، هل تعتقد أن منولار قد أحبت أوراتسيو الفاليبي؟»

«لا أدري. إن كنت تشير حضرتك إلى حب أم إلى علاقة جنسية في الشباب، دكتور، لا أدري حقاً.»

في السنوات الأخيرة من حياة المحامي، كانت تمكث دائماً بالبيت كنا نتقابل لمرات قليلة جداً وبالمصادفة». صمت الأب أرينا لفترة قليلة، حيث كان يمعن التفكير. ثم استطرد متلعثماً: «ولكن لو أحبته، هل كانت تستطيع قتله دون إحساس بالذنب أو الندم.»

أضاف الطبيب ميندكو:

لدى سؤال آخر، أود أن اوجه لك يا أبتى.»

وإذا قلت لك إنها ماتت مسمومة بالحلوى التي أعدتها بنفسها من اللوز المر.»

«لا يدهشني ذلك، لم تكن تريد أن تصبح حملاً ثقيلاً على السيدة الفالبيى وكانت تخشى من تدهور حالتها الصحية فجأة. كانت قد قالت لى إنها كانت مستعدة للموت فقد أدت واجبها نحو الموتى والأحياء. لم تكن مؤمنة كنت أعلم ذلك.» غض الطبيب منديكو جفنيه موافقاً، أمسك بزجاجة الخمر وملاً الكأسين مرة أخرى. بقيا صامتين، وكل منهما غارق في أفكاره، شرب خمر الأمارنت. كانت الرياح قد هدأت. كأننا يتأمل حزمة الضوء من خلال فتحات الستارة المطرزة التي كانت تغزو الحجرة فتشق عتمتها، وتنتهي بالسقوط فوق أرضية الحجرة. وقد حبست حزمة الضوء في حيز أسطواني الشكل، فكانت ذرات الغبار تنبض وتتراقص في حركة دائبة.

تسرب ببطء إلى الطبيب ميندكو والأب أرينا إحساساً بالراحة والاسترخاء والرغبة في النوم.

ووجدتهما على هذه الحالة، السيدة دى بريما، شقيقة الطبيب التي كانت قد دخلت لتحية القسيس والثرثرة معه.

كانت الشائعات قد انتشرت بالبلدة عن المشاجرة العنيفة التي حدثت بين الإخوة الفالبيى حول مسائل تتعلق بأموال وميراث:

كان اللغز حول مينولارا يزداد غموضاً. أصيبت السيدة دى برىما بدهشة حقيقية من رد فعل الرجلين. قالوا في وقت واحد، وبشئىء من المرح فى نبرة صوتهما انه لا يوجد ألغاز حول منولارا رحمها الله. قالت السيدة دى برىما بجفاة: «لا توجد ألغاز؟ وهل تنتظران مصرع أحدهم؟» أجاب الطبيب: «مقتول لا! وغمز بعينه للقسيس وعندما شعر الأب اريانا أنها على وشك الشجار، نهض منصرفاً، حيث كان قد تأخر على مواعده مع بيترو فاتا. أصطحبه الطبيب إلى الباب، اتفقا على أن يتقابلا ليتحدثا مرة أخرى. قال له الطبيب بغمزة من عينه: «تذكر يأبت، لا يوجد اثنان دون ثالث». كان بيترو فاتا قد نسى موعد الزيارة المحددة مع الأب اريانا، من تلاحق الأحداث والساعات الأخيرة العاصفة.

استقبلت السيدة فاتا القسيس فى حجرة الصالون الصغير واعتذرت عن تأخر الزوج حيث إنه استقبل أحدهم فى زيارة غير متوقعة.

كانت مارجرىتا فاتا قلقة، متوترة، كانت قد تحدثت لتوها مع ابنة خالتها اديانا، الحزينة للكارثة الأخيرة التى لحقت بأبنائها بعد سلسلة من المصائب التى لا تنتهى، وقد سقطت فوقهم المكتبة بحجرة المكتب. استمع إليها الأب اريانا بتفهم وطمأن كل منهما الآخر بالتحدث عن آخر الأخبار فى هذا الموضوع.

كان بيترو فاتا قد لحق بهما وشرح أن تأخيره كان بسبب مسألة تتعلق بعائلة الفاليبي. وطلب من القسيس أن ينتظره لمدة نصف ساعة. رفض الأب اريانا الانتظار، و قال متعجباً من جرأته «أريد أن أتحدث معك ياسيادة الرئيس لدقائق قليلة وحدنا».

خرجت مارجرىتا من الغرفة بحجة تركهما وحدهما.

كان بيترو فاتا يتحدث بسرعة تشى بضيقه من طلب القسيس: «يعمل بمكتب البريد، شخص يدعى ريسيكو، شيوعى وهو متزوج من البائعة التى تعمل بمكتبه بيكورولا والتى قد تعرفها أنت أيضاً. وقد تأكد هذا الشخص من أن منولارا كانت

تتلقى أموالاً كل يوم ٢٥ من كل شهر من بنك سويسرى يضم بين عملائه بعضاً من رجال المافيا المعروفين وقد وصل إلى نظرية: أن هناك تحالفاً سرياً بين ماسيمو ليونى ومنولارا تحت حماية المافيا. اليوم وجد موتور عربته الفيات ٦٠٠ محطماً بكتلة من الأسمنت. سواء هو، أو ذلك الجبان مدير البريد لا يدرى من يمكنه حمايتهما». أمام تلك الكلمات لم يتمكن الأب أرينا نفسه من كتم ابتسامة ساخرة: ربما يحمل ذلك حقيقة عميقة. قال لى المدير أن ريسيكو يريد إبلاغ الشرطة ضد كارميلا لارتكابها سلسلة من الانتهاكات القانونية بمكتب البريد، بل يتحدث عن أذئاب للمافيا، تجارة مخدرات، سلاح، باختصار ضرباً من الهذيان، وقد أرسله مدير البريد إلى بيتى كى أتحدث معه وأقع بتغيير رأيه. هو الآن بحجرة مكتبى بصحبة زوجته. لا أدرى كيف يمكن تهديته وإفناعه بالصمت، ستكون كارثة لأبناء اوراتسيو، و أيضاً بالنسبة له.» اضاف الرئيس بقلق.

تحدث الأب أرينا باختصار عما رآه ماسكولو وعن الشكوك حول احتمال قيام المحامى الفاليبى بشراء قطع أثرية مسروقة من المقابر أثناء الحفريات. وأن تكون منولارا متورطة أيضاً بشكل ما فى تجارة الآثار، وهل هذا يفسر العلاقة مع البنك السويسري؟

«أستبعد ذلك، كنت سأدرك شيئاً مثل هذا فقد كنت قريباً جداً اوراتسيو ولم يكن ليخفى عنى مثل هذا الأمر.

أعلم أنه كان يشتري من بعض الفلاحين بعض القطع الأثرية التى كانوا يعثرون عليها فى الحقول، عندما يصطدم الفأس بغطاء مقبرة، ربما أيضاً من بعض سارقى القبور ولكن لم يكن ذلك على هذا النطاق الواسع.

أعرف أيضاً أن منولارا كانت تساعده فى فهرست القطع، وكانت تطلب منى كتابة خطابات إلى المتحف الإقليمى للتعرف على هذه القطع، وقد يكون هذا تفسيراً مقنعاً وربما مقبولاً لريسيكو».

تذكر الأب أرينا الخطاب الذى سقط من ليلا، وأعطاه لبيetro. هاهو يرتكب أثماً آخر، من الأخرى أن يشعره بالخزي، وربما أيضا ينبغى أن يتطهر بالاعتراف وقد ارتكب الإثمين لحماية منولارا، قد يغفر له الرب فقد فعل ذلك بسبب العاطفة التى يشعر بها نحوها، وهو متأكد من ذلك الغفران.

قرأ بيترو الخطابات وأعاده إليه. «هذا يفسر الكثير، و لكن ليس كل شيء».

اشترت منولارا بعض القطع الأثرية المزيفة على إنها أصلية. كان أوراتسيو يستغلها كاسم مستعار فى الاتصال المباشر مع أشخاص من الخارجين عن القانون أو من سارقى المقابر، يؤسفننى قول ذلك. كان أبناء أوراتسيو فى حاجة لبعض الأموال، ففكروا فى بيع بعض من هذه القطع، وبالطبع وبحكمة أرادوا تثمينها. عندما أصيبوا بخيبة الأمل، حطموا كل القطع وتشاجروا أيضاً، ألا تظن حضرتك ذلك؟ انهى قوله، وعاد بيترو فاتا إلى الزوجين ريسيكو.

لحقت مارجرىتا على الفور بالأب أريانا، فقد حدثتها البارون تشيفاليا تليفونياً لتحكى لها تفاصيل الشجار الحاد بين شباب الفالبيى. وليست حكاية سقوط المكتبة. كان الأرب أرينا مرهقاً، لم يكن فى حالة تسمح له بتهدئة السيدة أو الاستماع إليها. فلجأ إلى حيلة تفلح دائماً، اقترح عليها أن يصلى معها صلاة التسييح.

أدت مارجرىتا الصلاة بعناية وأريحية، كان الأب أرينا يقف عند مقاطع كلمات الصلاة ببطء غير معتاد، وقفات طويلة، أيضاً همهمات متعمدة، لإطالة الصلاة أطول فترة ممكنة. وهكذا وجدهما بيترو فاتا، عندما لحق بهما، بعد أن ودع ريسيكو وزوجته. كانت مارجرىتا راكعة على ركبتها فوق وسادة وقد ثبتت عينيها فوق صورة العذراء على البوفيه، والأب أرينا جالس فوق مقعد ونظرته قلقة أحياناً، وأحياناً أخرى تائهة فى الفراغ. كانوا جميعاً مرهقين وقرروا إنهاء الزيارة. وهذه المرة قبل الأب أريانا بصدر رحب دعوة بيترو فاتا على الغداء فى اليوم التالى.

-٤٢- الاثنين يوم شاق لريسيكو

كانت السيدة بيكوريلا والبائعة أليفيرا ريسيكو مشغولتين في المكتبة التي ازدحمت بالطلبة والآباء بحثاً عن الكتب الدراسية. كانوا يتهامون جميعاً، الصبية وقد أصابهم الملل كانوا يمسون بالكتب بشكل عشوائي ينظرون إلى الأغلفة ثم يعيدونها دون أي ترتيب، يجيبون دون أدنى حماس على أسئلة الوالدين، يتوقفون للثرثرة مع زملائهم وهم يمضغون العلكة والتي أصبحت آخر الصيحات بين الصبية.

كان الآباء يستعرضون قائمة الكتب المدرسية ولا يكفون عن الصراخ والشكوى من ارتفاع ثمنها ويتصفحون الكتب المستعملة ويلفتون النظر إلى الشخبة والعلامات التي تركها المالكون السابقون للكتاب ويطلبون التنزيل من ثمنه، ويتشاجرون للحصول على النسخ قبل العملاء الآخرين.

كان جرس جهاز التليفون بجوار الخزينة يرن وقد غطى عواء الزبائن على رنينه. كان جاسبري ريسيكو. اعتذرت الفيرا: «أنا مشغولة جاسبرو.» أردت فقط أن أخبرك أن الرد يؤكد التوقعات، أراك على الغداء.»

واصلت الفيرا خدمة الزبائن، وقد نددت شفتها عن ابتسامة كبيرة أمام النظرة اللائمة من السيدة بيكوريلا.

تأخرت الفيرا على موعد الغداء، كان ينبغي تجهيز المكتبة لغزو بعد الظهر. كان جاسبري قد وصل إلى المنزل بالفعل وكان يتجول بعصية في الصالة. قبلها قبله شاردة وقال: «لدينا مشكلة كبيرة جداً.»

لم أتخيل أبداً ولم أتوقع أن تكون رسالتى إلى زميلي بميلانو بمكتب البريد مراقبة ولكن من الواضح أنها كذلك. لقد تسلمت الرسالة في مظروف مغلق، أثق تماماً أن المظروف كان مغلقاً، ثم إننى مزقتها إلى أجزاء صغيرة وألقيت بها في سلة الأوراق.

وكانت الرسالة تقول فقط « الإجابة على تساؤلك بنعم، احترس » إذن من قرأ الرسالة، كان يعلم بحديثي مع الزميل. ثم في ساعة متأخرة من الصباح، ذهبت لأستقل السيارة كي أذهب إلى مكتب روكا كولمبا الجديدة ولم يشتعل المحرك فتحت غطاء السيارة، كان المحرك مغطى تماماً بالأسمنت الذي جف بالفعل كان يبدو وكأنه عمل نحت معاصر.»

كانت الفيرا تستمع إليه بفم فاغر، مذعورة. أدرك جاسبري ذلك، ولكنه واصل حديثه: «ينبغي التصرف والرد، والتمرد على هذه الأفعال المتعمدة لإخراس الألسنة لذا ذهبت إلى مدير مكتب البريد. وهذا المدير سيطر الخوف عليه، ورجاني أن لا أتحدث مع أحد في هذا الموضوع أو أقدم أية بلاغات، بل إنه طلب مني كصنيع شخصي مناقشة الأمر مع الرئيس فاتا.»

قاطعته الفيرا: «وما دخله في ذلك؟»

«كيف وما دخله؟ أنه واحد من هؤلاء الرأسماليين الذين لم يعملوا يوماً واحداً في حياتهم، كان صديقاً للمحامى الفاليبي ويعرفهم جميعاً، رجل يحظى بالاحترام وذلك الأحمق مدير البريد كان قد حكي له عن ليوني والخطابات، لذا يريد أن أذهب وأتحدث معه، قبل أن أقوم بواجبي بالإبلاغ عن ليوني، وأولئك المجرمين الذين خربوا سيارتي الجديدة! هذا أمر غير مقبول، اعتداء يمس حقوقى كموظف وكمواطن.»

كانت عينا جاسبري تلمعان ويدفع بقبضتى يديه داخل جيبي السترة كان على وشك تمزيق البطانة، لو لم تمسك الفيرا بيديه برقة بين يديها ناظرة إلى عينيه مباشرة، وتقول له بنبرة حاسمة هادئة: «يجب أن ترضيه، كان دائماً لطيفاً معك، ويقدرك وأعتقد أيضاً أنه يحبك. سأتى أنا أيضاً معك إلى الرئيس، يجب أن أسلمه بعض الكتب»

قرأت الفيرا إشارة موافقة فوق شفتى جاسبري، واتجهت نحو المطبخ ومن هناك واصلت الحديث:

«يمكننا أن نتغاضى عن الأمر، ولا نقدم بلاغاً ضد ليوني ونكتفى بإخبار الشرطة عن الضرر الذى لحق بالسيارة. أطلت من باب المطبخ وقد أسندت ساعدها إلى حلقة الباب وقالت: «جاسبرو، اتصل بمدير مكتب البريد، لنحدد الموعد فوراً مع الرئيس فاتا ثم نتناول طعامنا.»

همهم جاسبري: «ينتظرنا في الساعة الرابعة والنصف.»

«مثل هذه الأشياء تحدث، لقد أذهلتهم، وستدهش أيضاً الرئيس فاتا.» واستطردت: «الآن لنحضر طعام الغداء معنا ثم سأتصل بالسيدة بيكوريللا.» كانت هذه إحدى المرات النادرة التى ساعد فيه جاسبري ريسيكو زوجته في إعداد المائدة بل إنه تَبَّل السلطة الخضراء بدلاً من النظر إلى زوجته أثناء تحضير طعام الغداء. خرجا من المنزل في أول بعد الظهر مارين بالمكتبة لأخذ الكتب التى ينبغى تسليمها إلى الرئيس فاتا. طوال الطريق تأبطت الفيرا ذراع زوجها ولم تتركه إلى أن وصلت إلى البوابة الخارجية لقصر فاتا. طوال درج السلم المرتفع لروكوكولمبا، الطرق المتعرجة للأزقة الضيقة، لم تكف عن الثرثرة للتسريحه عنه وتشجيعه وعندما شعرت بجاسبري يضغط جانبها بيده، فهمت أنها نجحت.

استقبل الرئيس فاتا بنفسه ريسيكو واقتاده إلى حجرة المكتب، شكر الفيرا على مجلدات دانونسيو التى أحضرتها. وقد شجعتها كلماته الرقيقة على الحديث والذى اسهبت فيه دون حرج، عن مطبوعات جديدة من الكتب النادرة وبذا أعطت الفرصة لبيترو فاتا لتأمل الزوج الصامت والذى بدا عليه القلق بشكل واضح. قاطعتهم لوتشيا قائلة: السيدة تود الحديث مع الرئيس لأمر عاجل. استأذن منهما بيترو بعد اعتذارات شتى. وعند عودته وجدتهما ينظران من النافذة وقد التصق كل منهما بالآخر، كان منظرهما يثير الحنان. أراد أن يتحدث وحده مع جاسبري ريسيكو، واقترح على الفيرا بأدب ولطف حبرها، أن تجلس في الصالون الصغير لتصفح بعض الكتب القديمة التى كانا قد تحدثا عنها من قبل.

استهل بيثرو فاتا حديثه قائلاً:

«أخبرني، سيد ريسيكو، دون إغفال أية تفاصيل عن التحريات التي قمت بها حضرتك بمكتب البريد عن انسيريللو.»

أجاب جاسبري: «أية تحريات؟» وكانت تساوره الشكوك حول الاحترام الزائد والمدروس من قبل فاتا لزوجته وربما كان يشعر أيضاً بالغيرة.

«لنتحدث بصراحة، نتقابل اليوم، لأن مديرك حكى لي عن سيادتك، وعن الضرر الذي لحق بسيارتك. أصبحت نبرة صوت بيثرو فاتا أكثر جدية وحده: ليس لدى أي منا وقت لنضيعه. سأحدث أولاً لأظهر لسيادتك حسن نيتي. أنا قلق جداً على أولاد الفالبيبي الثلاثة. كان والدهما صديقي الحميم وأهمهم ابنة عم زوجتي: أريد أن أفهم لماذا يتصرفون بهذا الشكل الكريه بعد موت خادماتهم وأيضاً لماذا بعض الناس مثل سيادتك تفعل الآن ما يقلق المافيا، بل أيضاً مما قد يثير غضبها.»

تجهم وجه بيثروفاتا، واستمر في الحديث: «في هذه الحالة، قد تختفى ياسيد ريسيكو أو ينتهي بك الحال جثة ملقاة في أحد الحقول. إذا أردت أن نحاول فهم شيء معاً، ونصل إلى حل، أنا تحت أمرك. هدي أن أحمى أبناء أعز أصدقائي من تصرفاتهم غير اللائقة وغير العقلانية التي قد تهدد حياتهم وتعكر صفو حياة أهمهم، فما هو هدفك؟» استحسن جاسبري صراحة الرئيس وحدثه عن نظريته عن ماسيمو ليوني وعن أن هناك خطة من المافيا، تضطلع فيها اينسيريللو وليوني بدور محدد تهدف إلى إدخال تجارة المخدرات في روكاكولمبا كما حدث في المدن الأخرى ثم السيطرة وتنمية النشاط العقاري حول البلدة وهو يريد التعاون مع الحكومة لإجهاض هذه الخطة.

«فسر لي لماذا تهتم المافيا كثيراً بالتوسع العقاري، هنا في روكاكولمبا...»

« سيدى الرئيس سيادتك تعلم أن المافيا تحت السيطرة والمراقبة في المدن الكبيرة، النيابة تستطيع القضاء عليها بضربة واحدة، لذا اتقاء للهجمات، تنسحب إلى المراكز الصغيرة لتعود بعد ذلك للهجوم. » كان واضحاً أن جاسبرى يكرر ما قاله من قبل ولكن هذه المرة بعاطفة قوية « ما الذى يجعل سيادتك تعتقد أنها تحت ضغط وأنها تفقد سطوتها؟»

«يكفى قراءة الجرائد، قراءتها وفهمها بالطبع. هناك من يتمرد، من لا يريد أن ينكس رأسه، لذا ينبغى مساعدة أولئك الأشخاص. أقصد الناس، أثناء محاكمة توماسو ناتالى عرضت أرملة بيترو مسينا أن تدلى بشهادتها ضد القتلة. ثم أجبرت على تغيير أقوالها، فقد هددوها وهددوا أبناءها ولكن آخرين ينجحون في تحدى المافيا، نوابنا الشيوعيون يحاصرون الحكومة بالاستجوابات، نحن فى صقلية، نريد فرص عمل، تنمية، مستقبلاً، رئيساً».

كان ذلك الشاب المثالى يعجب بيترو فاتا، فكر فى سؤاله عما إن كان لديه أولاد، ثم لم يفعل.

أفهم. « سيادتك تريد تغيير العالم» قال واختتم حديثه: «حسناً تفعل»

«صقلية، يا سيادة الرئيس، أريد تغيير صقلية. عمل، مياه، تنمية، عدالة، أنا أومن بالعدالة.» قالها جاسبرى بمبالغة ولكنه كان حريصاً على ألا يجعل من الرئيس فاتا خصماً له. « أعتقد فى محاربة الظلم، محاربة الفساد، أحارب من أجل حقوق العمال، من أجل المساواة بين المواطنين.

ومن أجل هذه المبادئ أنا مستعد للتضحية وأيضاً للمخاطرة.» فكر بيتروفاتا فى ولده جاكيمو، شاب مهذب، يحظى بثقة الجميع، كان ولداً حى الضمير، إدارياً بارعاً، ابناً وأباً وزوجاً عطوفاً. مختلفاً عن ذلك الشاب، الذى يلقي على مسامعه بحمية معتقداته. كان يود معرفته أكثر ولكنه كان يعلم أن ذلك أمر غير محتمل. قال الرئيس بنبرة هادئة وحادة. كتم فيها انفعالاته الجديدة غير المتوقعة: أتسمح لى أن احلل مع سيادتك بعض أفكارك عن انسيريللو وليوني:»

سأبدأ من مقدمة أن انسيريللو تتمتع بحماية المافيا. على افتراض قد يشرح هذا الموقف المعقد، أولاً كانت تضع أموالها في البنك السويسري كما تأكدت حضرتك. إذن كانت تحظى بمعاملة خاصة، ثم كانت تتلقى مبالغ مالية كبيرة عن طريق البريد، هذا يتطلب وجود صديق أو زميل لها، رجل من المافيا، يراقب عدم سرقة هذه الأموال وفي حالة انسيريللو وصول الخطابات بشكل منتظم ودقيق. الثالث: كانت انسيريللو تعطى جزءاً من أموالها لأبناء الفالبيى الثلاثة. رابعاً: في جنازة انسيريللو تحضر شخصية معروفة من المافيا. خامساً: موظف بمكتب البريد، حضرتك، سيد ريسيكو تقوم ببعض التحريات عن الموضوع، فيخربون موتور سيارتك.»

أغلق الرئيس فاتا راحة يده التي كان يعد على أصابعها الخمس النقاط الرئيسية وظل قابضاً على أنامله بينما كان ينظر إلى جاسبري.» سأثبت لك الآن ثقتي الكبيرة في سيادتك، وأكشف عن معلومات يعرفها القليلون، أسألك فقط أن تحتفظ بها لنفسك وألا تتحدث بها مع زوجتك.»

رفع إبهام كفه المقبوض، وبدأ العد من جديد. «سادساً: يتلقى مدير مكتب البريد تحذيراً بالاً يفكر بأمر مراسلات انسيريللو، لذا لجأ إلى في الأسبوع الماضي. سابعاً: علمت ظهر اليوم أن حديقة أحد أثرياء المنطقة خربت ربما لأنه تحدث بشكل مهين عن المرحومة انسيريللو وذكر أنها كانت عشيقة لأحد رجال المافيا. ثامناً: أبناء الفالبيى، أثناء بحثهم عن أموال، يظنون امتلاكهم لقطع أثرية اشتريتها انسيريللو، فيقومون بما ينبغي عمله في تلك الحالة، ويرسلونها إلى خبير لتقرير إن كانت حقيقية أم لا. وعندما يعلمون أنها مقلدة، يحطمون كل مجموعة صديقي أوراتسيو التي ربما ليس لها أى قيمة، بل ويصل بهم الأمر إلى التشابك بالأيدي.

هذه أحداث وقعت اليوم. هذا الخبر الأخير أبرز أمام عيني افتراضاً آخر للموضوع بكامله. إن أردت سيادتك يمكنك استدعاء السيدة زوجتك وسأشرح لكليكما الافتراض الذى وصلت إليه.»

اختارت الفيرا مقعداً بجوار زوجها، وظل بيثرو فاتا واقفاً، وبدأ يتحدث: «سيدتي أعذر عن سوء الأدب معك، ولكنه كان ضرورياً. أود أن أحكي لك عن انسريلو، التي تعرفونها باسم منولارا. «استعدت الفيرا، لسماع الحكاية، مأخوذة:

«تيمت وهي طفلة، واستطاعت إعالة أختها الكبرى المريضة ممرتها كخادمة، التحقت بالخدمة في بيت الفاليبي وهي لاتزال صبية، وكانت السيدة ليلا يرحمها الله قد أحببتها وتولت رعايتها، وقد وفرت لها دروساً وخاصة. هكذا تعلمت القراءة ولكنها لم تتعلم الكتابة. كانت ذكية، قوية الإرادة، وكانت تساعد كثيراً السيدة أيضاً في إدارة الأملاك.

وبعد موتها أصبحت عملياً المسئولة عن إدارة أموال وممتلكات العائلة، وهو عمل أنجزته بنجاح، كانت تساعد أيضاً أوراسيو، صديقي الحميم في نشاطه في جمع القطع الفنية.

كان أوراسيو واسع الثقافة، متعدد الاهتمامات ومن بين اهتماماته، كان مولعاً لفترة بجمع القطع الأثرية، التي كان يقتنيها من سارقي المقابر. لم أكن أوافق على هذا التصرف ولكنني لست هنا لإصدار أحكام. حسناً، قال، وهو يلتقط أنفاسه، «ساعدت منولارا صديقي في شراء القطع المسروقة على حد علمي من تجار كانوا يزعمون أنهم بائعو خضراوات. ربما عن طريق ذلك، تعرفت على رجال المافيا الذين يسيطرون على هذه التجارة.

أظن أنه في مقابل قطع أثرية، (أو أشياء مقلدة كما اتضح في الحقيقة)، قبلت أن يستغل رجال المافيا اسمها في عملياتهم. كانت منولارا تتلقى رسائل، وأموالاً، ومستندات موجهة لآخرين وتحفظ بجزء من المال مقابل اسمها المستعار.

وفي هذه الحالة، كترس صغير في آليات المافيا، تحظى بالحماية، ولا يستطيع أحد المساس بها مثل الآخرين، وهذا تفسير وجود زعيم للمافيا بجنازتها، ليس فقط دليلاً

على الاحترام ولكن أيضاً السلطة. وهذا أيضاً تفسير الأموال التي بحوزتها المشكوك في مصدرها، وأيضاً كرمها مع أبناء الفاليبي التي كانت تعتبرهم مثل أبنائها.

«بينما آل الفاليبي، يؤسفي قول ذلك، فهم. . جشعون متغطرسون وسفهاء. مثال سئ لعائلة كان يمكنها أن تساهم بإيجابية في حياة المدينة. يريدون فقط الاستمرار في استغلال كرم منولارا معهم، فأرسلوا كارميلا أكثرهم حماقة إلى مكتب البريد، لحسن الحظ الموظفة بالمكتب وحضرتك سيد ريسيكو رفضتما تنفيذ طلبها.»

أمسكت الفيرا بيد جاسبري وضغطت عليها، وأسندتها إلى حجرها دون أن تخفض عينيها عن الرئيس.

«لن أتحدث عن ماسيمو ليوني. صدقوني، لا يوجد صاحب عمل جاد، أو أحد من المافيا يمكنه أن يسند إليه أدنى عمل مهما صغر، فهو لا يجيد شيئاً، إلا الثرثرة.

لن يقتل كارميلا ضرباً، أنا واثق من ذلك فهو رعديد.

«أتعجب وعند ذلك نظر مباشرة إلى وجه الشاب جاسبري» أتعجب من أن شخصاً ذكياً ومثقفاً مثل سيادتكم يرتكب مثل هذا الخطأ الذي إن سمحت لي يعتبر خطأ كبير» إعطاء أهمية لليوني..» اكتفى جاسبري بخفض رأسه قليلاً، كما لو كان قد قام بعمل الحسابات ووصل إلى النتيجة.

«ليس له أي صلة بمنولارا، التي كنت أعرفها جيداً وأقدرها. كانت امرأة جادة وأحياناً عنيفة ربما لتفرض احترام الناس لها، ولكن مع الأطفال والضعفاء كانت صبورة ورقيقة.

أقول لك شيئاً آخر «كانت منولارا تكره العنف والإيذاء الجسدي لم ترد أبداً التعرف إلى ليوني لأنه كما كانت تقول مارس العنف ذات مرة مع امرأة.»

انتظر الرئيس أن توتى كلماته بأثرها.

«إن لم تفكر في سحب البلاغ ضد كارميلا الفاليبي؟ فكر على الأقل في نتائجه، قد تقتلك المافيا التي تحمي انسريللو، قطعة الشطرنج الصغيرة في لعبة أكبر منها. عند هذه النقطة ذهب بيترو إلى فتح أبواب الشرفات التي تطل على التراس ودعى الزوجين ليتبعانه.

استطرد: «بالنسبة لما لحق بالسيارة، من الصواب إبلاغ الشرطة.»

إذا تلقت الشرطة بلاغات كثيرة ضد مجهولين، فإن ذلك سيكون جزءاً من الإحصائيات التي تستغلها كل الأحزاب السياسية بما فيها حزبكم لزيادة الأموال والمساعدات الموجهة لمحاربة المافيا، والتي عن طريق قنوات معروفة ومحمية من النظام تنتهي في جيوب أناس تضع الأسمنت في سيارة زوج من شباب الموظفين، وهم أكثر دناءة ممن أمرهم بفعل ذلك.

«سيد ريسيكو، حضرتك إنسان لطيف، وأتمنى أن تعيش طويلاً فلتنس عائلة الفاليبي، ليوني وأنسريللو ولتستمر في عملك: لست أعنى فقط وظيفتك في مكتب البريد ولكن أيضاً نشاطك المعروف في مجال السياسة.»

«تجنب الرئيس أن ينظر إلى جاسبرى في عينيه كان متأكداً من شخصيته، خاف أن تفلت منه نظرة حانية.

استند إلى سور الشرفة وبقي الثلاثة في تأمل أشجار الياسمين المتسلقة التي التفت حول أغصان نباتات الغليسين النامية فوق أحجار القصر.

استطرد الرئيس:

«تعجبني شجاعتك، في الحقيقة ليست لدى نفس الشجاعة. لم أقمرد على جمود التقاليد الاجتماعية التي ولدت فيها، لم أنجح بإقناع والدى بترك أختار الدراسة التي أحبها. بقيت هنا في بيت العائلة، أرعى الأملاك كما فعل أجدادى، وأسلافى، دائماً ملتزم بالتقاليد. أنتمى إلى عالم آخر، كما يمكن أن تسميه، أنتمى إلى اليمين، ويقدر مايوسفنى إلا أننى لا أقدر أن أكون انساناً آخر.»

كانت الشمس تعلن المغيب الوشيك. وفاح في الهواء أريج زهور الياسمين.

كان ضوء محمر حسى يضيء كل روكاكولومبا، ويربت فوق المقاعد والمناضد الحديدية الصغيرة بالتراس فيرسم ظلالاً لرسومات أربيسك فوق الأرضية الرخام الأبيض والأسود.

قال فاتا ناظرا إلى المنظر الذى يتجلى أمامه:

« انظر يا سيد ريسيكو، أنا أعتقد أن التغيير أمر ضرورى، وسيحدث. لا أدرى متى، ولكنه سيحدث. لا أدرى إن كان سيحدث التغيير الذى تتمناه. معرفة من هم الاعداء ليس أمراً بسيطاً. انظر إلى بلدتنا هذه. قصر الأمراء أصبح أطلالاً منذ عشرات السنين، غلاف أجوف. نحن فقط من يدرك حقيقته من هذا التراس، وليس أحد آخر. يبدو فخماً متين البنيان. هناك من يريد الحصول عليه وترميمه. ومن يريد تحويله إلى مركز ثقافى للبلدة. الواقع أنه لم يعد له وجود. أصبح ما يمثله من سلطة سراباً، وهماً. أتسلى فى بعض الاحيان بفكرة اختفائه، انهياره، مثل جزيرة فردينانديا.» ابتسم. ابتسامة تكاد تلاحظ، وكأنها حركة بشفتيه.

« ليونى، واينسريللو لا يستحقان وقتك وإهدار طاقتك. فكر بأشياء أخرى، اتبع معتقداتك ومبادئك ولا تشغل بهؤلاء الناس»

قالت الفيرا بسرعة: « وسيادتك أيضاً تستطيع أن تفعل الكثير.»

« أشرك يا سيدتى، ولكن الأمر ليس كذلك.»

عند ذلك التفت بيترو فاتا إلى جاسبرى ريسيكو: «تعلمت ممارسة فن الممكن. الممكن، أفهم؟ الهدف تحقيق سعادة بسيطة، لكنها مستمرة. حفيدتاى، اجتماعات اتحاد الزراعيين، وحجرة مكتبى. أرضى عقلى وحواسى بالكتب.

وهنا من خشبة مسرحى، اتمتع بذلك الجمال الأخير.»

في المساء، كانت الفيرا تعلق قائلة: «ولكن أنت أيضاً شعرت بالخوف. أدركت ذلك فوراً عند عودتي للبيت، لم تكن حبيبي جاسبري الذي أعرفه، إنها تجربة رهيبة... لقد كنت شجاعاً، ولم تجعل الخوف يسيطر عليك، لم أكن لأستطيع مثل ذلك.»

كانت تشعر بانقباض معدتها، وبإحساس غامض بالرغبة في القىء، سنتخطى هذه التجربة المؤلمة معاً.»

« الخوف؟ على نفسي، لم أشعر به إطلاقاً، عليك، نعم، كثيراً، على أبنائنا في المستقبل» كثيراً. شعرت بالخوف عليك انت يا سكر حياتي، شعرت بالقلق.» كان جاسبري يستعيد هدوءه أخيراً، ومسح على خديها في أول لمسة لها في هذا اليوم، قرصة صغيرة عفيفة بخدها، ابتسمت الفيرا، نهضت من على المنضدة، وقبّلتها قبلة طويلة بطعم الطماطم.»

الثلاثاء ١ أكتوبر ١٩٦٣

-٤٣- خطاب آخر يصل من منولارا

كانت السيدة الفاليبي وابنتها جالستين بالصالة. كن قد استيقظن عند الفجر، منهكات بعد ليلة صاخبة، ينتظرن قدوم سائتا بقهوة الصباح. كن خائرات القوى، بعد هوس التدمير بالليلة السابقة، ثم العمل المضمنى لاعادة حجرة المكتب على ما كانت عليه، والتخلص من قطع الفخار المكسورة وإزالة آثار الشجار وحفظ المظاهر ثم المناقشات المؤلمة بعد ذلك.

وفي الليلة السابقة، أقنع الأبناء الأم باتخاذ بعض القرارات.

ينبغي تجهيز مكان إقامة لها وحماية كارميلا.

وقد قرروا أن تعيش الأم بمنزل الابنة، أو قصر العائلة مع كارميلا في حالة انفصالها عن ماسيمو لتنفذ نفسها وإرثها منه. قرروا أيضاً بيع منزل منولارا وإصلاح قصر العائلة بثمانه، ليلا ستعود إلى روما ومعها جرتا الفخار المقلدتين، أما جاني فسيرجع إلى كاتنيا. وسيظلون على اتصال تليفوني، كان واضحاً أن ليلا وجاني لا يريدان الاستمرار في النظام الصارم لزيارة أمهم، والذي فرضته منولارا. لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى نسيان ما حدث، ونسيان منولارا وشرورها.

لن يتحدثوا بسوء عنها لأسباب واضحة وعلى أية حال فإن مصدر ثرائها.. وسبب حماية المافيا لها لم يتم الكشف عنهما.

قالت كارميلا وهي تنظر بقسوة إلى أمها:

«ينبغي توخي الحذر، يجب الاحتياط في الحديث مع خادمتي، وتذكرى أن ما حدث لنا عقاب عادل جراء الثقة المفرطة بالخدم».

دخلت سائتا حاملة القهوة والبريد. فتحت ليلا الخطابات، وكان أغلبها خطابات تعزية، أعطتها لكارميلا والأم.

كان هناك مظروف وقد كتب العنوان فوقه بالآلة الكاتبة. فتحته بشرود معتقدة أنه مطالبة مالية بدفع أو فاتورة، ولكنه كان خطاباً آخر من منولارا.

«لقد أحسنتم صنعاً بتنفيذ ما قلته لكم. الآن لديكم شهادة تسمح بخروج الآنية الخزفية الأثرية الثمانية إلى الخارج. عودوا بها إلى البيت إن لم تكونوا قد فعلتم ذلك بالفعل، اذهبوا إلى حجرة مكتب والدكم. افتحوا الرف المقابل للرف الذي أخذتم منه الصناديق الثمانية خلف الباب الوهمي، هناك ثمانية مزهريات فخارية مطابقة لتلك المقلدة. مزهريات حقيقية. فقد قمت بعمل نسخ منها للحصول على شهادة تمكنكم من بيعها أو إخراجها من إيطاليا.

بدلوا المقلدة بالحقيقية، وسافروا بها إلى زيورخ خلال خمسة عشر يوماً من اليوم، اتصلوا فوراً بالمتحف الأثرى بزيورخ وقلوا أنكم تريدون تحديد ميعاد وأنكم من طرف السيد مينولارا. إنهم ينتظرونكم يمكنكم الاحتفاظ بها أو بيعها.

مدير المتحف يعرف مدير البنك الذي أضع به أموالى، يمكنكم الحديث معه عن الأموال بالبنك التى تستحقونها الآن لأنكم اطعموني. افعلوا ما ينصحكم به. قالت ليلا وهى تمد الخطاب إلى كارميلا « خذيه، اقرأيه » ثم أجهشت بالبكاء.

٤٤- الأب أرينا يزور السيدة الفاليبي ويرى

أثر الدمار الذى لحق بمقتنيات أوراتسيو الفاليبي

كان الأب أرينا متوتراً عند زيارة منزل الفاليبي في هذه الساعة المتأخرة من صباح الثلاثاء. وجد السيدة الفاليبي وحدها متكدره واجمة. أخبرته برحيل ليلا، وجانى وبأنها استسلمت لفكرة الحياة مع كارميلا التى يتعرض زوجها لهزة عنيفة. كانت محبطة من الأبناء وتفتقد منولارا.

لم يدر كيف يخفف عنها، فكر الأب أرينا في أن يطمئنها على استلام فاتا أخيرا لكتب دانونسيو.

أشرق وجه السيدة، وأرادت اصطحابه فوراً إلى حجرة المكتب لاختيار كتب أخرى.

دخل القسيس إلى حجرة مكتب المحامى الفاليبي بخطوات وثيدة. كانت آثار التخريب لا تزال ظاهرة، على الرغم من أن الحجرة قد أعيد ترتيبها. الأرفف العلوية للمكتبة التى كانت تحوى الكتب القديمة لأوراتسيو في صفوف متراصة خلت من الكتب، بينما تكومت في الأرفف السفلية المجلدات التى نجت من الاعتداء وقد وضعت دون ترتيب، تلك المجلدات التى عشقتها منولارا وكانت فخورة بترتيبها طبقاً للحروف الأبجدية لأقسام الآداب والفنون.

اختفت قطع الخزف الجميلة من فوق الأرفف الصغيرة وأيضاً قطع التحف من فوق المناضد والفضيات فوق البيانو، كان جليا أن الغرفة تعرضت للعنف. تراكمت خلف البيانو عشرات الأكياس الصغيرة، الواحد فوق الآخر وكانت أكياساً من الجوت، تلك التى تستخدم لحفظ اللوز.

شعر الأب أرينا أنه شاهد ذلك من قبل عندما زار أثناء الحرب، مكتبة خربة خربها المتشردون فكر القسيس كانت حجرة المكتب هى كنيسة منولارا التى خصصتها لضم معتقداتها: المعرفة، الجمال، ومن يدرى ربما أيضاً الحب والآن قد

دنست. شعر الأب أرينا بالخجل من التشبيه المهين للمقدسات، وركز تفكيره في اختيار الكتب التي يجب أن يحملها إلى البيت.

كانت السيدة أدريانا تنتظره وقد استندت إلى الأريكة أمام المدفأة، الكائنة أمام البلكونة المطلّة على حجرة طعام عائلة ماسكولو. كانت المرأة الكبيرة المعلقة فوق المدفأة والمائلة قليلا تعكس صورتها. تبادل إلى ذهن الأب أرينا وصف المرأة العارية التي لمحت في حجرة المكتب، وشعر بالضيق والإثارة في نفس الوقت فأراد الخروج من تلك الحجرة المليئة بالظلال والإيحاءات، أخذ الكتب دون تفكير وعاد إلى الصالون. وأثناء ذلك وصل الطبيب ميندكو في زيارة. بقى لمدة قليلة كانت السيدة الفاليبي تجد الراحة في الحديث عن فضائل جديدة لمنو. «عرفت الآن ماذا كانت تفعل كل يوم بعد الظهر، كانت تغلق عليها باب مكتب أوراتسيو بعد وفاته، لتدرس الفن اليوناني، كانت تكمل عمل زوجي. اتساءل كيف لم أدرك تشابه الاهتمامات الفنية بينهما، ربما لم يدرك هو نفسه ذلك.»

كانت منو متحفظة جدًا، إنسانة مخلصه مثلها، لا يمكن العثور عليها اليوم في روكا كولمبا. كنت أقول ذلك لأبنائي ثقوا بمنو. .. «ولكن الشباب لا يستمع إلى الآباء كما كان يحدث من قبل» حضر آخرون للزيارة وانصرف الاثنان.

-٤٥- الأب أرينا يتمشى طويلا مع الطبيب ميندكو

رسخ حديث اليوم السابق بين الأب أرينا والطبيب ميندكو تلك العلاقة الحميمة التي يخلقها اقتسام الأسرار بين البشر. كانا يريدان قضاء بعض الوقت معا وقررا القيام بتمشية قبل الغداء.

لم يهدأ بال الطبيب ميندكو منذ اليوم السابق لأنه لم يحلل جيدا ظروف موت أوراتسيو، كان يريد معرفة معلومات أكثر عن منولارا، وشرح ذلك للقسيس: «كنت أعرف أنها ارتبطت معه بعلاقة حميمة، و ظننت أنها انتهت بعد عملية الإجهاض قبل الحرب».

دهش الأب أرينا: «يؤسفنى ذلك، يا لها من امرأة مسكينة، لم أكن أعلم أنها تعرضت أيضا لعملية إجهاض».

«كانت المأساة الكبيرة في حياتها. كانت تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها مفعمة بالحياة، تبذل نفسها بكل حماس لرعاية الأبناء الثلاثة بعد مولد كارميلا بفترة قصيرة. لم يرد ذكر اسم أوراتسيو، كما يحدث دائما في هذه الحالات، ولكن كان من الواضح أنه الأب. أتخيل أنه بعد أن مل زوجته، اتجه بانجذاب مبالغ إلى منولارا التي كانت في ريعان الشباب، ويجب أن أقر أنها كانت شابة غضة. أرادت إجراء عملية تعقيم، ولم تحاول السيدة ليلا التي كانت بصحبتهائها إثناءها عن ذلك.» كان الطبيب يحاول الحديث عن تلك الأحداث بشكل مختصر مراعاة لأسرار المرضى.

شعر الأب أرينا بضرورة إيضاح سبب امتناع منولارا عن الحديث معه عن الاجهاض: «بعد خلاف كبير بيننا، الوحيد الذى حدث بعد سنوات طويلة من الصداقة، والتفاهم منذ ذلك اليوم، لم نتحدث أبدا عن أوراتسيو الفاليبي في ذلك الشأن.»

«أية مشاجرة؟»

«اسمع يادكتور، تعرفت بمنولارا عندما كانت تعمل بمنزل الفاليبي. كنت أدرس لها اللغة الإيطالية وقواعد الحساب كانت تتعلم بسرعة كل ما تحتاج إليه، وكنا نقضى بقية الوقت في الحديث عما يهمها. كان ذكاؤها غير عادي، كانت تشعر بالأسر داخل منزل الفاليبي ويتأجج الغضب في صدرها.»

«الغضب ممن؟»

«من الله قبل الجميع. كنت أشجعها على القراءة في كتب الصلاة ولكنها كانت ترفض. وذات يوم قالت لي: 'كانت أمي تعلمني أننا جميعا متساوون، أنا وأنت والملكة، الفرق أنك قسيس والملكة ملكة وأنا خادمة في منزل الفاليبي. وإذا أدى كل منا عمله كما ينبغي، سنحظى باحترام الآخرين. يجب أن يفكر الله أيضا فينا يساعد الطيبين ويعاقب الأشرار. الرب لا يعجبني، فكان واجبه ألا يحرم والدي، الراحلين، من الخبز والدواء، وكذلك أختي ادولوراتينا المريضة. لم يكن عادلا معي، والظالم يدفع ثمن ظلمه، آجلاً أو عاجلاً لو لم يقم بواجبه فلن يستحق صلاتي». كان يظهر، من حديثها عداؤها للنظام الاجتماعي، طبقة الأغنياء التي ورثت سلطة وأموالا دون أن تكسبها بعمل، والفقراء الذين حرموا فرصة الدراسة والعمل.

باختصار كانت ناثرة حقيقية في شبابها. كانت ضد الطبقة ولكنها كانت راضية بقدرها، بالحياة التي رتبها أمها لها: الخدمة ببيت السيدة ليلا وعائلة الفاليبي، الحفاظ على اسم العائلة حتى الموت في مقابل أن تدفع السيدة ليلا علاج أختها المريضة وكانت تدخر مرتبتها لتجهيز أختها، و تزويجها ثم رعاية أبناء شقيقتها.

أما بالنسبة لها فكان عليها السعى للحصول على المتع المسموحة لها داخل تلك الحدود.»

«وما دخل أوراتسيو بذلك؟»

«كانت منولارا في شبابها تشعر بحاجة شديدة إلى العاطفة، وكانت تتوق إلى المتع الحسية ولكنها كانت مترننة. كانت العلاقة الحميمة مع اوراتسيو وخاصة في بدايتها

تمثل لها شيئاً خاصاً: سلاح لإجبار السيدة ليلا على الاعتناء بأختها التي أجبرت على الحياة مع اليتيمات بدير الراهبات. وكانت ليلا تحرم على ادولورتينا المجيء إلى البيت خوفاً من العدوى، لذا كانت اليتيماتان تلتقيان نادراً و فقط في الدير.»

قال الطبيب: «لقد أخبرت السيدة ليلا مرات عديدة بأن ادولورتينا لم تعد حاملة للعدوى، وكنت أرى في ذلك المنع قسوة وغباء. أذكر حديثاً مع منولارا آدمى قلبي. كانت قد أتمت لتوها الخامسة عشرة وذات يوم طلبت أن تحدثني على انفراد. أخبرتني بنبرة جادة أنها قد ادخرت بعض النقود وطلبت أن أعدها بإبلاغها، إن كانت صحة أختها قد تدهورت أو كان يلزمها بعض الأموال لشراء الأدوية، وأنها مستعدة لدفع ثمنها. في الحقيقة لم يكن ذلك ضرورياً لأن السيدة ليلا كانت تدفع بسخاء لعلاج أختها وقد أدهشني ذلك نظراً لمعرفتي ببخلهم.» ثم أضاف: «أبتاه، اسمح لي أن اخبرك أنني لا أفهم كيف أمكنها ابتزاز سيدتها وهي اليتيمة الوحيدة... في ذلك الوقت كان استغلال السيد الصغير للخادمة من الأمور العادية تقريباً.»

لفت الأب أرينا نظره: «لو لم يكن بسبب ذعر السيدة ليلا من أن يصاب أوراتسيو وفيشينسو بما أصيب به الأب، فكر سيادتك في ذلك.»

«أمراض جنسية، تسببها العاهرات المريصات المسكينات.» فهم الطبيب وشعر بتوافق مع القسيس.

«بالضبط، فوجدت للابن الأكبر والمفضل، إذا سمحت لي، العاهرة النظيفة بالمنزل والتي كان يمكنها أيضاً رفض ممارسة الجنس معه، وفي ذلك تكمن سطورة منولارا.»

قال الطبيب ميندكو معترضاً على حكم الأب أرينا القاطع:

«أستبعد أن تقبل منولارا، التي أعرفها، وضعاً مثل هذا.»

«يا دكتور، أنا أيضاً كنت أحب منولارا واحترامها، اسمع هذه هي كلمات منولارا التي قالتها لي وكانت سبباً في اختلافنا.» كانا قد خرجا من البلدة وابتعدا عن

الأذان المتطفلة وكانا يتحدثان بحرية. وكان القسيس أرينا يتحدث بطلاقة غير مبال بالتلعثم الذي ينتابه من حين لآخر فيخنق كلماته.

«حاول أن تفهم، حضرتك على دراية بالإجهاض وهو ما كنت أجهله أنا. أعرف اضطراب النفس، وتعقيداتها كما تعرف حضرتك الأجساد التي تعالجها. كانت منولارا ذات عقل يفكر ويثير التساؤلات، كانت خجولة ومتحفظة وتعمل خادمة. لم تكن تجد الراحة في صحبة الخدم، وتشعر بالوحدة. وكانت المعرفة عن طريق القراءة هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يرضى فضولها. وبالنسبة لها كان أوراتسيو هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ذلك. كنت أتأمل مكتبته اليوم. في تلك الحجرة وجدت منولارا أترابها، وجدت عالمها وهي الخادمة البسيطة اليتيمة، الحبيسة بسبب الفاليبي. كانت أيضا شابة ولم تكن تخشى الله. قبلت اهتمامه بها، أو أغرته أو ربما كان حباً متبادلاً بين شاب وفتاة، لا أدري. أعلم أنها كانت تمثل له أحد طرق التسلية العديدة، أما بالنسبة لها فكان فرصتها الوحيدة للتعلم، للحرية الفكرية. أعرف جيداً ضعف الإنسان. وكما قلت لسيادتك لم يكن لديها الوازع الديني.» غمغم الطبيب: «فهمت.» «فضلاً عن أنها كانت تقوم بدور يمكنني أن أسميه «عازل طبي»، و بالتأكيد كان مقبولاً ومحبيلاً للسيدة ليلا التي كانت مصابة بوسواس المرض، لذا أهدتها حقيبة مليئة بالقطع الذهبية ولم تعترض على إجراء عملية تعقيم لها.»

صدّق الأب أرينا على كلامه بهرارة: «بالضبط، كي يستطيع اوراتسيو إرضاء رغباته وشهواته معها دون اللجوء إلى عاهرات قد ينقلن له المرض.

وقد تشاجرنا لأن طاهية عجوزاً من بيت الفاليبي، رحلت الآن عن عالمنا كانت قد أحست بالذنب نحو منولارا وتحدثت معي. كانت هذه المرأة قد مرت بعلاقات كثيرة مع الرجال فقد كانت من تلك النساء اللاتي يحملن جمر النار تحت تنوراتهن، بيد أنها ملتزمة في مظهرها، وتمدنية وكانت أيضا طاهية ممتازة أفضل من الطهارة

الفرنسيين. كانت قد تولت منولارا بالرعاية، وكانت تتحدث معها بحرية أيضاً عن بعض الممارسات التي قد تؤذي الصحة والمخالفة للطبيعة. ثم شعرت بالندم فقد خشيت أن تطبق الفتاة ذات السادسة عشرة ما قالته لها مع أوراتسيو.

تحدثت مع منولارا وكنت أشعر بقلق حقيقي عليها ولكنها ردت بشكل عنيف، رد من تلك الردود التي خلقت العداة بينها وبين أشخاص كثيرة. قالت لي أن قدرها أن تبقى بيت الفاليسى وتخدم أصحابه. ولا تريد أن تقضى حياتها دون التمتع بما يتاح لها وهو القليل. أوراتسيو كان لطيفاً ويحترمها كعشيقة ويقبل رفضها. فذلك أيضاً جزء من عملها وهي تريد أن تؤديه جيداً بل وتحسن أداءه. وفي نفس الوقت يجب أن تحافظ على صحتها. فإذا فقد أوراتسيو الرغبة فيها، سيلجأ إلى العاهرات وقد يصيبها بالمرض، فهي تحرص أيضاً على صحتها.»

تلعثم الأب أرينا، فقد كانت ذكريات مؤلمة.

كان الطبيب ميندكو يفكر بصوت عال: «استمرت العلاقة بينهما إذن أثناء زواج أوراتسيو، كما يدل على ذلك الإجهاض.

وفي ذلك الوقت، كانت لدى الشجاعة للحديث معها عن ذلك بصفتي طبيها المعالج: كنت أريد إقناعها بالعدول عن عملية التعقيم، وأنها يمكنها الزواج وإنجاب أطفال وتكوين عائلة. بدت مستاءة كما لو كنت أقترح عليها خيانة زوجها، تصرفت مثل زوجة محبة كانت تقول أن ذلك هو الطريقة الوحيدة للمحافظة على العلاقة بينهما. ولكن على العكس بدأ أوراتسيو علاقة أخرى أكثر حميمية ثم علاقات أخرى، كما نعرف. ومنذ ذلك الحين، ذبلت منولارا مثل زهرة حرمت من المياه. علق الطبيب وهو ينظر إلى القسيس: «بينما حضرتك كنت تتحدث عن علاقة حميمة بينهما في السنوات الأخيرة من حياة أوراتسيو طبقاً لما قاله انجليوماسكولو.»

«الآن أفهم التغيير الذي طرأ على مينولارا في ذلك الوقت»

قال الأب أرينا:

«كانت تقلقني. كانت وحيدة، فقدت متعة الحياة ولكنها لم تفقد الطاقة والإرادة والرغبة في العمل. استمرت فقط في الذهاب إلى كورال كنيسة «عذراء الآلام» والتي كانت قد بدأت عندما كانت لاتزال فتاة صغيرة. كانت تغني جيدا كانت تقف بين الراهبات بعيدة عن أنظار الآخرين. كنت أراها هادئة لفترات قليلة، ربما كان أوراتسيو يعود إليها بين عشية وأخرى، وربما ما علمته لها الطاهية، كان سبب عودته المستمرة إليها، لا أدري. أو ربما كانت قد نسيت وفهمت أخيرا أنه لا يستحقها».

قال الطبيب ميندكو مؤكداً:

«دون شك لم يكن أوراتسيو على مستوى منولارا».

أضاف الأب أرينا:

«حضرتك تعلم أننى كنت أكتب لها الخطابات، كنا قريبين جداً وكنا نتقابل كثيراً إلى أن تركت الأبرشية. كانت تشعر بالامتنان لأوراتسيو لأنه سمح لها بأن تتثقف في الفنون والآداب والموسيقى. وكانت تعشق كل نزواته الفكرية وهوسه لا أعلم إن كنت تعرف ذلك، كانت منولارا تنظم مجموعاته، تعلمت فهرستها، وكانت تقرأ النصوص أيضاً الصعبة لتساعده».

كانت تصاب بالإحباط في كل مرة، يهجر أوراتسيو نشاطاً بدأه في منتصف الطريق ليجرى وراء اهتمام آخر. أعتقد أنها واصلت دراسة الخزف بالحضارة اليونانية القديمة لسنوات وحدها.

كانت، صدقني، أذكرى شخص صادفته في حياتي. «الآن وقد أصبحت في الطريق العام، جلسا فوق سور صغير من الأحجار ليستريحاً».

واصل الأب أرينا حديثه: «ناقشت معي إن كان من المناسب أن تعرض القيام بإدارة الممتلكات لتنقذهم من الانهيار الاقتصادي، كانت تشعر بذلك كواجب تجاه السيدة ليلا والعائلة. كانت تتحدث بتسامح، وحيادية وهدوء عن مغامرات أوراتسيو العاطفية وتحكى عن الهدايا الباهظة التي كان يقدمها لعشيقاته، كانت

تحدث كزوجة منهكة وليست جريحة من خيائته. كنت أشعر بالقلق من عبء المسؤولية التي كانت تريد تحملها فضلا عن عملها كخادمة بالبيت، كنت أخشى من رد فعل الناس وخاصة في الريف أمام قيام الخادمة بالإدارة.

كانت تقول «واجبي أن أخدمهم وأنا قادرة على ذلك. لم أختَر سادة أقل مني قدرة، هم سادة وقدرى خدمتهم».

اختتم الطبيب منيدكو:

«لاندرى إن كانت قد أحبته مثل زوجة تسامح زوجها على خيائاته أم كعشيقة أم كخادمة ممتنة لأنه سمح لها بالدخول إلى عالم الثقافة. يبقى أن إخلاصها له كان حقيقياً وأعتقد فيما لاحظته انجيلو ماسكولو. إن كانت قد قتلتها، فقد فعلت ذلك وهي تفكر فقط في مصلحته.»

أضاف الأب أرينا:

«ليغفر لها الله» وقد تذكر أنه أيضا بشر وأنه مخطيء، ففكر أنه يجب أن يطلب المغفرة على إساءته لذكرى أرواتيسو في اليوم السابق، عندما تحدث مع اتجيلو ماسكو، مدافعا عن سمعة منولارا.

غمغم الطبيب:

«يبقى ذلك اللغز حول أموالها، في بعض الأحيان، أعتقد أنها قصة اختلفتها عائلة الفاليسى وأنها لا تملك إلا القليل من المدخرات»

«نظراً ونحن، الآن نغيط اللثام عن كل الأسرار، أخبرك أنا يا سيادة الطبيب بسرى. كانت ثرية ومنذ زمن. ليس لدى فكرة من أين أتت بكل هذه الاموال، ولكنني كنت أكتب لها خطابات كثيرة للبنك، وكانت سخية. تخيل أنها أنفقت على دراسة ابني لمدة سبع سنوات دون أن تخبر أحداً وساعدت أشخاصاً كثيرين في السر.» قادتهما أقدمهما إلى مسافة بعيدة، ثم رجعا إلى روكاكولبا صامتين وقد غرق كل منهما في أفكاره.

-٤٦- خطاب أوراتسيو الفاليبي لبيتروفاتا

كان الرئيس فاتا يقبع حزيناً فوق مقعده بالمكتب، مباعداً بين ساقيه، ويداه تتدليان من ذراعى المقعد، وعلى يمينه أوراق سطرت بخط دقيق جداً ويصعب قراءتها، كان ينظر من الشرفة وقد شردت نظرتة في الفراغ. اهتز لصوت لوتشيا التي كانت تخبره بوصول الأب أرينا أمسك بخطاب أوراتسيو الذي كان ينزلق من أحد كتب دانونسيو التي حملتها له السيدة ريسيكو واستعد لمقابلة القسيس.

كانت ليلا الفاليبي قد هاتفته لتخبره على استحياء أنهم تلقوا خطاباً ثانياً من منولارا، كانت تخبرهم فيه بمكان المزهرية الحقيقية والتي للأسف كسروها في اليوم السابق معتقدين أنها نسخ أخرى من المقلدة وقد اشتد التوتر، وتبادل التهم بينهم لدرجة أنهم تشاجروا مرة أخرى، وهى الآن في طريقها إلى روما وتوصيه بأمرها وكارميلا.

كان بيترو فاتا شخصاً متزناً وهادئاً. وفي تلك الحالة كان بحاجة إلى التنفيس عما بداخله، وطلب النصيحة، للحديث عن منولارا وأوراتسيو، كان يحتاج أن يفهم. تحدث طويلاً مع الأب أرينا وأيضاً عن خطاب صديقه وكأنه كان يعترف. قال له القسيس ما يكفي لمواساته ولم يصف شيئاً. سأله فقط سؤالاً واحداً: « أخبرني أيها الرئيس هل كانت منولارا تحب المحامي؟ »

« لا أدري، وكما يبدو من خطاب أوراتسيو، لم يكن هو نفسه يعرف وأيضاً هذا يشغلنى.

« لا تفكر بالأمر، لن نعرف أبداً، كان ما كان يرحمها الله. » اختتم القسيس حديثه. ذهباً إلى التراس في انتظار تقديم الغداء. وبعد انصراف الأب أرينا، عاد بيترو فاتا وأعاد قراءة الخطاب.»

صديقى العزيز بيترو،

«سيصلك خطابي بعد موتي وموت المرأة التي كذبت عليك من أجلها، على أعتاب الشيفوخوة، وجدت السعادة في اللقاء الرائع مع المرأة التي ظلت دائما بجانبني، ملاكي الحارس وملهمة سنوات شيخوختي الطويلة. لم تشأ أن أحدثك عن حينا ولكنها سمحت أن أكتب لك. وبذا أستعيد بعد موق الصلة الروحية والتوافق النفسي الذي ميز صداقتنا وجعل بفضلها الحياة محتملة بل وسعيدة بروكاكولمبا.

لقد عشت حياة مختلفة، اكنت أهرب من أية مسئولية، حياة إقطاعي يعيش بين صالونات الإقليم مبذراً بإهمال، وإسراف ثروة العائلة. كانت لدي العديد من العشيقا كما تعرف. تابعت اهتماماتي الأدبية والفنية والموسيقية بشكل متقطع وسطحي، مستمتعاً بسمعة لا أستحقها لرجل واسع الثقافة. أموت وقد عشت حياة يمكن وصفها بحياة مشبعة، ولكني لا أفخر بها. وقد استمتعت بكل ذلك بفضل إخلاص ومثابرة المرأة التي أحبها.

لقد وصفتها لك بالفاتة المراهقة التي اكتشفت معها المتع الحسية، ثم أصبحت بعد ذلك الأنثى التي أقيم معها علاقة جنسية، فقط كلما شعرت بالرغبة وكانت علاقة مشبعة لكلينا. وصفتها لك أيضا بالماكرة والمديرة الأمينة لثروتي، مساعدتي الدءوب في فهرسة وتنظيم مجموعاتي، شريكتي في الكذب والاحتيال لإخفاء مغامراتي العاطفية وخيانتى لزوجتي، المخلوقة الوحيدة التي لم تطلب منى شيئا أبدا، والتي نفذت كل ما طلبته منها. تعلم أنني كنت أثق بها ثقة عمياء وكنت محقا في ذلك. لمدة ثلاثين عاماً تقاسمنا الحياة اليومية في أدوار السيد والخادمة. منذ خمس سنوات فقط أدركت أنني كنت أحبها وأنتى أحببتها دائما وكل النساء الأخريات كن يتضاءلن أمامها. في الماضي، كنا ننتناقش في أدق تفاصيل علاقتي، إغراء وغواية النساء: كانت متعتنا المشتركة. لا أجرؤ أن أدنس حبي الحقيقي بذلك الشكل. لكن المودة التي تجمعنا، تحتم على أن أحدثك عن حبي في ريعان الشباب، والحب الذي وجدته في كهولتي وأعلم أنك ستدرك الباقي. كانت في الثالثة عشرة وكنت في السابعة عشرة، كان الإعجاب متبادلا وتدرجيا. أتذكر في ضباب الذكريات، أنها شعرت بالانجذاب نحوي لحكم قدرى للظروف التي تعيش فيها وقد اقترن بفضلها

الفكرى، والحسى، جزء أساسى من طبيعتها. وفي بادئ الأمر كنت أعتبر لقاءنا لعبة حسية بسيطة، ثم أصبح حباً، ثم عشقاً حسياً قوياً.

كانت بداية الإجازة الدراسية الطويلة وكنت متحمساً حماس المبتدئين للنظارة المعظمة المنشورية. كنت أصدع إلى تراس الغسيل، أعلى تراسات المنزل وأنظر منها. كنت أراقب الطرق، التراسات، والشرفات في كل روكا كولمبا كنت أجلس في أكثر الأركان خفاءً، بعيداً عن الغسالات وصفوف الملاءات المنشورة. كان يوماً شديد الرياح وكان الغسيل المنشور ينتفخ بالهواء، ويتجدد أمام هبوبه، وضرباته القوية، عندما كان يغير اتجاهه، كانت الشرائط التى تربط الملاءات والأسمطة بالخيوط الحديدية تجرى من ناحية إلى أخرى وتتكور العقد الكبيرة ناصعة البياض. كنت أراقبها مأخوذاً، كانت تمثل تغير الطبيعة، فالسما كانت تبدو وكأنها البحر في وسط العاصفة، حشود من السحب المتقلصة تعبرها بسرعة كبيرة مثل زبد نائر للأمواج عاتية، وكانت قطع الغسيل تبدو مثل أشعة سفن حربية تواجه الخطر، وقد اجتمعت لتحمى نفسها من قوى الطبيعة الغاضبة.

حدث أن هبت رياح قوية شقت الغسيل، رأيتها نحيلة، صغيرة، كانت تغسل في حوض من الخشب، دون أن تشعر بوجودي، غير مبالية بضربات الرياح القوية، كانت تؤدي عملها بتركيز ونشاط.

كانت تفرك القطع المنفوعة في المياه والصابون بقبضتي يديها، وتعصرهما قطعة، ثم تفتحها وتدعكها بحركات منتظمة فوق قطعة الخشب المائلة، ثم تنفضها فوق حافة القطعة، غير مبالية بالرياح التى كانت تنفخ، وتنفخ شعرها المجعد فتندل خصلاته الطويلة وتتطاير مثل قناديل البحر. جلست القرفصاء فوق الأرض كي لا ترائى.

كانت ترتدى قميصاً داخلياً فاتح اللون وقد بللته رشات المياه. وجهت النظارة نحوها مبهوراً بحركة جسدها المتناغم، وثدييها الصغيرين، المدبيين وذراعيها

المتناسقين الفضيّين، كانت جميلة. فطنت لوجودى وابتعدت عن حوض الغسيل بعد أن خرجت ودخلت إلى غرفة الغسيل. عادت بعد دقائق قليلة ترتدى الزى الرمادى للخدم وعاودت العمل. تركت النظارة ولكنى لم أستطع أن أرفع نظرى عنها.

استمرت فى العمل غير مبالية، انتقلت إلى حوض غسيل آخر يضاوى الشكل، كانت تغطس داخله القطع المغسولة المعصورة بلفها جيداً، ثم تجففها بقوة. أعادت ذلك العمل مرتين ملقية بالماء فوق الارض، كانت تنحنى لرفع سطول المياه النظيفة لتملأ بها الحوض، رانية إلى بنظرات طويلة من حين لآخر.

هدأت الرياح. تقدمت عندئذ بين صفوف الملاءات لتسويها. حلت العقد التى تكونت ثم فردتها بتنفيذها فى الهواء، ثم شبكتها جيداً بالخيط الحديدى، كانت تراقب السماء - البحر الذى عاد لطبيعته. اللون الازرق الغامق المضى الذى يقطعه غيم رقيق مثل قطع القطن. عندما وصلت إلى آخر حبل، خفضت عينها إلى، كنت لم أزل جالسا القرفصاء بالركن. نظرت إلى بحذر ولكن دون خوف.

قالت مشيرة إلى النظارة المعظمة: «ماهذا؟»

أعطيتها لها. أمسكتها بيدها، أدارتها من جميع الجهات، حاولت النظر من الناحية الخطأ.

قالت: «علمنى كيف ينظر فيها»

كان صوتها أجش ولكنها ثقيلة مثل الريفين. نهضت وأطعتها. سمحت لى بتثبيت النظارة المعظمة أمام عينها لتعديل العدسة. كانت تفوح منها رائحة كلور لاذعة تثلمنى، ومع ذلك لم اجرؤ على لمسها، كنت أشعر بتوترها. كنت أبعد ذراعى عن كتفها ولم ألمسها على الاطلاق، أثناء إرشادها إلى تحديد وضع النظارة، وضبط العدسات. استأثرت بالنظارة المعظمة، وجعلت تتجول بالتراس، كانت تحركها يمينا ويسارا، صامتة. عندما أعادتها إلى، سألتنى:

كيف تعمل؟»

شرحت لها حركات العدسات وضبط زواياها.

« فهمت ذلك، ولكن كيف تعمل، ماذا يوجد داخلها؟ وكيف تقرب الأشياء إلى العين؟ »

لم يكن لدى إجابة جاهزة.

«اقرأ الكتب ثم أخبرني، أنا لا أعرف القراءة، وليس لدى كتب» وعادت لشطف الغسيل.

تركت التراس قبل أن تنتهي من الشطف، توقفت عند مروري بجانبها. لم تكن تتوقف عن الغسيل، ظلت محنية فوق حوض الغسيل، ولكنها أدارت رأسها نحوي وكانت تنتظر أن أكلمها. سألتها إن كان وجودي يضايقها. فما كان منها إلا أن أجابت قائلة: « أنت صاحب البيت، تستطيع أن تفعل ما تريد، أنا هنا خادمة بسيطة. » عاودت السير ناحية الباب، وأثناء نزولي السلم صرخت ورائي:

« إذا كنت تنوي العودة إلى هنا، تذكر أن تجد في الكتب كيف يعمل ذلك الشيء. »

عدت بعد ذلك مرات عديدة. استمرت في الغسيل مرتدية زي الخدم، أيضا في الأيام الحارة، وظلت حذرة في تصرفاتها، وإن كانت تسمح لنفسها ببعض أوقات من الراحة تشاهد خلالها البلدة بالنظارة المعظمة. كانت تراقب أشعة الضوء من خلال العدسة المنشورية. وذات يوم قمت بتجربة باستخدام المرآيا، ونجحت في إشعال النيران في أعواد من القش. وقد درست جيدا الموضوع كي إستطيع الإجابة على أسئلتها. كنت قد بدأت الرسم، وسألتها ان كنت تستطيع رسم اسكتش لها أثناء قيامها بالغسيل. أجابت الإجابة المعتادة: « أنت السيد، وأنا الخادمة. » كانت تراقب محاولاتي بعين ناقدة. وقد نهتني إلى أننى أخطأت رسم الذراعين بالكتف. تجرأت واقترحت أن ترتدى فقط قميصها الداخلى كي أتمكن من رسمها أفضل. «لا، أنا هنا أعمل. اذهب إلى الصالون الأحمر، هناك لوحة بجانب المدفأة. انظر إليها، على اليسار، هناك امرأة في هذا الوضع، اذهب، شاهدها وتعلم.»

كانت محقة، الوضع في اللوحة كان مطابقاً. أحضرت لها اللوحة بعد تعديلها. ضحكت منها قائلة: «لست شاطراً، انتظر.» أغلقت باب حجرة الغسيل من الداخل، خلعت زيها وبقيت بالقميص الداخلى في الوضع المطلوب. ثم ارتدت ملابسها واستمرت في العمل دون رفع مزلاج الباب.

أصبحت لقاءاتنا غير المخططة عديدة. لست أدري كيف استطاعت، ولكنها كانت تنجح في البقاء وحدها. كنت أرسمها في أوضاع تقليدية ومحتشمة.

كنت أساعدها في تعديل جسدها في الأوضاع المطلوبة، وشيئاً فشيئاً، أصبحت أكثر جرأة في لمس ذراعيها أو جسدها. لم أجد منها صدا كما لم أجد تشجيعاً.

أردت تنظيم إحدى المكتبات بحجرة المكتب أثناء أجازة عيد الميلاد. وقد أعطوني خادمتهين لمساعدتي. وذات يوم كانت منولارا تساعدني وحدها. كنا نعمل سوياً في سكون، كما لو كان العمل هو الشيء الوحيد الذى يجمعنا. ارتقت سلم المكتبة الخشبي الصغير، وكنت أناولها المجلدات التى يلزم تنظيمها بالارفف العليا. وعند لحظة معينة جلست فوق آخر درج السلم في انتظار المجلدات الأخرى.

كنت أرى ساقها العاريتين، وقد انحسر عنهما الثوب أثناء الجلوس. ظللت أنظر إليها بثبات، مثاراً. أدركت ذلك، بادلتنى نظراتي، ولم تتحرك. وابتنتى الشجاعة لأقول لها: «أنزلى».

مارسنا الحب للمرة الأولى. ومنذ تلك اللحظة أصبحت غرفة المكتب مكان لقاءاتنا الحميمة. اكتشفت إشباع الشهوة دون التزام أو إحساس بالذنب، مع امرأة لاتطلب تفسيرات ولا تلومك. كانت علاقتنا مبنية على التكافؤ بين رجل وامرأة في إشباع الشهوة، الهدف منها إرضاء الطرفين. كنت أنا من يبادر دائماً، لم تكن توافق باستمرار وإن كانت نادراً ما ترفض. في بعض الأحيان كنت لا أبحث عنها لفترات طويلة، أعوام كاملة، وأحياناً أخرى كانت لقاءاتنا تتعدد.

كان اتفاقاً سريعاً هادئاً، دون عاطفة واضحة من الطرفين، كما كنت أعتقد، وكما كانت تعلم أنت أيضاً.

منذ خمس سنوات دعوت إلى تناول العشاء بالبيت، عشيقتي منذ فترة طويلة، والتي كانت تعرف بحكايتها. تعمدت منولارا إهانه زوجتي وعشيقتي بعد تقديم العشاء، وأفسدت السهرة. كانت المرة الأولى التي تتصرف فيها على هذا النحو. كنت في غاية الغضب، وقررت أن أصعد إلى حجرتها لتعنيفها، وهو ما لم أفعله من قبل. كنت أشعر بأنها خانتني وأهانتي. كنت أرتقى السلم الحلزوني للطابق الأوسط للمرة الأولى في حياتي، و كنت أستشعر أهمية اللحظة، فكرت في رفتها من شدة حنقي عليها.

وجدت نفسي في ردهة مظلمة. كنت أسمع موسيقى من بعيد. كان نهاية الفصل الثالث من أوبرا عابدة

كانت كالاس تشدو عقب عزف آلة الأبوا بالإيقاع البطيء: «دعنا نهرب من جحيم هذه الأرض الجرداء»

كنت مشدوهاً. ساكناً. أستمع. وجدنتني أجلس القرفصاء وأستند إلى الحائط الذي انزلق ظهري بجانبه دون مقاومة. هناك بين الغابات البكر. كانت الموسيقى تصدح بالمكان، تغمر الردهة، تضغط فوق الاسوار التي كانت تنفجر قليلاً فتغير تلك المساحة الضيقة إلى منظر طبيعي ليلي رطب، وناعم فاتحاً يعطر رقيق. لحق بي العار. انتابتني دوامة من الاحاسيس المتناقضة، شعرت بأنني أفقد الوعي. كان إحساساً بالدهشة ينمو بصدري ويمحو وجودي: لم أفكر أبداً أن لي روحاً. فتح باب الغرفة في نهاية الردهة فجأة، وانسابت الموسيقى في الردهة. فتح باب آخر ثم أغلق. سمعت تدفق المياه، كانت تستحم. ظهرت بعد ذلك في كامل توجهها. قبل أن تغلق الضوء، وتغلق حجرتها. كانت ترتدي فقط روبا مفتوحاً من الأمام، بدت لي رائعة الجمال، وجهها هادئ، تحيط به خصلات شعرها المنسدل. اقتربت من

غرفتها، كنت أشعر برغبة قوية في الدخول، ولكن لم تواتني الشجاعة، خشيت أن تطردني، كنت أنا الظالم. راداميس. لحق بي العار. ظللت مستندا إلى السور. نهضت لتدير الاسطوانة، كانت خطواتها فوق الالواح الخشبية لأرضية الحجرة تصدر صريرا، وورب الباب. كان الكهنة قد اجتمعوا. خشيت ان يغلق الباب مرة أخرى، ولكن ربما قد خلدت للنوم. انتظرت قليلا ثم دفعت الباب الذي انفتح محدثا صريرا. برر نفسك. كان شعاع القمر الأزرق يسقط فوق السرير الذي ترقد عليه وقد تدرت بملاءة خفيفة. كنت أستمع واقفاً عند الباب وقد ثبتت عيناى فوقها. برر نفسك.

كانت تغطى وجهها بذراعها المثنى، فلم أدر إن كانت مستيقظة أم نائمة. بكيت دون ان ادري. أدركت ذلك، ادارت رأسها نحوى وقالت: «لاتبكي، واستمع» ثم عادت تخبىء وجهها، في نفس الوضع. استمعت، استمعت إلى أن سكنت الاسطوانة فوق الجهاز.

كنت مثل المشلول

سألت: «ماذا تريد؟»

«هل يمكنى البقاء هنا؟»

«لا، غدا يجب أن أستيقظ مبكراً للعمل، اذهب للنوم، فالوقت متأخر للجميع.»
بكيت تلك الليلة طويلاً فوق أريكة لقاءاتنا بحجرة المكتب. وعند الفجر، كتبت خطاب وداع لعشيقتي.

رأيتها في اليوم التالى، قدمت لى القهوة كأن شيئاً لم يحدث. كانت ترتدى مريلتها الرمادية المعتادة، وعقصت شعرها على شكل كعكة، كما تعودت دائماً، كانت خالية من الحسن، والرقّة. وأيضاً هكذا كنت احبها.

كنت مضطرباً، خائفاً مثل صبي مراهق يحب للمرة الأولى، حائرا لايدرى كيف يخطو خطوته الأولى نحو حبيبته وينتظر تشجيعها. وفي الغالب أدركت ذلك، لأنها قالت باقتضاب:

«إن أردتم يمكنكم الذهاب إلى حجرة المكتب، بعد الغداء.» ومنذ تلك اللحظة وجدت السعادة. أعيش من أجل تلك الساعات الحميمة القليلة التي يسمح بها عملنا سويًا في حجرة المكتب. كنت مستعدًا لفعل أي شيء من أجلها، كي نعيش سويًا وحدنا. كنت مستعدًا لترك البيت والعائلة. ولكنها منعتني. في البداية، كنت أخشى من أفول حبها لي، وأن يكون هجراني الطويل قد دمر كل شيء. ولكنها كانت تصمم أننا مختلفان: فالسادة ينظرون للحياة بشكل يختلف عن نظرة الخدم. تبرهن كل أيامها عن حبها لي، إلا أنها لا تستطيع أن تقول «أحبك». كانت متأكدة من عودتي إليها وإن كانت لاتدري متى، درست وحدها وتعمقت في الفن اليوناني من أجل، بل إنها تفوقت عليّ. سمحت لي باستخدام الاسم المستعار «السيد منولارا» في المراسلات مع خبراء الآثار، بينما تمنيت أن يقترن اسمانا في العلن. ستبقى مجموعات الخزف اليوناني، الشاهد الصامت على حبنا وعلى قصتنا. سأموت وأنا أشعر بالأسى لأن الناس لم تعرف الخصال غير العادية لتلك المرأة وحبها لها.»

نهض بييترو فاتا متناقلاً من مقعده، ممسكاً بالأوراق في يده. يبدو ان الانفعال أثقل جسده.

بحث عن أعواد الكبريت في درج المكتب، ثم عبر الحجرة، وهو يقيس خطواته ودون أن يصدر أية ضجة. في ذلك العام ببيت فاتا، أشعلت المدفأة قبل المعتاد.

-٤٧- في بوابة دون فيتو ميليتو

يتم تحليل الوضع

كانت لوتشيا قد انتهت بسرعة كبيرة من شراء متطلبات منزل فاتا من السوق، كي تستطيع المرور بعميها دون باولينو ودونا ميمبا دون إثارة فضول ماريانا الخادمة الأخرى.

كان دون باولينو بالمنزل بينما ذهبت العممة إلى الإسكافي لاستلام حذائها بعد تغيير نعله. قال دون باولينو «سترين أنها ذهبت لتستمع إلى أخبار الشائعات، في دكان عم جاكمو بحارة جوتسي، لانتظريها، ستظل هناك لساعات، وأيضا اليوم لن أكل وجبة ساخنة». تبادل العم مع ابنة اخ الزوجة آخر الأخبار والمعلومات عن أحوال عائلة الفاليبي وعادت لوتشيا إلى البيت سعيدة. كانت تلك القصة بالنسبة لها أكثر إثارة وتشويقاً من المسلسل الذي سمحت لها عائلة فاتا بمشاهدته، من بعيد جالسة فوق مقعد صغير ملتصق بالحائط، بينما السيدة كانت تجلس في الصف الأول، في الفوتيه المريح أمام التلفزيون الجديد.

عادت دونا ميمبا متأخرة دون الحذاء «لم يستطع المسكين الانتهاء من العمل، أولا بسبب الصخب المحنون الذي أثارته عائلة الفاليبي، ثم كان عليه أن يحكى ويرضى كل الأشخاص الذين توافدوا إلى دكانه لمعرفة ما سمعه.

«وماذا سمع؟»

كانوا غاضبين من المسكينة منولارا وقالوا عنها.... كلمات يقشع لها البدن. لصة، ومحتالة، بل وربما لقبوها بعاهرة وكانوا إخوة وأصهارا يتبادلون السباب والاتهامات فيما بينهم.

اسمع، لنذهب إلى بيت أختي لتناول الطعام وهناك سنعرف أكثر.»

كان الأصهار الأربعة يتحدثون بسرعة في بوابة قصر تشيفاليا، منتهزين فرصة عدم وجود زائرين. كانت دونا أنزا في ذلك الصباح قد سعدت إلى الدور الأول لمساعدة الخادמות في ترتيب خزانة البارونة على أمل أن تسمع بعض الشائعات. وقد حصلت على مرادها فقد كانت لدى السيدة أخبار أخرى عن حديقة بارينو، سيارة موظف البريد جاسبري ريسيكو، وما لحق بهما من أضرار، «تحذير» كما تقول البارونة تحذير لمن يتحدث كثيراً وبسوء عن مينولارا.

قالت دون أنزا:

«لم تكن تذهب كثيراً إلى الكنيسة، فقط في حالات حفلات الكورال، لا بد أن لها قديسا يحميها كثيراً.»

أضاف دون فيتو»

«نعم، قديس يرتدى بنطلون، وقبعة، ويمسك بندقية، بينما أفراد عائلة الفاليبي لا بد وأنهم ممسوسون بكل أمورهم مضطربة. فقد مرت سانتا منذ قليل وحكت أنهم حطموا بالأمس كل ما يمكن تحطيمه في مكتب المحامى وتشاجروا، ثم وصل خطاب اليوم أخبرهم أنهم حطموا الأشياء خطأ فعادوا وتشاجروا من جديد، هم سينو الحظ ومع ذلك يصبون جام غضبهم على منولارا.»

وعلى الرغم من غزارة تفاصيل المشاجرة بين أفراد عائلة الفاليبي إلا أنهم في البلدة، كانوا يتحدثون قليلا عن المزهريات المكسورة، ومصدر الحصول عليها.

دون باولينو، على العكس، كان يعمن التفكير في ذلك الأمر:

«ان كانوا قد أرسلوا تلك المزهريات إلى المتحف، فذلك يعنى أنهم كانوا يعتقدون أنها أصلية وذات قيمة. وبالتأكيد تلك القطع تخص منولارا، اذن هى من طلبت منهم أن يرسلوها إلى المتحف. أذكر أنهم كانوا يقولون أنها لعبة منها للاستهزاء بهم. ولكن لا يمكن توقع ذلك منها، ليست من ذلك النوع، ليست من النوع الذى يمزح

أو يستهزئ، لم تكن لتضحك على أمر مثل هذا. ربما كانت الآنية حقيقية ولم يقرأوا جيداً خطاب المتحف أو ربما أخطأوا بالمتحف».

قالت دونا اينزا

«ولكن لماذا يغضبون منها، إن كانت قد أخطأت، فهي لم تكن أستاذة. على العكس كانت تعرف الكثير بالنسبة لخدمة».

رد دون باولينو

«لا، أنت مخطئة، يا انزا، في وقت التنقيب في فيلا كاسلا كان المحامي لا يزال شاباً وقد استهوته القطع الأثرية اليونانية القديمة، وقد بدأ أيضاً التنقيب في كانيللي، املاك قيمة، باعوها بعد ذلك، كانوا يتحدثون عن وجود مدينة قديمة كاملة تحت تلك الأراضي. وقد وجد قطعاً من الفخار المكسور وأخذها إلى البيت. كانت المسكينة منولارا تعمل بالليل، وكانت المنضدة بالغرفة المجاورة لحجرة المكتب، تبدو وكأنها موزاييك، وقد وضعت فوقها كل القطع الفخارية، كان عملاً مضيئاً، ولكنها كانت حادة البصر ونجحت في لصقها وتجميعها، فكانت تبدو قطعاً كاملة. ثم أصاب المحامي هوس جديد، فهجر هذه الهواية، ولكن منولارا كانت تتسلى بإصلاح الآنية القديمة التي بقي منها الكثير، وقد رأيتها وهي تبحث في الكتب المصورة، كانت الصور تعجبها».

علق دون فيتو: «امرأة مسكينة كانت تتسلى بقطع الفخار المكسورة، بالمناسبة هل تعرف أن دون لويجي فيكارى قد مات هذا الصباح؟»

بادره دون باولينو:

«أكان لا يزال حياً؟»

«نعم، كان قد تعدى التسعين، أخبرني بذلك حفيده، الذي مر بالبوابة يوم الأربعاء، كنت أحكي له عن الجنائز. قال أنه ظل واعياً محتفظاً بذاكرته، وإن كان لا يغادر الفراش ثم مات أثناء النوم. . يالها من ميتة هادئة!

قالت دونا انزا:

«أية ميتة هادئة، لقد قالت لى ابنته أنه كان يهذى من يوم الخميس الماضى وكان يخشى أن يقتلوه، مات رعباً، أصابه خرف الشيخوخة، المسكين.»

علق دون باولينو:

«آه، هذا ما يحدث غالباً، ولكنه كان قد فتح دكاناً، و أثرى منه.»

«أقول لكم أنه من الآن فصاعداً، لن يتحدث أحد عن منولارا أو عن عائلة الفاليبى وما قيل سيظويه النسيان، وسيختفى اسم الفاليبى من روكاكولمبا كلها، الفناء مصير الجميع. بالنسبة لى الأمر سواء مالم يطردونا من بيتنا.»

كان دون فيتو يوافقه الرأى: «لقد سمعت فى هذه البوابة، كل ما يمكن أن يقال عن تلك المسكينة، ليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك. الناس تتحدث كثيراً وتفهم قليلاً» وبدأ يحكى وهو يعد القصص التى سمعها عنها على أصابع اليد اليسرى ثم اليمنى. «بدأ من أبيها، فقيل إنها ابنة غير شرعية لرجل من المافيا، جعلها تتربى فى بيت الفاليبى، كى يضع داخل البيت جاسوساً للمافيا، وهناك من يحكى أنها ابنة للأمير برولى وأن المحامى الفاليبى ضمها إلى بيته كى يخرس الألسنة وأخذ مقابل ذلك أموالاً أعطاها له لها الأمير .

بل يقال إنها ابنة المحامى جاني الفاليبى وأن المرحومة السيدة ليلا تحملت هذه الإهانة وربتها فى بيتها، وكانت إذن أخت اوراتسيو الفاليبى لذا سمح لها بكل هذه السلطة فى البيت. كانت ابنة الجميع ما عدا المسكين أبوها، لويجى انسريللو، ولم يقل أحد أن أسنانها كانت بارزة مثله، وكانت لها عيناه نفسهما. كان يكفى النظر إليهما لتدرك أنهما أب وابنته. كانت صورة من أبيها!

ثم استمرت الحكايات عن منولارا نفسها، والتى كانت عانساً، والآن جعلوا لها أيضاً أبناء. فمن يحكى أنها كانت أما لابن الأب أرينا غير الشرعى وأنه أنجبه منها

وليس من خادمته، لذا تولت الإنفاق على دراسته، ومن يقول أن أبناء شقيقتها الذين يعيشون في إيطاليا هم أبنائها من رجال لا يمكن الحديث عنهم، لذا لا يأتون أبداً إلى روكا كوملبا....»
ختم دون باولينو الحديث:

« الحقيقة أننا نعلم القليل ولا نعلم عنها شيئاً، كانت مجتهدة في عملها وكان يعجبها إصدار الأوامر، ومن هنا بدأت المشاكل للجميع. فالسادة يعجبهم العاملون المجهدون ولكن ليس من يحاولون السيطرة عليهم. ولو كانوا استمعوا إليها ل زاد ثراؤهم أما نحن فسنبقى فقراء، مهانين أيضاً عند وفاتنا.»

٤٨. دون فينشينسو انكونا يعامل زوجته بغلظة

كان دون فينشينسو يشرب في صمت أول أقداح قهوة ذلك النهار، الذي أعدته له زوجته، جالساً فوق مقعد من القش وضع بالعرض أمام منضدة المطبخ، متأهباً للذهاب إلى أعماله في صباح الأربعاء ٢٣ أكتوبر.. كانت اللحظة التي يستعد فيها للعمل ويستعرض في ذهنه ترتيب اولوياته، الماضي القريب والمستقبل الفوري. على الرغم من بلوغه الحادية والثمانين وعلى الرغم من أنه ممتلئ الجسد إلا أنه كان يتمتع بصحة جيدة ولا يزال يحتفظ بذاكرة حديدية وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة له حيث كان يقرأ ويكتب بصعوبة.

قطعت الزوجة حبل أفكاره قائلة: «سمعت أنك ذهبت في الشهر الماضي لحضور جنازة امرأة تدعى انسريللو. اليوم ذكرى مرور ثلاثين يوماً على وفاتها. من كانت هذه المرأة؟»

هذه الأسئلة لايجب توجيهها لي، اعتنى بشؤونك، وفكرى في أولادك الفاسدين، اغربي عن وجهي!

خبط دون فينشينسو قدح القهوة فوق المائدة، فتناثر ما بقى في الفنجان فوق مفرش المائدة البلاستيك، وخرج من المطبخ بخطوات ثقيلة. وفي الصالة كان هناك رجلان في انتظاره. وعند إشارة منه سارعا بمساعدته على ارتداء السترة، وفتح له باب البيت في صمت. كانت سيارته ماركة «جوليتا ألفا روميو السوداء» جاهزة، والسائق في انتظار تشغيل المحرك لبدء رحلة طويلة نحو العاصمة.

ظل دون فينشينسو صامتاً متكدر المزاج طوال الرحلة. بل رفض الراحة التي اعتاد القيام بها لشرب فنجان من القهوة في استراحة الطريق. وأعطى أوامره بالسير بسرعة كانت السيارة تجرى فوق الطريق الممتلئ بالمنحنيات، هابطة من الجبال

نحو المنعطفات الجبلية تسبق سيارات أخرى في المنعطفات ذات الاتجاه الواحد، كانت ترتقى ثم تهبط من جديد في المنحنيات المائلة لتفتح الطريق مستخدمة آلة التنبيه، متجاوزة حدود السرعة حيث كان السائق يمضى بثقة من يعرف أن لديه الأمان الكامل في فعل كل ما يحلو له. كان في ذلك السير الواثق، إرث من السلطة والعنف، يربطه بالطرق والمدن والأشخاص، ما يشبه الألفة الجبرية، ثقة يعلم جيدا أنها غير مستقرة تظهر وتختفى مثل ستارة المسرح. كانوا يعبرون الجبال، حيث أراضى الإقطاعات الكبيرة للأمرء بريولى والتي كانت عائلة أنكونا تتزعم المافيا بها لسنوات طويلة. كان ذلك الطريق زاخراً بالذكريات و بالحنين لماضى دون فينشينو.

تذكر أيام الصبا عندما كان والده دون جوفانى أنكونا يعلمه المهنة التى أورثها إياها، كما فعل جده مع أبيه، مهنة تنتقل من أب إلى ابن مثل ألقاب النبلاء يرثها دائما الابن الأكبر. فقط دون فينشينسو لم ينل ذلك الفخر، حرمة حماقة ابنه من تلك السعادة، الابن الذكر الوحيد الذى خان شرف المافيا لأنه لم يتحكم فى شهواته، خطيئة لا تغتفر لرجل من المافيا.

حقيقة، ابنه الآن قد شغل مناصب هامة، ولا يزال ينتمى إلى المافيا، ولكنها مناصب خارج صقلية، فحرم أباه من الاستمتاع بالقرب منه، ورؤيته وهو يتقلد مكانه.

كان نافهاً، لم يكن سوى صبي نافه، على الرغم من أنه من دمه ولحمه! كانوا يمرون بإقطاعية كانيللى حيث اقترف الابن ذلك الفعل الشائن الذى غير حياته. لعن دون فينشينسو ما حدث قائلا: اللعنة على ذلك القدر! عندئذ نظر إليه رفقاء رحلته، وأبطأ السائق السرعة قلقاً، لكنه أصدر أوامره:

«واصل السير، كنت أفكر فى بعض شئوني» رجع إلى الوراء واتكأ إلى ظهر المعقد، وأسند رأسه، وضع نظارة الشمس وحدق نظره فى الطريق. اجتاحته ذكريات الواقعة التى غيرت حياة ابنه وسببت له ولزوجته ألماً شديداً، حدثت منذ أكثر من أربعين عاماً، ولكنه يتذكرها كما لو كانت بالأمس. مات والده، وهو لا يزال صبيا إلا أن دون

فينشينو كان قد تعلم جيداً. وكان يصلح تماماً ليأخذ مكان والده، الحارس الزراعى المزيف للاراضى الأمراء برولى امام السلطات، وزعيم المافيا المهاب لإقطاعياته وما يحدها، والاراضى المملوكة للعائلات البرجوازية والطبقة الأستقرافية الصغيرة. كان الجميع يخشاه ويحترمه حتى خارج الإقليم، وكان الكل يعرفه

كرجل أمين، لا يمكن النيل منه، بعيد النظر، ومستعد للتوسع فى أعماله والبدء فى أنشطة جديدة. رجل محب لعائلته، شديد الإخلاص لزوجته، و كان ابنه جوفانى قره عينه وخاصة أن الابن أظهر من الذكاء والفطنة ما يؤهله لخلافته. كان ذلك يشعره بفخر لا يحسه إلا الأب، كان يراه جميلاً، قوياً، ويستشف تدفقاً هائلاً لصفات الرجولة، وأكثر من ذلك الدهاء، والغطرسة، الإصرار والكبرياء وهى صفات إن اختلطت ببعض الدراية فى الأعمال لجعلت الابن مؤهلاً تماماً « لإدخال » الحداثة» فى مهنتهم. كان دون فينشينو يعى تماماً أن الزمن تغير بالنسبة للجميع، وأن المافيا يجب أن تتأقلم مع هذه المتغيرات، أن تتغلغل فى النظم الاجتماعية والسياسية، كان يعلم أن تلك الطفرة سيكون لها آثار هامة، وجذرية وأن بعض طقوس قواعد الماضى وانتقال السلطة من الأب إلى الابن والتي لا يزال متعلقاً بها، سيأتى اليوم الذى تصبح فيه بالية ويطويها النسيان. كان دون فينشينو يتألم بسبب ذلك، فقد أرست المافيا نجاحها على قواعد صارمة قاسية ومتوقعة: يشترك الجميع فى الرعب من العقاب، والانتقام لمن يجرؤ على انتهاك ميثاق الشرف لرجل المافيا، أو التمرد على تلك الأحكام المحجفة، وكان رجال المافيا و الأشخاص العاديين يعتبرون ذلك دليلاً على نزاهة المافيا بل وعدالتها.

كان دون فينشينو يعجبه كثيراً القيام بالدور المزدوج للقاضى والجلاد على الرغم من أنه كان يعى تماماً زيفه، كان المعلم الوحيد للابن، وكان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يترك له إرثاً من المعرفة المناسبة.

كان تلقين الابن المبادئ الأولى للمهنة، يقتضى أن يصحبه دون فينشينو إلى الريف فى وقت الحصاد، وبذا يعرفه الجميع، أصحاب الأراضى والفلاحون ويتعلم

كيف يعامل الناس. وفي ذلك الصباح من شهر مايو ذهب ممتطياً حصانه إلى حقل اللوز الشاسع الذي يمتلكه الأمير حول بيت المزرعة.

كان جامعو اللوز يضربون الفروع بعضا لينة، قاسية فوق الحبوب وحانية فوق النبات بينما حبات اللوز كانت تتساقط مثل حبات البرد خضراء ممتلئة، وقد صلبت قشرتها لتوها، كانت تتساقط فوق الأرض مثل حبات الزيتون العملاقة. وعلى مسافة منها، يتبعهم فرقة من قاطفات اللوز اللاتي كن يجمعنه جاثيات مثنيات فوق ركبتهن مثل حشود النمل وصبية وكان مراقبهم مشرفاً عليهم أما الفتيات فكانت الحارسة العجوز وكان لها الخفة وواجب تقريع وتأييب جامعي الحبوب أن جروا على إدخال كلمات فاحشة وجريئة في مقاطع الأهازيج القديمة. كان من النادر أن يجمعوا اللوز في صمت. كانوا دائما يغنون في شكل حوار غنائي، كان عملا هادئا منظما، وكان يميز دائما الانتقال من أواخر فصل الربيع إلى فصل الصيف حيث يكون الطعام وفيرا للجميع.

في ذلك اليوم، طرأت لدون فيشينسو الفكرة المشثومة بترك الابن مع جامعي اللوز الذين كانوا يعملون حول بيت المزرعة، بينما ذهب إلى منهل المياه في الناحية الأخرى من حقول اللوز. زعيم المافيا يجب أن يراه الناس، بل وأن يرى الناس ويسمعهم، يقظ دائما. فكانت مراقبة نقل المياه، والاستماع إلى أحاديث الفلاحين والصبية الذين يملأون سطول المياه ليحملوها إلى بيوتهم من الأشياء المحببة له، والضرورية، كان سيتناول معهم الجبن والخبز، ليعود في الظهيرة، ثم يرجع إلى البلدة مع الابن.

وفي حوالي الساعة الثانية، لحق به فلاح من المزرعة يدعى لويجي فيكاري، جاء على ظهر بغلته، تحدثا معا لفترة وجيزة ثم انصرفا معا، وقد سارا بالدابتين بهوادة طوال فترة سيرهما أمام المترددتين على نبع المياه ثم أسرعوا نحو المزرعة. أراد دون فينشينسو حث دابته على العدو ولكنه كان لا يرغب في إثارة الانتباه، حتى طمى الأرض له عيون وأذان. وصل إلى بيت المزرعة. كان يبدو مهجورا،

هادئاً كما لو أن شيئاً لم يحدث؛ فجامعات اللوز كن يواصلن العمل بهمة، وجامعو الحبوب يغنون، والفلاحون في حقولهم، وكان يوماً دافئاً مشمساً. دخلا في بيت الفلاح و فقط عندئذ، قصوا عليه ما حدث بالتفصيل بصوت منخفض، رفض دون فيشينسو قدح الماء الذي قدموه له واستمع إليهم. منذ حوالى ساعة كانت زوجة لويجى فيكارى قد ذهبت لتنظيف حظيرة الدجاج الكائنة بجوار مخزن القش، وسمعت منه صرخات مدوية لامرأة.

«إنه يقتلني، النجدة.» ثم صمتت ثم عاد الصراخ مرة أخرى لم يكن لديها فكرة عن هناك، فلم يزرهم غرباء في ذلك اليوم. نادى الزوج وذهبا معاً إلى مخزن القش والذي كان أيضاً مكان نوم لقاطفات اللوز، شاهدا سيقاناً وأذرعاً متشابكة، كان جوفانيو انكونا مستلقياً على القش، فوق الفتاة، وقد أنزل سرواله، والفتاة تقاوم، وتركل، وجوفانيو مستغرقاً تماماً فيما يفعله لدرجة أنه لم يشعر بوصولهما. أما تلك الشيطانة فشعرت بدخولهما، وعضت يده التي كان يكتم بها فمها وجعلت تصرخ. استطاعا الفصل بينهما، ساعد لويجى فيكارى الصبى على ارتداء ملابسه، ثم أرسله إلى اصطبل الأبقار حيث اختبأ هناك.

قال الفلاح خائفاً من غضب دون فينشينسو، الذي كان يستمع إليه متكدراً هادئاً:

«أحضرت له بعض المياه، ورفض الطعام، والجرح ليس خطيراً.»

سأل: «والفتاة أين هي؟»

- «إنها هنا بيتى وقد بقيت زوجتى معها،» وأشار إلى الحجرة الأخرى، «لم تصرخ الفتاة بعد ذلك، ولم يعرف أحد شيئاً عما حدث، ما فتنوا يعملون جميعاً في الحقول.»

- قال دون فينشينسو بلهجة امرأة:

«ناد زوجتكم! كانت الفلاحة مضطربة حاولت أن تتمالك أعصابها أمام شخصية بهذه الأهمية والسطوة والرهبة، وكان واضحاً أنها كفت لتوَّها عن البكاء.»

أمرها دون فينشينسو:

«أخبروني بما حدث، ثم أدار رأسه نحو الزوج وأردف «لويجي، أشكركما على حسن التصرف، وسأتذكر دائماً صنيعكما، الآن سيد لويجي، اذهب وأخبر ابني أن يغتسل، واذهب بفرسته والفرسة الأخرى لشرب الماء لأننا سنرحل، سنعود إلى البلدة فوراً.»

وعندها بقى وحيداً مع الفلاحة سألها من جديد أن تروى له ما رأت بأدق التفاصيل. من هى الفتاة وكيف حالها دون خجل وبكل تفاصيل الواقعة. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة للمرأة.

كانت تتحدث باكية، راجية مؤازرة القديسين والزوج الذى كان يمكنه التحدث بكل شيء أفضل منها، وهى السيدة الريفية التى لم تر أبداً مثل هذه الأشياء، فهم دون فينشينسو فوراً أن الأمر يتعلق بعنف جسدى حقيقي.

كان دون فينشينسو يعرف منولارا وأيضاً ابنه كان يعرفها.

سألها: هل تعرفونها جيداً؟

استطاعت الفلاحة أن تهزم خجلها وأكدت له وهى تقسم بكل القديسين وبقبر أبيها وبحياة ابنها، إن الفتاة كانت عذراء وكان تصرفها يؤكد ذلك: فمنذ استطاعا نزع ابنكم من فوقها، نجحت فقط فى إدخالها إلى غرفة نومها، حيث ارتمت فوق الأرض، كانت تتن فقط، وقد لطخت الدماء ثيابها وبين فخذيهما، رفضت حتى رشفة الماء، الفتاة بريئة.

«أنا أعرف منولارا أكثر من الأخريات، فهى تعمل هنا منذ سنين. هم فى غاية الفقر، لا تأكل حتى نصيبها من الطعام كى تحمله إلى البيت، يتضورون جوعاً.

نحن جميعاً نحبهما، وكل حين نترك لها بيضتين، بعض الخضراوات، أو قطعة من الجبن، مخبئين فى مخزن القش لتحملها إلى البيت، فهى تخجل من قبول هذه العطايا أمام الآخرين، وترفضها، لذا نترك لها الأشياء فى تجويف حائط مخزن القش

حيث تخبئ طعامها وهي تعرف ذلك وتحفظ الأشياء به.

وبالفعل هذا الصباح أثناء جمعها للوز، أخبرها زوجي أن هناك أشياء لها في مخزن القش كانت في غاية السعادة.. فهي عزيزة النفس، ولا تطلب شيئاً من أحد أبداً.

«لا أدري لماذا عادت إلى المخزن في ساعة الغداء، ربما لتملأ الجرة بالمياه الباردة، فقد رأيت إناء المياه في أحد الأركان، ولا أدري كيف ظهر ابنكم. كانت المسكينة مرعوبة ولم تكن تريد اتهام ابن زعيم المافيا بتصرف جبان وغير معتاد من رجل المافيا.

سأل دون فينشينسو:

في رأيكم كان اغتصاباً أم لا؟»

عاودت المرأة البكاء ببطء، ولم ترد:

كرر دون فينشينسو السؤال بنبرة متغطرسة دون أن يرفع صوته تحدثوا، هل كان اغتصاباً أم لا؟

« سيادتكم رب عائلة، أب لأبناء، وأنا أيضاً لديّ أبناء وأقسم لك بقبر أمي أن صرخات الصبية والحالة التي وجدناها عليها وحالتها الآن، لا تترك أي شك في أن الأمر كما تقولون، ثم إن الحقيقة يعلمها الله وحده».

أمرها دون فينشينسو: «افتحوا الباب واجعلوني أراها» لم ترد الفلاحة إطاعة أمره وقالت له أن الفتاة مغشي عليها تقريبا، وإنها بالتأكيد ستموت من فورها إن رآته، لن تحتمل ذلك، لا يمكن سؤالها وهي على هذه الحالة.

فقد دون فينشينسو هدوءه ورفع صوته:

«استمعوا إلى ما أقوله، أعلم كيف أتصرف في هذه الحالة أريد فقط رؤيتها ولن

أتحدث معها».

نهض دون فينشينسو، وفتح الباب:

كانت الغرفة بين العتمة والضوء وكانت نافذة الغرفة الوحيدة تقع في منتصف الحائط تقريباً أسفل دعامات السقف، مواربة الدرفتين.

غزت حنجرته راوئح الفقر، والرطوبة، والروث، والقش: وتراصت فوق الأرض صناديق، وسلال، وأغطية مكدسة، وأدوات. كان السرير في حقيقة الأمر يتكون من مرتبة ملقاة على أرضية الحجر، مغطاة بخرقه رمادية وكان يحدد رأس السرير صليب صغير.

لم يرها، في أول الأمر. كانت قطعة الأثاث الوحيدة بالغرفة مقعد، وضع في أحد الأركان. وهناك استلقت منولارا. كانت تبدو كومة أخرى من الخرق البالية، ملقاة فوق الأرض مثل طفل ولد لتوه، كان ظهرها محنياً، مستديراً تقريباً، ساقاها مثنيتان، كانت رأسها المحنية فوق صدرها تلمس ركبتها، كانت تنم مثل كلب جريح وتنتفض لم تشعر بوجوده، كانت بقع الدماء واضحة حمراء في خلفية التنورة، وقد تعرت إحدى ساقها، وبدت فوق لحمها الفاتح آثار خيوط الدماء حتى قدميها.

أغلق دون فينشينسو الباب، شكر الفلاحة وذهب إلى الاصطبل حيث كان ابنه واقفاً في انتظاره، وقد تلمخ أيضاً قميصه وسرواله ببقع دم.

قال له:

«تعال. وامطيا الحصانين في صمت وركضا، كأن شيئاً لم يحدث»

مرا من بعيد بقاطفات اللوز، ملقيان بالتحية المعتادة، باللهجة الصقلية: «تحياتنا».

وفعلا نفس الشيء مع جامعي الحبوب. استغرقت رحلة العودة حوالي ثلاث ساعات، لم ينظر دون فينشينسو إلى ابنه، كان يمتطي الحصان أمامه، فاتحاً له الطريق بين الأشجار، حريصاً على تجنب الدروب التي يسلكها الناس عادة.

كانت الزوجة والبنات الصغيرات تنتظراهما، وكانت البنات سعيدات. كان الحزن يدمى قلب دون فينشينسو من التفكير في المصيبة التي حلت بعائلته، شرح لهن أن جوفانيو قد سقط وجرح، ليس جرحاً خطيراً، وأرسلهن جميعاً إلى الصيدلية لشراء الأدوية.

وعندما أصبح وحده مع الابن سأله: «أصبتهما؟»

«نعم، لا أدري كيف حدث ذلك.»

عندئذ، صب دون فينشينسو جام غضبه على ابنه الذى يعبده وأوسعه ضرباً ولكمأً وركلاً في بطنه و الخصيتين، وهو يبكي، يلعن نهاية أسرته ونسله. ظل جوفاني الصغير ملازماً الفراش بعد ذلك لعدة أيام.

وأثناء ذلك رتب دون فينشينسو طريقة لإبعاده عن البلدة. قيل إنه سيذهب ليعيش في الشمال عند أحد أبناء عمومته ليستكمل الدراسة، فهو على قدر كبير من الذكاء، طاقة مهدورة في صقلية ويستحق فرصة تعليم أفضل في إيطاليا. علم أفراد المافيا بما حدث وأيدوا قرار دون فينشينسو الحكيم.

تصرف جوفاني الصغير كرجل حقيقي: اعترف بخطئه ووعد أمه التي انهارت عند رحيله بأن يشرف العائلة وأن يجعلها تفتخر به ذات يوم.

وفي اجتماع للرجال المافيا، أقر جوفاني أنكونا الصغير بتواضع وكرامة غير عاديين بالنسبة لصبي في السادسة عشرة، بما اقترفه من خطأ. فهو لم يرتكب فقط إثمًا لا يُغتفر طبقاً للميثاق الأخلاقي للمافيا، ولكنه سمح لشهوته بالسيطرة عليه (سواء أرضى شهوته مع أنثى برضاها، مع رجل أو بهيمة لا يهم، فرجل المافيا لا يجب أبداً أن يفقد السيطرة على نفسه) ثم إن اغتصابه لعذراء والأدهى من ذلك طفلة، يثير الشك حول قدرته على التقدير وينتهك قاعدة أن نساء الآخرين لايمسسن، وإن أخرسوا الفتاة الصغيرة والشهود، فخطر أن يتحدث أحد عن ذلك في المستقبل يظل

قائماً، وهذا الاحتمال البعيد حرم عليه أن يكون جديراً بخلافة أبيه وأجداده في تلك الأراضي.

وعدهم جوفاني الصغير تائباً، بأن يستغل الفرص التي سيتيحها له العالم الحديث لخدمة مصالح المافيا مثل فرد من عائلة أنكونا وكما فعل أفراد عائلته الآخرين من قبل. في الواقع، وعلى الرغم من المهانة الشديدة والألم الذي شعر به لتركه العائلة، إلا أن جوفانينو أنكونا كان يعلم بقدراته وكان يرغب في الدراسة، وكانت تجذبه فكرة الدراسة والعمل في مجال الأعمال بالإضافة إلى أنه كان يعي نفوره من الحياة القاسية والقانون القاسي الذي يحكم حياة المافيا في الريف.

كان جوفاني أنكونا نادراً ما يعود إلى صقلية، عاش وتزوج في لومادريا، ابن ضائع بالنسبة لدون فينشينسو وزوجته.

اضطر دون فينشينسو لرواية الواقعة إلى المحامي تشيشيو الفاليبي المستشار على إدارة إقطاعية أمراء برولي وقد خفف الأمر كما لو كان خطأ وقع فيه صبيان مستعرا الشهوة، وأفهمه أنه يفضل أن تجد منولارا عملاً آخر في البلدة. وهكذا لم تجد السيدة ليللا الفاليبي أية معارضة من الزوج عندما أخبرته برغبتها في إلحاق خادمة أخرى بالبيت، ابنة نوريتسا اينسيريللو.

اشترى دون فينشينسو صمت عائلة فيكاري التي تركت الريف وفتحت دكاناً لبيع الخضر والفاكهة وظلت دائماً تحت حراسته وكان أيضاً يستعلم عن حياة عائلة اينسيريللو ومنولارا، مستعداً دائماً لقتل من يشك أنه قد تحدث أو يريد أن يتحدث عن الأمر.

٤٩- دون فينشينسو يتذكر لقاءه الوحيد مع منولارا

وبعد تلك الحادثة بحوالى عشرين عاماً، قبل اشتعال الحرب، أخبره شخص من مدينة أنا «قصر يانه» أن منولارا ترغب في الحديث معه عندما يريد.

دهش دون فينشينسو، وتكرر من ذلك الطلب: ابتزاز أم طلب تعويض بعد مرور كل هذه السنوات؟ تفكير لا ينتج إلا عن عقل مضطرب، بينما يبدو له أنها على العكس تماماً؛ فقد كان يعلم بكل أمورها وعرف أنها معروفة بالاتزان، والحرص، وقلة الحديث، لاتعطي ثقتها لأحد. فمها مخيط مثل «امرأة تحترم كلمتها وتفي بوعودها». لذا أثار دهشته كثيراً طلبها مقابلته. قرر دون فينشينسو أن ينتظر لمدة أسبوعين قبل الرد عليها، وخاصة أنها لم تتعجل ذلك اللقاء.

إلا أن التفكير في منولارا أصبح بالنسبة له مثل قلنسوة من الصلب تضغط فوق رأسه، كانت تثقله أكثر من أى شيء آخر. بعد ذلك بأيام قليلة شعر دون فينشينسو وزوجته بالفخر والرضا عن ابنهما جوفاني، فقد ساعدته المافيا في الحصول على منصب هام في البنك الذى يدير جزءاً كبيراً من أموال العائلة؛ فبدأ يشق طريقه كي يصبح واحداً من أكبر رجال البنوك للمافيا في الخارج. جوفاني الذى بعد أن ابتعد عن صقلية تخرج بجامعة عريقة بميلانو والآن يتحدث بطلاقة الفرنسية، فلا يمكن معرفة أصوله الجنوبية أو انتماءه إلى المافيا. أصبح من المقدر له تخطى والده في المكانة عند المافيا. كان يبدو له من سخريّة القدر أن يتزامن خبر نجاح الابن مع طلب منولارا، ثم بدأ يشك أن بين الأمرين ارتباطاً مثيراً للاشمئزاز، لا يعرف كنهه وبدأ يقلقه كثيراً. فكر أيضاً في إمكانية إسكانها إلى الأبد ستكون واحدة من أولئك الذين اختفوا دون أن يتبقى منهم أى أثر ولم يعثر عليهم أبداً. في شبابه فعل ذلك مع الكثيرين، وكرئيس للمافيا أمر أيضاً بتصفية العشرات، كان أمراً بسيطاً. ومع ذلك قرر في النهاية أن يسمعها ربما بدافع الفضول، كان يريد أن يتحقق مما حدث بالفعل في الماضي.

والباقي كان سيقرره بعد ذلك. ضرب لها موعداً بمكتب موثق عقود، يثق به فقد كان من الواضح أنها تنوى ابتزازه.

كانت الساعة حوالى الثانية من ظهيرة يوم خميس، كان يذكره تماماً، فكان هناك أشخاص قليلون بالطريق، دخلت منولارا إلى المكتب بعصبية حيث كان ينتظرها موثق العقود، ودون فينشينسو، نحيلة، ووجهها شاحب بارز العظام، وشعرها معقوص إلى الخلف على شكل كعكة، ثوبها رمادى بسيط محتشم، كانت تبدو أكبر من عمرها. نهض موثق العقود لاستقبالها بينما ظل دون فينشينسو جالساً مطأطأ الرأس وقد وضع يداً فوق إحدى ساقيه والأخرى اسندها فوق المكتب. جلست منولارا فوق المقعد المقابل، لدون فينشينسو ثم استهلته حديثها: «أشكركم على هذا الموعد.»

اضطر دون فينشينسو إلى رفع عينيه، نظر إليها ملياً، كعادته دون أن يشعر محدثه بنظراته.

حاول في الماضي أن يسترجع قسماتها، ولكنه لم ينجح في تذكر ملامحها كان يتذكر فقط أنها كانت تغنى بصوت قوى عذب والآن وقد ظهرت أمامه، طفرت إلى ذهنه صورة الفتاة الصغيرة النحيلة الشادية التي كانت تغنى بملء حنجرتها تحت الأشجار.

بادلت منولارا نظرتة بلا خجل وقالت ببساطة:

«دون فينشينسو، لم أستمتع بعد ذلك بغناء، صدقني، يؤسفنى ذلك كثيراً».

تدخل موثق العقود في ذلك الحديث غير المنطقي، وأوضح كاتفاقه السابق مع دون فينشينسو أنه حضر هذا الاجتماع إن احتاج الأمر إلى بلورة الحديث، أو كتابة اتفاق وعند ذلك أدرك أنه ليس فقط منولارا وإنما أيضاً دون فينشينسو كانا ينظران إليه كما لو كان تدخله غير مناسب، وأحمق: فقد قطع لقاء حميمياً وهاماً.

قالت له مينولارا بصوت منخفض وحاسم: «سيدي موثق العقود لست في حاجة للمال، من الأفضل أن تنصرف، يستطيع دون فينشينسو استدعاءك إن اقتضت الحاجة.» خفض دون فينشينسو رأسه موافقاً على ذلك.

بقيا وحدهما وقد جلس كل منهما قبالة الآخر، أمام المكتب الفخم من الخشب الخالص وفي الناحية المقابلة كان يظهر مقعد موثق العقود فارغاً في كامل أبعته، بالمسند الطويل والواسع يحيط به إطار من الخشب المنحوت. كان يبدو مقعداً مخصصاً للشخص الغائب، ابنه جوفاني الصغير، والذي لم يذكر اسمه بالمرّة، إلا أن حضوره كان تقريباً ملموساً في هواء المكتب الثقيل اللزج، كما لو كان شبحاً. تنهد دون فينشينسو بصعوبة، حرك يديه ووضعهما كما كانتا من قبل، رفع رأسه الحمراء، الصلعاء تماماً وباغتها بالسؤال:

« ماذا فعل معك؟ »

أجابت منولارا وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:

لم أقل لأحد؟ هل تريدون سماع القصة الآن؟»

أخفض دون فينشينسو رأسه: كان أمراً.

تحدثت بطلاقة، بصوت رتيب، خال من الانفعالات وكانت تسترجع بالضبط وبذهن حاد يقظ الصدمة التي عانت منها وهي في الثالثة عشرة، بنظرة فارغة كما لو كانت تحكي أشياء حدثت لشخص آخر.

«سيادتك، تعلم من أنا وأيضاً أنني كنت أعمل لأعول الراحلتين أمي وأختي، كانت تعجبني الحياة في الحقول والهواء الطلق وكنت أعمل بسعادة. كان الفلاحون في إقطاعية كانيللي يشفقون علينا ويتركون لنا عطايا من الجبن والطعام مخبأ خلف حجر في فتحة أسفل نافذة مخزن القش الصغير، كنت آخذه بعد ذلك إلى البيت وفي ذلك اليوم، أخبرني دون لويجي فيكارى أن هناك بيضتين لي، وقد يكون سمع ذلك.

كان يوماً حاراً ومازالت الكثير من الأشجار لم يتم جمع ثمارها، كان جامعو الحبوب يعملون ببطء وكسل، فيتركون الكثير من اللوز الناضج فوق الأشجار وكنت أتسلق الأشجار وأجمعه كله. كان يعجبني تسلق الأشجار، كنت لا أزال طفلة.

ربما لاحظتني أثناء العمل، لا أدري، أعرف فقط أنه عندما توقفنا عن العمل لراحة الغداء، شعرت بجوع شديد وأكلت كل قطعة الجبن والزيتون الذي أعطوه لي. في العادة كنت أكل القليل منه وأحتفظ بالبقية لأحملها إلى البيت فقد كانت أختي ذات شهية قليلة وتلك الأصناف كانت تفتح شهيتها، كان يدور حولنا ونحن نعمل، كما تفعل سيادتكم. كنت أحكي لقاطفات اللوز الأخريات أنه لم يكن ينبغي لي أن أكل كل الجبن بالفلفل فكان لذيذاً جداً. سمع ما قلته واقترب مني، أخبرني أن لديه نصف قطعة من ذلك الجبن، ويمكنه أن يعطيني قطعة كبيرة منها وأنتى سأجدها في مخزن القش إن ذهبت مبكراً لأنه لن يمكث بالمكان لمدة طويلة، و سيادتكم دون فينشينسو كنت قد انصرفت بالفعل، لذا صدقت ما قاله أنا وقاطفة لوز أخرى.

حملنا القوارير الفارغة ملئها بالمياه الباردة، رفعناها فوق رأسنا وسرنا بها كما كان حرياً بالفتيات، الآن لم أعد أحملها فوق رأسي ولا حتى مستلقية.» صمتت. نظرت إلى جهة مباشرة ثم عادت نظرتها مشوشة وغرقت حدقتها في إحباط عميق.

عادت منولارا تتحدث بنفس النبرة: «ذهبت للمرة الأخيرة لملء القوارير بالمياه من البئر. وما أن دخلت حتى هاجمني مثل حيوان مثار جنسياً. لم أتمكن من الدفاع عن نفسي مزق ثوبي ولحمي، كان أقوى مني، كتم فمي، عضضته فقط مرتين لطلب النجدة، لكمني في فمي وصدري، وسبب لي ألماً أشعر به إلى الآن، اخترق جسدي حتى أحشائي، كنت أشعر بأنني ساموت.

لحسن الحظ وصل دون لويجي فيكارى وزوجته. وصلاً، ولكن قبل مساعدتي، انشغلاً بمساعدته، فهو ابنكم، أما أنا فيتيمة، فقيرة، لحقها العار.

مكثت على هذه الحالة ببيت الخالة ماريا فيكاري، كنت أود أن تبتلعنى الأرض من شدة الإحساس بالعار، كنت أشعر بالألم داخل جسدى وخارجة. الخالة ماريا غسلتنى قليلا وأعطتنى بيضاً وخضروات وخبزاً كثيراً، عدت إلى المنزل وحيدة دون تحية الآخرين، كانت كل خطوة بالنسبة لى أما يعتصرنى من شدة المعاناة التى كنت أشعر بها.

«كانت أمى قد بلغها أننى تورطت مع أحدهم وأن الذنب ذنبى وكانت تنوى قتلى ضرباً، إن لم تكن بهذا الوهن، ولكنها عندما رأتنى فهمت أن الأمر ليس كذلك ولم تسألنى عنه. كانت تحترمكم كثيراً دون فينشينسو، كانت تقول أنكم كنتم تستطيعون طرد أبى عندما كان يعمل أجيرو ولم يكن لديه القوة للعزق لأنه كانه يحتضر ولكنكم لم تفعلوا وربما بسبب ذلك، صدقت طيبة الابن عندما قدم لى الجبن.

كانت النيران تتأجج داخلى كلما تصورت أن سيادتك قد تسوء بى الظن مثل الآخرين، وتعتقد أننى المسئولة عما حدث لى، لأن الحقيقة ليست كذلك. حتى الآن يعلم حقيقة ما حدث نحن الاثنان فقط أنا وهو.

بقيت بالمنزل لعدة أيام لم أكن أستطيع التفكير، ولم يكن هناك مستقبل لنا. نفذ الطعام وأمى وأختى كانتا مريضتين جداً. ألحقتنى أمى بالخدمة ببيت الفاليبى وإن لم تكن تريد ذلك أبداً لأنها كانت تقول أنه لا يمكن الوثوق بالسادة الذكور وكانت محقة، فأنا الآن أسيرة فى ذلك البيت وسأموت دون أن يكون لى أبناء أو عائلة.

لقد حملت من المحامى أوراتسيو الفاليبى ولكنه لا ينبغى أن يعرف ذلك، سيادتك الوحيد الذى تعلم ذلك الآن بعد الطبيب ميندكو، والسيدة ليلا. قمت بإجراء عملية إجهاض واستأصلت معها كل شىء، كان ذلك ضرورياً. وأثناء وجودى بالمستشفى، عرفت أنه يوجد طريق لاختبار الدماء وتحليل البصمات، وبذا يمكن تحديد أصحابها، وقد قمت بإجراء التحليل للمنديل الذى استخدمه لتنظيف نفسه ليس فقط من

الدماء ولكن أيضا من آثار عاره وبصمات أصابعه التي طبعت فوق المنديل. وقد احتفظت به، وهكذا يمكن معرفة صاحبها، أنا أعرف ولست بحاجة إلى أدلة. ولكن إن لم تصدقني سأعطيه لك مع نتائج التحاليل التي قمت بإجرائها. لست هنا لابترزاز أحد أو لطلب نقود من سيادتكم أو منه. أنا هنا لأخبرك أن الحقيقة واضحة، وأهدى لك الأدلة الوحيدة التي أملكها والتي لا أريد أن أراها بعد ذلك أبدا.»

فتحت الحقيبة وأخرجت مظروفاً، وضعته فوق المكتب «أسألكم ثلاثة صنائع فقط، يمكنكم أيضا رفضها وثقوا تماما أنني لن أستطيع أو أرغب في إيذائكم أو إيذائه. لقد أشفقت السيدة ليلا الفالبيبي علي وأهدتني خمسين قطعة ذهبية، كي أسامح ابنها على ما فعله معي، ربما كان أيضاً مبالغاً فيه فلم أكن عذراء وهو لم يغتصبي أبدا كما فعل الآخر. بقيت في بيتهم. لو كنت تركتهم لأصبحت عاهرة لخنازير آخرين مثله ولم تكن أختي لتجد الدواء ولكانت ماتت.»

توقفت ثم أكملت: «لا أشعر بالخجل، لأنني نجحت في علاج أختي، وتزويجها عذراء برجل جاد، لديها ابنان وتعيش سعيدة كما أرادت أمي رحمها الله»، توقفت برهة، وثبتت عينيها مباشرة في عيني دون فينشينسو.»

سألها بصوت أجش:

«ماذا يمكن أن أفعل لك؟»

«الصنيع الأول، فوري: أحتاج مساعدتكم، لاستثمار تلك القطع أقرأ قليلا، وأفهم كثيرا. لا أريد أن يعرف أحد شيئا عن تلك الهبة، فضلا عن أنني أملك بعض المدخرات القليلة.»

سيادتك صاحب نقود، أعرف أيضا أن العائلة تقوم باستثمارات بالخارج، أعتقد أنه من الحكمة استثمار تلك النقود جيدا وسرا، وهو على أية حال ما تفعلوه أيضا. لا أدري كيف ولكني أريد لهذه النقود أن تزداد، لأنني أخشى شيئا واحداً أن أعود للفقير من جديد.

الثاني في المستقبل: إذا احتجت للحماية أو طلب المساعدة، أن تساعدوني بكل سطوتكم.

الثالث خاص بالاحترام الذي أستحقه.

إذا حدث أن توفيت قبل سيادتكم، أشعر داخلي أنني عانيت كثيراً لأحظى بعمر طويل ونحن عائلة انسريلو نموت في سن مبكرة، أريد وعداً أن تحضر جنازتي لأنه هكذا يسدد رجل المافيا دينه تجاه قاطفة لوز فقيرة، سلبها لحمك ودمك شرفها. نظر إليها دون فينشينسو بثبات دون أن يتحرك.

انحنى إلى الأمام، أمسك بيديها، وقبض عليهما بين يديه وأخفض عينيه « فعلت منولارا نفس الشيء، ثم قال: «كلمة شرف». نهضاً، ثم أخذ دون فينشينسو المظروف، وانصرف لم ير دون فينشينسو منولارا بعد ذلك واحتفظ بكلمته. استثمر لها الأموال في سويسرا وأتاح لها نفس المعاملة الخاصة بأفراد المافيا، وكان أحد الموظفين الكبار يقابلها في صقلية عندما يأتي للاتصال بالعملاء أثناء أجازاته الأسرية.»

وكان يستخدم معها نفس قنوات الاتصال اللائقة. أعاد دون فينشينسو الاختبارات حول المنديل، تأكد من النتائج وأخبر الابن لم تكن مناقشة مؤلمة. قال له أنه يدين بكل حظه لمنولار، لأنه لولا ما حدث معها، لما أبعدته عنه وعن البلدة. الآن وقد أصبح ثرياً وفي مأمن، عليه أن يسدد الدين الأخلاقي نحوها، إضافة فورية لمبلغ ضخّم إلى العملات الذهبية ومراقبة حسابها، وهي على أية حال لم تكن لتدرك شيئاً. أما جوفانيني الذي كان لا يزال يخشى أباه كي يثبت له أنه تائب على ما فعل وأنه رجل ينتمي إلى المافيا، قام بواجبه. وكان ذلك نواة ثروة منولارا التي لم تكن تعلم شيئاً عن تزايدها، ونمو استثماراتها.

كان تحقيق الطلب الثاني عسيراً. أراضى حقول بوليري التي كانت عائلة الفاليبي قد اشترتها بثمن زهيد من الأمير والتي كانت تدر عائداً بسيطاً ولكنها كانت ملاصقة

تقريباً لروكا كولمبا الدنيا. أرسلت إليه منولار من يخبره أنها كانت تعلم بالحديث عن إنشاء مدرسة جديدة بروكا كولمبا الدنيا، وعن التوسع في المدينة، وإن إدخال أراضي بوليري ضمن الأراضي الصالحة للبناء وإقامة المدرسة بها، سيسعدها، لأنهم يحتاجون إلى بيع الأراضي الريفية. تحتم على دون فينسيشوا التدخل والتوسط كثيراً ليحقق ذلك ولكنه في النهاية نجح في تحقيقه: فأقيم في تلك الأراضي ليست فقط المدرسة وإنما أيضاً مباني المساكن الشعبية ومصنع أسمنت مما أثرى عائلة الفالبيبي.

الطلب الثالث حققه لها يوم الثلاثاء ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣. منولارا تستحق كل احترام وسيظل حارساً لذكراها، و الويل لمن يتحدث عنها بسوء.

٥٠. ثلاثينية منولارا

لم يدهش فقط أهالي روكاكولمبا وإنما أيضاً عائلة الفالبيى للاعلان الذى نشر بجريدة «جورنال دى سيشيليا» كان يُذكر الأصدقاء بتاريخ وساعة القداس بكنيسة عذراء الآلام بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين يوماً على رحيل الأنسة ماريا روزاليا انسيريللو.

أقام الأب ارينا القداس بسرعة كعادته. وهذه المرة لم يلق الموعظة.

« يمكنه أن يذكر كل ما يطرأ على ذهنه » فصالة الكنيسة خالية تقريباً. «حدث بذلك نفسه دون باولينو، والذى كان واحداً من القليلين الذين حضروا القداس. كانت السيدة أدريانا الفالبيى وكارميلا ليونى جالستين بجانب الرئيس فاتا وزوجته بينما كان موثق العقود فاتسانو يقف خلفهما بجوار الطبيب منيدكو، وشقيقته. كان هناك عدد قليل آخر من الأشخاص، لم يتجاوز عددهم العشرة وأثناء العودة، كان دون باولينو يغمغم قائلاً لزوجته: «قلت لك أن الناس تنسى، ولا أشكو من ذلك، أعتقد أن ذلك طبيعي، فلكلمة «منولارا» نفسها تكاد تختفى من لغتنا، اختفت قاطفات اللوز من الحقول، يجمعون اللوز الآن عن طريق قطع المشمع، وعماً قليل سيأتى أيضاً التونسيون إلى جبالنا... وهكذا لن نرى قاطفات اللوز بعد ذلك.

صمم بيترو فاتا على دعوة الأب أرينا بعد انتهاء القداس. كان يود مناقشة أمر هام معه ومع جاني الفالبيى الذى كان سيلحق بهما فى الواحدة ظهراً عند وصوله من كاتنيا خصيصاً لهذا اللقاء.

دعى بيترو فاتا جاني، والقسيس إلى حجرة مكتبه بعد تناول الطعام، بدا رسمياً ومتحرجاً فى نفس الوقت.

- «جاني، لدي أخبار سعيدة لعائلة الفالبيى، وأريد أن تحدث عنها أولاً معك وحدك مع الأب أرينا، كى تقول لى كيف يمكن إخبار أمك وأختيك وتخبرنى عن الدور الذى ترغب فى القيام به.

سأله جاني متكرراً: «وضح يا عمى بيترو، ماذا تقصد بهذا الدور؟»

كان قد أيقظه في ذلك الصباح صديق كان قد قرأ إعلان القديس في الجريدة وهذه المرة لم تنشره عائلة الفاليبي. تحدث مع أمه وشقيقته وكن لا يعلمن شيئاً سواء عن الإعلان أو عن القديس. شعر بالخوف فكان لا يدرى إن كانت منولارا تدبر لهما مكيدة أخرى أو مزحة سخيفة، كان متردداً بين الذهاب إلى روكا كولمبا والبقاء في كاتنيا. تحدث أيضاً مع الأب ارينا الذي رد بأن الاحتفال بمرور ثلاثين يوماً على الوفاة يعتبر من الأمور العادية وكان قد اتفق على ذلك مع منولارا نفسها، ودهش لعدم معرفة جاني بذلك الأمر. ثم تبع ذلك الدعوة إلى الغداء ببيت فاتا، وكان لدى الرئيس أخبار سعيدة وهامة يريد إخباره بها بسرعة.

«محمى شهير، ومحترم من زيوريخ وقد قمت بالتحري عنه بالشكل اللائق أرسل خطاباً لى، ولرئيس المدينة الأسبوع الماضي. فقد توفي حديثاً عميل قديم له، محب للفنون وخصص جزءاً كبيراً من ثروته لإنشاء مؤسسة ثقافية تحمل أسم أبيك.»

قال جاني: «أبي ؟ لا أصدق.»

رد بيترو فاتا:

أنا أيضاً في أول الأمر، كان لى نفس رد الفعل ولكن بعد تفكير فى الأمر، وجدت أن أوراتسيو كان شخصاً عزيز الثقافة وجذاباً... ربما تعرّف إليه ذلك المحسن وأعجب به.

«الآن يرغب فى إقامة احتفالية موسيقية للفن الأوبرالى فى شهر مارس، تكريماً لذكرى أبيك بعاصمة المقاطعة وقد خصص أيضاً أموالاً لمنحة دراسية تخصص لشاب فقير لدراسة الغناء فى الكونسرفتوار بكاتينا.

وماذا أيضاً؟ سأل جاني متشككاً، ساخراً.

«أنا رئيس تلك المؤسسة، الذى يتولى تعيين الأعضاء للجان المختلفة كنت أريد أن أعرف إن كان الأمر يهمك.

الشروط التي وضعها ذلك المحسن قليلة وواضحة.

يطلب أن تعزف مقطوعات اختارها، في أول وآخر العرض، كلها من تأليف فيردي، ويبدأ بأوبرا عابدة، يتمنى أن تقوم أنت أو ممثل آخر لعائلة الفالبيى بتسليم الجائزة للفائز في مسابقة الغناء وأن يطلق على الاحتفالية «منولارا» وهى مخصصة لذكرى المحامى أوراتسيو الفالبيى رجل الثقافة والمهتم بجمع واقتناء التحف.»

انفجر جاني قائلاً:

«اللعنة»

علق على ذلك الأب أرينا بابتسامة ساخرة.

«تهانى القلبية يا بروفيسور، كان والدك سيسعده ذلك الرد.»

قال جاني قلقاً: «ماذا سيقول الناس؟» «وإن كانت مكيدة، والمافيا ستغضب منا؟ نحن لم ننتبين بعد من أين كانت تأتيها النقود. أنا خائف، أعتقد أن لمنو دخلا بذلك، تلك ستقودنا إلى الخراب.»

«اهدأ يا جاني، لايجب أن نفعل شيئاً، لقد قبلت الوظيفة، كنت ببساطة أود معرفة إن كنت ترغب في الاشتراك. يمكن أن يكون أمراً مفيداً فهو يتعلق بشيء منظم جيداً، ومهم للمقاطعة وربما تعداها. يمكن أن تشترك زوجتك باللجنة الفنية، ربما أيضاً ليللا وربما أيضاً كارميلا. هذا الأمر يعد شرفاً لعائلة الفالبيى، كنت على العكس أرغب في معرفة رأى أمك.

«لا أدري فهى تعشق حبيبتهامنو، وعلى الرغم من كل شيء، أثق أنها ستسعد بذلك.»

تبادل بيترو فاتا والقسيس نظرة تفاهم، فهذه بالنسبة لهم كانت أخباراً جيدة، كانا يخشيان الأسوأ.

استعاد جاني هدوءه وأضاف بغضب:

«لنتحدث بصراحة، أنا لا أعرف من هو هذا المحسن ولكنى أعرف أن هذه الأموال سرقها منا منولارا، والآن ترميها في وجوهنا بهذا الشكل، أشعر بالاشمئزاز. أمى لن تفهم ذلك أبداً، على أية حال أنه عار على اسم العائلة، إن نحينا جانباً الحديث عن والدي، الذى كان سيذوب خجلاً أمام فكرة وضع اسمه بجانب اسم تلك الخادمة. وبالتأكيد لم يكن ليرغب في ذلك وإلا فما منعه من أن يفعله.» نظر حوله كان بيتروفاتا والأب أرينا هادئين، لم تتغير تعبيرات وجهيهما مثال صادق على تلك المقدره على إخفاء أفكار والمشاعر التى يتشربها الصقليون مع لبن أمهاتهم.»

قال جاني ببرود:

«افعل ما يحلو لك ياعمى بيترو، لم أكن أتوقع منك ذلك، كنت أظنك صديقاً حميماً وأخاً لأبى.»

«ولا زلت كذلك.» كانت هناك نبرة توتر في صوت بيترو فاتا

رفع جاني صوته:

«سيقول الناس إنه كانت هناك علاقة بين أبى ومنو، وربما قصة حب، هل تفهم، وهذا ما كانت تريده. لم تفلح في ذلك أثناء حياتها، والآن تريد الانتقام منا. يجب أن نشرح للناس أن علاقتهما كانت شيئاً آخر»

أجاب بيتروفاتا بثبات:

«أعلم أن أبيك كان يحبها»

كان جاني مذهولاً.

أضاف مستهزئاً:

«لا أصدقك ياعمى، المنصب جعل أفكارك تضطرب، الآن ستقول لى إنها كانت

تحب أمي، تحبنا نحن الأبناء وتريد فقط مصلحتنا، وكان يجدر بنا إطاعة أوامرنا.»

تدخّل الأب أرينا: «اهدأ يا بروفيسور، لا أستطيع أن أخون أسرار الاعتراف. ولكني أوكّد لك أنه لن تكون هناك نتائج سيئة من المافيا أو غيرها، على شرط ألا تتحدّثوا بسوء عن منولارا في العلن، لن تصلكم أية خطابات أو رسائل منها نحن نتحدّث فقط عن احتفالية موسيقية، إنها شيء جميل وسيشرف اسم عائلتكم.»

أضاف بيتروفاتا: «لا تخشى سخرية الناس يا جاني على العكس، فإن ذلك يتوجّج تصرفكم السابق، فقد نشرتم النعي مرتين. سأعطي تفسيراً لاختيار عنوان الاحتفالية على هذا النحو وهو كما يطلب صاحب المبادرة، بأن شخصية من الخدم أصبحت مسئولة عن إدارة الأملاك، خدمت العائلة بأمانة وهذا أيضاً من كلماتكم عنها. سأضيف بأنه بفضلكم استطاعت الدراسة وأصبحت أيضاً مساعدة لاوراتسيو في أبحاثه الفنية والموسيقية. فضلا عن أنها بفضل عملها في إدارة أعمالكم، أتاحت لاورتسيو الوقت الذي خصصه للفن والموسيقى، ولست أبالغ فذلك يطابق الحقيقة المجردة.» كان بيتروفاتا يتحدّث جيّداً، هدأ جاني وإن كان لا يزال يفكر في خسارتهم الكبيرة عندما قاموا بتحطيم المزهرات الإغريقية!.

ترك الأب أرينا منزل فاتا في الظهر، وذهب مباشرة إلى منزل الطبيب منديكو، قبل أن يستقل الحافلة ليعود إلى الريف، كان الطبيب يقرأ الجريدة. جالساً في الصالون مع أخته.

قال الأب أرينا رافضاً دعوتها بالجلوس لتناول القهوة «يجب أن أعطيك إجابة وجيزة أيها الطبيب. لقد سألتني الشهر الماضي سؤالاً صعباً، لم أستطع إجابته، الآن أعرف الإجابة:» نعم.

رد الفعل المبالغ فيه وغير المتوقع من الأخ أمام كلمات القسيس، أكد للسيدة بريما بالدليل القاطع أن أختها أصبحت فعلاً غريب الأطوار، ربما كان على أعتاب خرف الشيخوخة. وبالفعل فإن الطبيب ميندكو الذي كان قد نهض طلب من

مقعده لاستقبال القسيس وكان لا يزال واقفاً أمامه، عندما سمع هذا الكلام، أمسك بذراعه، وأجبره على خفض قامته، أحاط به بذراعيه القصيرتين وطقطق قبلتين فوق وجنتيه ولم يتركه، وبقي متعلقاً بالقسيس في عناق طويل. وفي نفس الوقت لم يحاول الأب أرينا الإفلات، وبدا أنه يقبل ذلك التصرف كما لو كان شيئاً طبيعياً. وأخيراً، انفصل العجوزان وهما ينظران إلى السيدة دي بريما، وكأنهما مراهقان متلبسان بفعل غير لائق.

استأذن الأب أرينا متحرجاً و متلعثماً. اصطحبه الطبيب إلى الباب، وقال بصوت منخفض:

«أحسنت منولارا، حقيقة إن الحب لا يعترف بالسن!»

احتضن الأب أرينا مرة أخرى قبل أن يلحق بشقيقته في الصالون.

سألته السيدة دي بريما:

«ميمو، ماذا كان يعنى الأب أرينا بتلك الإجابة؟» كانت مستعدة لإغراق شقيقها بالأسئلة.»

قال الطبيب:

«كونشيتا، هناك بعض الأمور ذات طبيعة شخصية، ولا ينبغي أن تهتمى بها. الآن كفى من فضلك.» عاد للقراءة.

ذهبت السيدة دي بريما إلى حجرتها، وهى تشعر بالإهانة، تاركة الطبيب ميندكو لقراءة الجريدة، وكان يشعر بسعادة لم يشعر بها منذ زمن.

الختام

انتقل جاسبرى ريسيكو للإقامة في باليرمو بعد حصوله على ترقية بسيطة، بينما انتقل ماسيمو ليونى وكارميلا الفاليبى إلى قصر الفاليبى للعيش مع السيدة الفاليبى وظلا معها حتى موتها في عام ١٩٦٧.

انفصلت كارميلا عن زوجها بعد ذلك بفترة وجيزة عقب مشاجرة عنيفة. قررت كارميلا بعد ذلك فتح محل للملابس بروكاكولومبا، وحقق المشروع نجاحاً كبيراً. كانت تعيش بشقة في قصر الفاليبى وتقضى أمسياتها بالمنزل، جالسة إلى المنضدة الصغيرة، تجمع قطع لعبة «البازل» التى استهوتها منذ محاولتها جمع قطع المزهريات التى حطمتها مع أخويها في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣. في الواقع نجحت في ذلك كثيراً لدرجة أن الأشقاء الثلاثة قرروا تسليم الدكتور بالميرى بالمتحف الأثرى القطع المحطمة من مجموعات الأب (التى تم ترميمها وعرضها الآن بالمتحف) وذلك بعد إحساسهم بالذنب ولتهدئة روح منولارا التى أصبحت تشغل حيزاً وأبعاداً خارقة وشيطانية في عقولهم.

كانت لعبة البازل المسيطرة على أمسيات كارميلا، تمارسها كل ليلة ما عدا أربع مرات في العام، عند تغيير الفصول، حيث يحضر إلى صقلية مندوب وسيم لبيت أزياء للسيدات بنابولى لتلقى طلبات العميلات. عندئذ ترمى كارميلا في أحضان المندوب في حب موسمى، قوى، هادئ. وعندما يتركها ليطوف بالأقاليم الأخرى، تسقط كارميلا في خمول حواس، تساعد على لعبة البازل لحين الزيارة اللاحقة.

أقام ماسيمو ليونى ببيت شقيقته واستمر في حياة العريضة. عندما بلغ الخمسين، حملت منه فتاة من كاتنيا، هدده إخوتها وبدا أنهم سينفذون تهديدهم. شجعه صهره على ترك البلدة للهرب من مطارديه، وبعد ذلك لم يعد يسمع عنه في روكاكولومبا.

أصبحت ليلا من المتردات المحترمت على الصالونات الراقية بروما. كانت تستقبل الناس ببيتها بأناقة حيث يحتل مكان الصدارة بصالونها مزهريتان من الخزف اليوناني، وقد نالت إعجاب جميع المترددين من المثقفين بالعاصمة كمثل رائع للفن اليوناني. بالإضافة إلى أن ليلا أصبحت عضواً بلجنة تحكيم مسابقة «منولارا» السنوية التي بالإضافة إلى الاحتفاليات الموسيقية كانت محل تقدير وإعجاب الجزيرة كلها.

عاش جاني حياة هادئة وراضية، مع زوجته وابنه اوراتسيو بكاتنيا، وارتقى في سلم الجامعة. لم تساوره أبداً الشكوك بأن اوراتسيو ليس ابنه، وإنما ابن صديق حميم للعائلة وزميل لزوجته. بقي قصر الفالبي كما هو وإن كان اعتراه بعض القدم. كان جاني وزوجته يقيمان بالطابق العلوي عند قدميهما لروكاكولومبا للإجازات أو للاحتفاليات الموسيقية وفي الغالب كانا يدعوان بعض أصدقائهما. وأوراتسيو الصغير حبلت به أمه فوق الأريكة المقابلة للمدفأة بحجرة مكتب المحامي الفالبي.

نسيت الناس سريعاً ماريا أينسريللو، الملقبة بمنولارا، ولكنها تتذكر بفخر المواطن البارز المحامي أوراتسيو الفالبي، المثقف الكبير وجامع التحف التي تشرف ذكرها البلدة.

أهديت الرواية إلى شركة الطيران البريطانية. أنا مدينة لتأخر طائرة باليرمو- لندن يوم ٢ سبتمبر ٢٠٠٠، بلحظة الإلهام التي دفعتني لكتابة هذه الرواية. لذا- وربما أيضا لذلك الخط «الهوائي» الذي يربطني مع بلدي- تظل شركة الطيران البريطانية في الإهداء.

أود أن أشكر شخصين لمساعدتهما لي في كتابة هذه الرواية: جوفانا سالفيا، القارئة الأولى، ومسئولة النشر المتحمسة التي لم تبخل باقتراحاتها السديدة الصائبة وقد أصبحت الآن أيضا صديقة. ثم مراجع النسخة بدار نشر فلترينللي ألبرتو روللو، لمساعدته الدائبة الصبورة القيمة والتي لا تقل عن المستوى الرفيع لعمله المهني. العمل معه بالنسبة لي كان متعة حقيقية فضلاً عن تعلمي المستمر منه.

ألبرتو روللو لم يمنحني فقط «دورة تخصص» في الكتابة، فمنحته تعدت ذلك لتكشف لي العديد من الأبعاد لمعاني الكلمات باللهجة الصقلية والإنجليزية، مرادفات، أدهشني عدم معرفتي بها.

سيمونتا أنيللو هورنوبي

ولدت في باليرمو ١٩٤٥

تخرجت في كلية الحقوق عام ١٩٦٧، وانتقلت للاقامة في لندن عام ١٩٧٢.

بدأت الكتابة عام ٢٠٠٢، حيث أصدرت رواية منولارا «قافطة اللوز» التي حققت نجاحاً كبيراً، و نالت عنها العديد من الجوائز الأدبية المهمة وترجمت الرواية إلى عشرين لغة. توالى بعد ذلك إصداراتها الأدبية من أهمها العمدة الماركيزة عام ٢٠٠٤، رياح عاصفة عام ٢٠٠٧، الراهبة عام ٢٠١٠ والغرفة المظلمة عام ٢٠١٠ و شارع ٢٠ سبتمبر ٢٠١٤. لا تزال سيمونتا مرتبطة بوطنها رغم سنوات الاغتراب الطويلة وتدور أحداث معظم رواياتها في جزيرة صقلية وتنضح بحضارة البحر الأبيض المتوسط.

تهتم سيمونتا انيللوهورنوبي بمشاكل المرأة في العالم العربي، وصدرت لها العديد من الأبحاث في هذا المجال.

نجلاء والي

حاصلة على دكتوراة الآداب في اللغة الإيطالية بدرجة مرتبة الشرف الأولى من كلية الألسن « جامعة عين شمس »

صدرت لها العديد من الترجمات من أهمها: حكايات كالفيانو لإيتالو كالفيانو، وابتسامة البحار المجهول لفينشينسو كونصلو، وجزر النعيم لكلاوديو باتشيفيكو وحياة ماريانا أوكريا لداتشيا ماراينى.

تموت منولارا، خادمة عائلة الفالبي، وتترك وصية لمخدوميها تطلب منهم نشر نعي لها تحدد كلماته مثلما تضع تفاصيل جنازتها بدقة، وتخبر العائلة بحجم الميراث وطريقة التصرف في الأملاك. من أين أتت منولارا بكل هذه السلطة على العائلة؟!

كما في كل المجتمعات الريفية الصغيرة، تنطلق النميمة لترسم تفاصيل حياة منولارا، بل حيواتها المجهولة، البعض يؤكد أنها عشيقة الأب، والبعض يجزم بأنها صديقة الأم وكاتمة أسرارها، والبعض يؤكد أن الخادمة التي كانت مجرد قاطفة لوز بائسة، عضو خطير في المافيا. الطريف أن وقائع ما بعد الجنازة تكشف عن جوانب تجعل كل الحيوانات المقترحة لمنولارا ممكنة وجديرة بالتصديق!

رواية شديدة الجاذبية، تجمع بين تقنيات «رواية الأصوات المتعددة» وتشويق الحكبة البوليسية. وهي الرواية الأولى للكاتبة الإيطالية سيمونتا أنيللو هورنوي، وهي الأخرى صاحبة سيرة تدعو إلى الحيرة، فقد بدأت الكتابة في السابعة والخمسين، وولدت مكتملة الأدوات.

